د. محمود محمد عماره
الأستاذ بجامعة الأزهر
عضو مجمع البحوث الإسلامية

تأملات في سورة يوسف

راجعه وخرج أحاديثه
د. محمد محمد العاصي
المدرس بجامعة الأزهر

ط١ عام ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

الطبعة الأولى
١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م

مطابع التوحيد الحديثة بشبين الكوم
ت: ٠٤٨/٢٣١٥٤٢٠

تمهيد

يقول الشاعر العربي :

ولا بد من شكوى إلى ذى مروءة ∴ يسليك . أو ينجيك . أو يتوجع

يريد الشاعر أن يقول :

قد يكون البلاء شديدا .. وعندئذ فلن تستطيع بطاقتك المحدودة أن تتحمله وحدك .. ولا بد من قسمته على اثنين :

أولهما : أنت ..

والثانى : رجل صاحب مروءة . يتحمل معك وقع البلاء . على قدر مروءته :

فهناك من لا يملك إلا أن يسليك .. ومن يذرف الدمع من أجلك ..

وهناك من يخوض معك لجة المحنة .. ولا يكتفى بالتسلية .. ولا بالتوجع.

ولكن الذى يسليك .. قد ينجح فعلا فى الترويح عنك بالكلمة الحانية ..

ولكن قد تتسلى .. ولكنك لا تسلو ..

وقد تجد من تشكو " عبد المعين " الذى يحتاج مثلك إلى معين ؟!

وقد يقترب معك من شاطئ الأمان .. لكنه لن يرسو بك على هذا الشاطئ الآمن ..

وقد ترتد إليك موجة اليأس .. وتضيق عليك الأرض بما رحبت .. ثم تتسائل آسفا :

متى نصر الله ؟!

ومن أجل ذلك كان الفلاح أدق تعبيرا عند ما كان يطوى كشحه على همومه . قائلا .

الشكوى إلى غير الله مذلة !

وهو المعنى المشار إليه بقول الشاعر متحديا غريمه :

لست أشكو منك فالشكوى عذاب الأبرياء

وهى قيد : ترسف العزة فيه والاباء

أنا لا أشكو .. ففى الشكوى انحناء . وأنا نبض عروقى كبرياء

" والكبرياء لله وحده "

لماذا الشكوى إلى الله ؟

أولا : لأنه عز وجل عليم بالعواقب

وثانيا : لأنه وحده سبحانه القادر على إزالة أسباب الشكوى ..

وهذا ما حمل الشاعر على أن يقول :

وهبك وقيت السهم من حيث يتقى

فمن ليد ترميك من حيث لا تدري ..

إن لهذه اليد ربا هو خالقها وهو سبحانه القادر على إمساكها حتى لا ترميك بالسهم من خلال الظلام

وهنا نذكر " يعقوب عليه السلام " فى محنته إذ قال ما حكاه القرآن الكريم عنه :

(قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون) يوسف/٨٦

وثالثا :

قد يكون وقع البلاء أشد عندما يأتيك من صديق : مما يحميك على أن تقول :

سهل أن أسامح عدوى

صعب أن أسامح صديقى

لماذا ؟

لأن قذيفة الصديق تأتيك من منطقة الأمان .. وإذن .. فهى مما يجرح القلب ..

وجرح القلب أنكى . وقد لايندمل

ألا إن الجروح فى الجلد .. تندمل .. وكأن شيئا لم يكن !

أما جروح القلب .. فإنها لاتندمل .. بما تحدث من « قروح » فى قلوب المظلومين !

وهكذا ظلم الأصدقاء :

لقد كنت تشكو إليه الزمان ..

فصرت تشكو الزمان فيه

وتطلب منه الأمان !!

رواد على الطريق

ولقد كان هناك رواد قرآنيون :

كانوا - بالقرآن - غوث اللهيف:

اشتكى الطالب إلى شيخه فقال :

إن القوم قد تضافروا على . فصاروا على يدا واحدة .

فقال له الشيخ :

يد الله فوق أيديهم .

فقال الفتى :

إن لهم مكرا .

فقال له :

ولا يحيق المكر السئ إلا بأهله .

فقال الطالب :

إنهم كثيرون .. وأنا واحد ..

فقال له :

كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين .

هى الأيام والعبر وأمر الله ينتظر

أتيأس أن ترى فرجا ؟! فأين الله والقدر

ومن مدرسة هذا الطالب المظلوم .. زميله الذى قال لشيخه :

مشكلتى هى :

كلما صادقت إنسانا .. تركنى

فقال له شيخه :

يابنى : أبشر :

فإن الله عز وجل يريدك له وحده سبحانه !!

إنها إذن تلك « العزلة » الإيجابية .. والتى تفر بك من هذا التدافع المحموم بين البشر .. لتكون فى ضيافة خالق هؤلاء البشر سبحانه وتعالى ..

وقد سبقنا إليها واحد من « أمراء » الدنيا :

سئل إبراهيم بن أدهم :

لمَ لاتخالط الناس ؟

فقال :

إن صاحبتُ من هو دونى .. آذانى بجهله ..

وإن صحبت من هو فوقى .. تكبر علىّ .

وإن صحبت من هو مثلى : حسدنى

فاشتغلت بمن ليس فى صحبته ملل ولا فى وصله انقطاع . ولا فى الأنس به وحشة .

ظلم الأقرباء

وقد اشتكى رجل إلى شيخه ظلم أقربائه له فقال له الشيخ :

هذه شكوى قديمة :

فقد اشتكى واحد من الصحابة إلى الرسول الله ﷺ أنه كلما أوسع أقرباءه وفاء .. أوسعوه جفاء .. وانتهى الموقف بضرورة أن يبقى بين الأقرباء خيط لا ينقطع ..

لا ينقطع أبدا تحت أى ظرف من الظروف :

ثم زاده الشيخ من خبرته ما يفرض عليه الاستمساك بالعروة الوثقى وهى :

صلة الرحم .. لمالها من أثر فعال فى حياة الإنسان .. مستشهدا بما توصل إليه العلم الحديث فى هذا المجال :

صلة الرحم

وطول العمر!

ماذا يقول العلم الحديث عن صلة الرحم وأثرها فى :

١- تحقيق الرخاء

٢- وطول العمر ؟

يقول العلماء :

هناك مايسمى « هرمونات السعادة » والمعروفة باسم : « السرتوتين »

ومن آثارها أنها :

أ- تقوى جهاز المناعة فى كيان الإنسان .

ب- يعتدل بها المزاج .

جـ- تقاوم الاكتئاب .

ولكن .. متى تكون هذه الآثار لتلك المادة السحرية ؟

يجيب العلماء قائلين :

إذا كان الإنسان مسرورا . راضيا عن ذاته . منسجما مع من حوله .. ومايترتب على ذلك من تواصل وتعاون عن طريق جسور من المودة

ويتم ذلك كله عن طريق التواصل الحميم مع ذوى الأرحام .. والذى به تستقر النفوس . وتنبسط . وتنشرح الصدور .. ومن بعد ذلك : يكون الرخاء وطول العمر بقدر ماتكون القطيعة مبعثا لكثير من الأمراض . ومنها :

أ- ضعف الجهاز المناعى .

ب- القلق النفسى .

جـ- والمنتهى بالاكتئاب

د- مما يجعل الإنسان فريسة لقائمة طويلة من الأمراض النفسية والجسمية على سواء ..

وهنا يتحقق ما أشار إليه الحديث الشريف الداعى إلى صلة الرحم سبيلا إلى الرخاء وامتداد العمر .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« من سره أن يبسط له فى رزقه وأن ينسأ له فى أثره .. فليصل رحمه » رواه البخارى والترمذى فى الترغيب / ٣٧٠٥

ومعنى أن ينسأ فى أثره :

الزيادة فى العمر

ولأن صلة الرحم بهذه المثابة .. فإن عدوى وعدوك .. وهو الشيطان الرجيم .. يحاول (بمثل هذا الخطاب) التحريش والوقيعة .. حتى يحرمنا هذه النعمة العظمى :

نعمة التراحم والتواصل .. ليحرمنا فى نفس الوقت من نعمتى :

الرخاء وامتداد العمر

وفى طفولتنا الباكرة حدث مايلى :

دفن الميت . باذن من الشيخ .. رمز العائلة . وكان عليه أن يتريث حتى يأتى الإذن من الجهة الرسمية ..

ولما تعرض للتحقيق .. تقدم ابن عمه الفلاح الأصيل .. وتحمل مسئولية الموقف معلناً أنه هو الذى أمر بدفن الميت ..

وتعرض لمرارة العقوبة . فرارا بالعمامة البيضاء أن تأخذ الطريق مع المسجونين !!

وظل الموقف مثلا لصلة الرحم .. الصلة التى تفرض نفسها واقعا عمليا .. وليس درسا وعظيا .

أهمية الانتماء

إن العائلة " شجرة " ..

ولن تظل شجرة إلا بمجموع فروعها وجذورها :

ذلك (بأن الشجرة لا تحيا إلا بجذورها الممتدة فى جوف الأرض .

المختفية فى بطن الثرى .

فإذا انقطع المرء عن عادته . وابتعد عن أهله وصحابته .. لم ينفعه أنه لايزال يقوم ويقعد ويأكل ويشرب :

كما أن الشجرة لاتنفعها أغصانها ولافروعها . إذا هى بتت من أرضها . وقطعت من أصلها وفصلت عن جذورها) أ.هـ

رجـــال

لنـا فيهم أسـوة

وقد يغريك بردّ اللطمة لطمتين من يقول لك .

مادمت قد شبهت نفسك « بالشجرة » فإن الشجرة تظل واقفة .. وتموت « وهى .. واقفة » .. فكيف ترضى أن تمتهن هكذا ؟!

والرد الإسلامى هنا :

أن الامتهان هو : أن ترد العدوان فيستوى الماء والخشبة ..

وإذ تأخذنا العزة بالإثم أحيانا .. فمما يكفكف هذه النزعة رجال من سلفنا الصالح .. لا قوا من الناس ما لاقوا .. ولكنهم اصطبروا .. فما كان من طبعهم الفحش ولا التفحش .. اقتداء برسول الله ﷺ ومنهم : " ابن رشد " :

فقد تذكرت موقفا له آخر حياته :

فقد اصطحب ولده .. ثم سار به إلى المسجد .. ليؤدى صلاة العصر ..

وكانت المفاجأة :

لقد تجمع المصلون .. ثم منعوا الشيخ وولده من أداء صلاة العصر .. بل من دخول المسجد . بل وأعلنوا : لن يدخل المسجد كافر !!

ولم يملك الرجل إلا الدموع .. من أجل هذه الجموع .. التى نجح الواشون بها فى قطع ما أمر الله به أن يصلهم بالشيخ !!

وعاد الشيخ إلى بيته كاسف البال . قليل الرجاء

ودموع « ابن رشد » ذكرتنى بدموع شيخنا الغزالى

- وكنا فى مؤتمر ببغداد ،هذه الدموع التى تحدرت غزارا .. وكان يقول :

يزعمون أننى ضد السنة .. بينما خدى هذا - وأشار إلى وجهه - يشرفه أن يكون موطئا لحذاء رسول الله ﷺ .

فريقان.. يختصمون

جلس الصديقان .. يجمعهما الإحساس بالظلم المشترك ..

أما أحدهما : فقد يئس من الإصلاح .. متمثلا قول الشاعر :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى

وصوت إنسان فكدت أطير ..

لقد رأى فى مملكة الحيوان ما افتقده فى دنيا الإنسان وهو : الوفاء .. فكان مع القائل :

(لعل صحبة الحيوانات أسلم من صحبة كثير من الناس :

فهى : لاتكذب . ولا تغتاب . ولاتنم . ولاتخون أوطانها .

ولا تجحد أديانها . ولا تبخس إخوتها مزاياها . ولاتدعى لنفسها من المزايا ماليس لها :

وإذا عضّ الذئب . أولدغ الثعبان . أو افترس الأسد فإنما يفعل ذلك دفاعا عن نفسه . وحفاظا على حياته .

ثم إنه لايقتل إلا فردا واحدا . ولا يستعمل إلا نابه أو ظفره . أو قطرة من السم أعدها الله سلاحا له .

وبعض بنى آدم يتخذ أنيابا من الحديد والفولاذ . ومخالب من البارود والنار . وألوانا وأشكالا من السموم .

ويأتى عدوه من الأرض ومن السماء . ومن جوف البحر ومن فوق السحاب .

ويبيد بضربة واحدة عشرات الآلاف من إخوانه ولا يحارب إلا قليلا دفاعا عن النفس وحفاظا على الحياة بل يحارب غالبا لأنه لايستطيع إلا أن يحارب .

وأغرب من ذلك :

أنه جعل القتل بالجملة فنا من الفنون وعلما من العلوم .. ووضع له القواعد . وفتح له المدارس :

فأيهما - سألتكم بالله - أو حش ؟

وحوش الغاب .. أم بعض بنى الإنسان .. الذين يدعون أنهم من المتمدنين؟؟

وأيهما أسلم عاقبة وأقل خطرا : صحبة البشر .. أم صحبة البقر والجمال والحمير والبغال)؟

وعندئذ أخذته العزة بالإثم .. فهرعت إليه شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا :

إنها اللحظة المناسبة .. والتى يضرب فيها هؤلاء الشياطين ضربتهم .. بينما الحديد ساخن : بينما النفس هائجة مستعدة للانتقام . ومما يوسوسون به هنا :

العابثون يتقلبون على الساحة وحدهم .. بينما الأبرار متهمون ؟!

لا خير فى قوم يذل كريمهم

وفيهم يعظم نذلهم ويسود

وكيف يستسلم هذا الكريم وهو :

(فقير . ولكن ليس بهين ولا حقير ..

وهو صاحب قلم مسموع الصرير . مرهوب النقير .

والحمد لله على عداوة هؤلاء : ووقانا شر الرضا من هؤلاء .

ذلك بأنهم عدو .. بل كالعدو :

عدو : ينكر الفضل .. على قدر ولائه للرذيلة

ويبغض الحق .. على قدر صواب المحق .. لا على قدر خطئه .. لماذا ؟

لأنك تعلو .. وهو يهبط .

وترتفع .. حيث ينحدر) أ.هـ

إن ظلام الدنيا .. لايستطيع أن يطفئ شمعة واحدة !

بلاغة الصمت

نشر المرحوم أحمد حسن الزيات [1] فى الرسالة ما سمى « بالمقالة المحذوفة » .. وقال فيها الناقدون :

(إن القارئ وغير القارئ . يفهم من الرسالة المحذوفة . و « المقالة الصامتة » ما يستخلص به الفكرة . وينطبع فى ذهنه كل ما كان يجب أن يسطر عليها

جاء هذا المقال بعنوان " من وحى المقالة الصامتة : الصمت البليغ

يقول الكاتب :

(قد يأخذ حديث الصمت بمجامع القلوب كما يأخذ حديث القول بمجامع القلوب . حتى ليكاد الإنسان يراجع نفسه فيما علم من بلاغة الكلام ، وأنها مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته وأن ذلك إن جاز حيث يستباح القول ، فلا يجوز الاقتصار على ذلك حيث يمتنع الإنسان عن الكلام أو حيث يمنع من الإبانة والإفصاح ، والصمت فى بعض الأحايين أبلغ من الكلام ، ولايفيد القارئ أن يجد مقالاً نالت منه يد الحذف والبتر والاختصار ، وحكمت عليه دون روية بالوأد والقتل .أجل لايفيد القارئ المخلص الذى تعود أن ينال غذاءه الفكرى الكامل من كاتب بعينه . وأديب بذاته - ليكفيه أن يقرأ العنوان فحسب ، ليستخلص منه الفكرة . وأن ينظر إلى الصحيفة البيضاء . فتتحول إلى نور يضئ معالم النفس ، ويملأ شغاف القلب ، ثم ينطبع فى ذهنه كل ماكان - يجب أن يسطر عليها . ويسجل فيها ويراد بها . وقد لا تثير مقالة تنشر اهتمام جميع الناس ، فلا يقرأ الجميع لأديب ولكنهم يقرأون بلا استثناء . بل ويقرأ معهم كذلك غير القارئ :

---
(١) ١٩٥٢

المقالة المحذوفة .والرسالة المبتورة ، وقد يفهمون منها أكثر مما تفهم ويحملونها من المعانى والأغراض . والآراء والأهداف ، أكثر مما تحمل ، وهذا حق لاريب فيه . (١)

لأن هذا المقال الصامت يثير فى النفوس عوامل شتى . ويفرغ عليها سيلاً من التساؤلات فتنفعل بها النفس أكثر من قراءتها

وقد قلت فى واحد من كتبى :

(يقولون : خيرلنا أن نصمت وندرك .. من أن نندفع ونخطئ !

يقول " وحيد الدين خان " :

(تعلموا الصمت . لكى تستمتعوا بمناجاة الملائكة .

استخدموا قواكم .. لتستحقوا نصر الله .

القلب الخالى من حب العباد .. يخلو من حب خالقهم .

لا تحتقروا الناس .. فيحتقركم رب الكون .

إن الذى يبحث عن قرب الأرباب .. بعيد عن قرب الله .

لا تضيع من وقتك .. لورماك أحد الجاهلين بالحجر .

بل ارتفع بنفسك .. حتى لا يصل إليك الحجر .

الذين يشكون من الآخرين .. يعلنون فقط أنهم قد تخلفوا عن الآخرين فى سير الحياة .

إننا لانتعلم فقط .. عندما نتكلم . ولكن عندما نصمت .

وقد قيل خيرلك أن تصمت فيشك البعض فى فهمك لما يقال .من أن تتكلم .. فيتأكد الكل من عدم فهمك لما يطرح

(١) الرسالة س ٢٠ ع ٩٧٨ ص ٣٦٥ - ٣٦٧ مقال للأستاذ عبد الحفيظ أبو السعود

وقد قال أبو حاتم إن الصمت دواء لعلة . ثم ما أجمل الكلمة تجئ بعده .. صادعة بالحق . رادعة لنوازع الإنسان ..[١]

وهذا ما فعله الزيات حيث نشر المقال الصامت فى العدد التالى كاملاً بنفس العنوان فكان وقعها أشد وفائدتها اعم

ألا إن خير عقاب لمن أساءوا إلينا هو : الصمت .. ثم .. المضى قد ما لإنجاز أهدافنا .. دون الاعتماد عليهم .. بمعنى : ألا نبذل طاقاتنا فى الرد عليهم :

وإنما رجل الدنيا وواحدها   من لايعول فى الدنيا على أحد

قد يسكت المرء - مضطرا - فلا يقول كلمة الحق ..

ولكنه أبدا لاينطق بكلمة باطلة !

وبخاصة إذا كان خصمك من دمك ولحمك .. إبقاء على الرحم الجامعة المانعة ..

---

(١) دعوة الحق بين المجادلين فيها والمجادلين عنها ص ١٠٠ - ١٠٢ ط مكتبة الإيمان بالمنصورة .بدون

وأسـفى :

هكذا كان العلماء .. زمان

وهكذا صاروا .. ؟!

هارون الرشيد :

الذى قال للسحابة لما رآها :

أمطرى حيث شئت . فسيأتينى خراجك . والذى كانت كلمته تمضى فى الأرض : حـتـى تصل إلى أبواب الصين . وشـواطئ الأطلنطى .. لايردها شئ .. والذى ملك مالم يملكه من قبله ملك قط .

قـام ليلة يصب الماء على يد العـالم « أبى معـاوية الضـرير . بعـد أن عشاه معه . وعلى مائدتـه :

فقال للعالم الضرير :

أتدرى من يصب الماء على يديك ؟

قال : لا ..

فقال هارون : أنا .

زمان .. كان لحم العلماء مرا .. فصار اليوم أشهى من لسان العصفور !

وكانت ساحتهم حمى .. لايجرؤ أحد على الاقتراب منه ..

واليـوم .. صارت هذه الساحـة كلأ مبـاحـا !! فكان المانع هو المقتضى .. أى : صارت « المشيخة » هى سبب الهجوم وكان الظن أن تكون ما نعا منه !!

وليتنا نبكى أو على الأقل نتباكى على العمامة البيضاء يخصها بعضنا بالبذاء

حــوار

كان الأمير متعجلا فى قراراته .. مما حمل واحدا من الشعراء على نصحه قائلا :

إذا كنت ذا رأى فكن ذا تدبر　　　فإن فساد الرأى أن تتعجلا

وما كان جواب الأمير إلا أن رد عليه نصيحتة

قائلا :

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة　　　فإن فساد الرأى أن تترددا

مخلص واحد يكفى :

إنه لا المال يحميك .. ولا الأسوار تحميك . وإنما يحميك المخلصون .

كما وإنه ليس لأحد أن يحكم على أحد

بالإخلاص

أو الرياء

وهذا قدرك

إن الناس يتوسلون إليك بغيرك :

فيأخذون منك .. ويشكرون غيرك :

يأكلون خيرك .. ويشكرون غيرك :

لكننى أتوسل إليك .. بك : يارب

ليكون شكرى فى النهاية لك

شفيعى إليك الله : لارب غيره　　∴　　وليس إلى رد الشفيع سبيل

العـود إلى البيت المهجـور

ولكن صاحبه - مع أنه مثله محمَّل بهموم ثقال - يعلنها مدوية :

بل نعود إلى البيت المهجور :

إلى القرآن الكريم .. فهو شفاء ورحمة :

(وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين)

ثم قال له :

عد أنت إلى سورة " الحج "

وأعود أنا إلى سورة " يوسف "

ففى سورة الحج نقرأ قوله تعالى :

(من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخره فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ)الحج / ١٥

والمعنى :

من أصابه ضر .. فيئس .. وظن أن الله المقتدر لن ينصره ..

فليفعل ما يلى :

ليأخذ حبلا يصله بالسماء ..

ثم ليبذل جهده فى دفع القضاء والقدر عنه .. ثم ليتأمل :

هل ذهبت محاولته بغيظه ؟ :

(ليفعل ما يفعله من بلغ به الغيظ : بأن يربط حبلا بسقف بيته .

ثم ليربطه فى عنقه . ثم ليقطع ما بين رجليه وبين الأرض ليختنق .

وهذا كما يقال لمن أدبر عنه أمر .. فجزع :

اضرب برأسك الجدار)

(والحاصل : أنه إن لم يصبر على المصائب لله طوعا .. صبر عليها كرها . مع ما ناله من أسباب الشقاء

وسوف يكون ذلك اليأس الذى عناه الشاعر بقوله :

كنا طح صخرة يوما ليوهنها   فلم يضرها .. وأوهى قرنه الوعل

ثم كان كالبعير :

البعير : الذى ذهب يطلب قرنين .. فعاد بلا أذنين !

أى أنه ما عاد بخفى حنين .. ولكنه عاد بلا خفين ..

فلم يبق إلا الصبر :

(ألا إنه لا سبيل إلى احتمال البلاء إلا بالرجاء فى نصر الله .

ولا سبيل إلى الفرج إلا بالتوجه إلى الله .

ولا سبيل إلى الا ستعلاء على الضر .. والكفاح للخلاص . إلا بالاستعانة بالله .

وكل حركة يائسة لا ثمرة لها .. ولا نتيجة إلا زيادة الكرب .

ومضاعفة الشعور به . والعجز عن دفعه بغير عون الله .

فليستبق المكروب تلك النافذة المضيئة . التى تنسم عليه من روح الله)أ.هـ

وفى قصة يوسف عليه السلام .. يتجلى ذلك المعنى : فلنأخذ سبيلنا إلى سورة يوسف عليه السلام ففيها برد السلوى

يقول الله عز وجل :

(وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا) الفرقان/ ٧١

كان أبو جهل . وسفيان بن حرب والأخنس بن شريق .. كانوا يستمعون إلى القرآن فى سجوة الليل :

كل واحد منهم فى مكان يعلم به صاحبه .

فإذا أصبحوا . وتلاقوا فى الطريق : تلاوموا .. ثم جددوا العهد على أن لا يعودوا إلى الاستماع إلى القرآن مرة أخرى .

بيد أنهم كانوا ينقضون ذلك العهد .. فيعودون إلى الاستماع .

ثم انتهى الأمر إلى التصميم على أن لا يعودوا ..

وهذا هو الذى حدث بالفعل ..

ولكن .. لماذا كانوا يستمعون ؟

لقد رأوا (من حسن نظمه وتذوقوا لذيذ معانيه . ورائق أسلوبه . ولطيف عجائبه وبديع غرائبه)

إلا أن العزة أخذتهم بالإثم فغالبوا أنفسهم حتى غلبوها كما يقيد مادة "افتعل" فى قوله تعالى : اتخذوا ..

بمعنى أنهم احتاروا بين سحر القرآن .. ومصالحهم الشخصية فتنكروا لفطرهم .. وآثروا مصالحهم على ما تتذوقه قلوبهم .. فكانت هذه الشكوى من الرسول ﷺ ومفادها : إن قومه هجروا البيت : هجروا القرآن ..

ونحن مطالبون أن نعود إلى هذا البيت .. لنقى أنفسنا من تقلبات الجو .. ومفاجآت الحياة .. وإننا لواجدون فى رحابه أمان قلوبنا . وحلول مشكلاتنا -

وبدل أن تمزقنا الانفعالات بددا .. فإننا في رحاب القرآن .. وفي سورة يوسف بالذات - سوف نرى ظلم الأقوياء للضعفاء .. وكيف كان الحسد هو ذلك العدو المقيم

المقيم .. حتى في منازل الأنبياء ... ليكون ذلك درساً مفيداً ... يفرض علينا أن نعيه ... ليكون في الوعي به وقاية لنا من الإحباط لو وقع علينا ظلم لم نستطع تلافيه .. وأننا لم نكن أول المظلومين .. ولن نكن آخرهم .

أما بعــد

فالبكاء على الأطلال لا يفيد ..

وأفضل منه أن نتسلح بالأمل ..

ليس هناك في الواقع شئ مخيف

وإنما هو " الضباب " يلف ماحولك .. ثم خيال ينطلق في هذه العتمه . فإذا الأشباح تطاردك ..

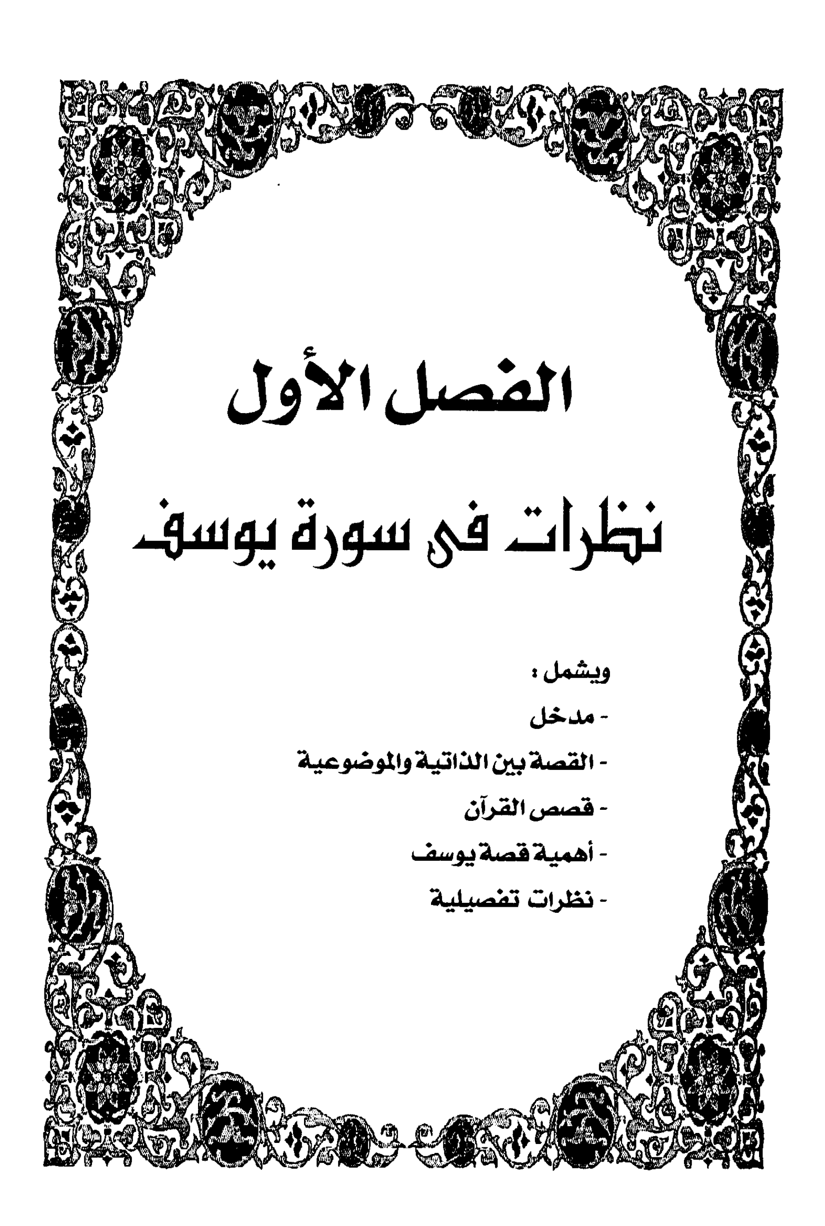
ونحن مطالبون أن نتخذ من الأمل .. شمعة تبدد هذا الظلام فإذا كل شئ كما هو .. كما كنا نراه في نقطة الضوء ..

إن البكاء لن يرد غائبا .. ولن تشترى به صاحبا !

أمس : الذى مر على قربه ∴ يعجز أهل الأرض عن رده

فدع البكاء على الوفاء .. وواجه المستقبل بالرجاء .. بالأمل في نصر قريب .. وذلك هو درس الدروس في قصة يوسف عليه السلام :

ذلك المملوك .. الذى صار ملكا !



الفصل الأول

نظرات في سورة يوسف

ويشمل:

- مدخل
- القصة بين الذاتية والموضوعية
- قصص القرآن
- أهمية قصة يوسف
- نظرات تفصيلية

مدخل

إن سورة يوسف هى الواحة الظليلة البليلة يأوى إليها الحران .. فلعله أن يجد فى رحابها برد السلوى .

لقد أحسست بالظلم البين .. فعدت إلى القرآن الكريم .. والذى اتخذه الناس مهجورا ..

عدت إلى البيت الكبير .. أجدد بعبره الأمل فى فرج قريب

ولقد وجدت فى آياته من هذا الكرب فرجا .. ومن ذلك الأسى عزاء وسلوى ..

وكانت قصة يوسف عليه السلام محط الرحال .. ومستراد الآمال .. لى ولكل أخ .. لاقى من الظلم مثلما لاقى يوسف وأخوه .. وكيف انتهى الموقف لحسابهما فى النهاية تبصرة وذكرى .. تكشف النقاب للمحبين السائلين .. ليدركوا جانبا من حياة الكاتبين .. حتى إذا رأوا منهم ماينكرون .. التمسوا لهم العذر .. فيما يفعلون .. لأنهم - أحيانا - يكتبون .. وعلى « صفيح ساخن » ولكن الأعزاء لايشعرون .

ولعلى بهذه السطور أقدم الاعتذار بأن الصفحات التالية لن تكن بحثا علميا .. لأن البحث العلمى يحتاج إلى روية ونظام ..

وأنى للمظلوم أن يطيق ذلك .. بينما الجفاء يلاحقه هو بالذات .. وفى نفس الوقت يتحرك المنحرفون على الساحة .. بلامنازع !!

وانما هى : فيض الخاطر بين الآيات الكريمة .. والمصائب يجمعن المصابين.

فإذا أنت .. بعد كل وقفة تأمل .. تتخلص من شحنة الشجن المحتشد فى كيانك :

ويرحم الله العقاد القائل إن مصر بلد العجائب :

(إذا أرادوا نشر الإسلام .. طبعوا كتبى . وإذا أرادوا مهاجمة الشيوعية .. طبعوا كتبى ؟!

وإذا أرادوا الترشيح لجائزة ... رشحوا طه حسين ؟!!

وهذا مصير رجل : كأن المعانى بين يديه : يختار منها ما يشاء : فإذا هى طوع بنانه !

فكيف بمن دونه ؟!!

إنها الشكوى : ترويحا :

شكوت .. وما الشكوى لمثلى عادة ∴ ولكن .. تفيض النفس عند متلائها .

ولم أر أظلما مثل ظلم ينالنا ∴ يساء إلينا .. ثم نؤمر بالشكر !!

الطابور الخامس

وليس أنكى على الحر من أن يبتلى بهؤلاء الطغاة - ثم بمن يزينون لهم أعمالهم من المنافقين :

إذا كان بعض الناس سيفا لدولة ∴ ففى الناس بوقات لها وطبول

طريق المجد

ولكن الطريق إلى السيادة فى القبيلة أو الحى . ليست من هنا :

فقد ينازعك السؤدد رجل .. فتحاول أن تنقصه من أطرافه .. لتبقى على المنصة وحدك .. ولكن : ياسعد : ماهكذا تورد الإبل : ؟!

فأسباب السؤدد سبعة :

العقل . والحلم . والصيانة . والصدق . والعلم . والسخاء . وأداء الأمانة .

قال رجل للأحنف بن قيس - وكان سيد بنى حنيفة :

بم سودك قومك ؟ وما أنت أشرفهم بيتا . ولا بأصبحهم وجها . ولا بأحسنهم خلقا ؟

قال الأحنف :

بخلاف ما فيك ياابن أخى ! :

قال الرجل : وما ذاك ؟!

قال الأحنف :

بتركى من أمرك ما لا يعنينى . كما عناك من أمرى مالا يعنيك . !

وفى بيان سبل السيادة قال الخليفة « عبد الملك بن مروان » لبنيه يوما :

كلكم يترشح لهذا الأمر ..

ولكن .. لن يصلح له إلا من :

كان له سيف مسلول .

ومال مبذول . ولسان معسول .

وعدل تطمئن إليه القلوب .

وأمن تستقر به فى مضاجعها الجنوب .

أما بعد : فقد تعددت ذنوب إخوة يوسف :

قطع الرحم . وعقوق الوالدين . وظلم الصغير .. والكذب على أبيهم

ومع ذلك .. فقد عفا الله تعالى عن ذلك كله .. حتى لاييأس أحد من رحمة الله تعالى !

ونلخص منهجنا فى هذه اللمحات ..

فقد كانت تسجل فور تلقيها .. فكانت صادقة وبلا تزويق :

ثم جدد الله تعالى بها السلوان .. على ما روى :

كان أحدهم يقول :

كلما فترت فى العبادة .. نظرت فى أحوال " محمد بن واسع .. ومضيت على ذلك أسبوعا .

ورحم الله ابن واسع :

فقد كان ناجحا .. لا يزل .. ورائدا لايضل .. وكان مؤتمنا .. لايخون .

ومن سيرته :

أنه كان مع ورعه مجاهدا ..

سأل عنه قائدا الجيش فى معركة فاصلة : أين محمد بن واسع ؟

فلماقيل له : ها هو ذا يشير باصبعه إلى السماء . قال القائد :

إنه أقوى عندى من مائة مدفع ضاربة !!

واحة الأمان

لقد كانت صحبة « سورة يوسف » صحبة مباركة وجد فيها المظلوم مايخفف من إحساسه بالعدوان :

قال خالد بن معدان :

(سورة يوسف ومريم : مما يتفكه به أهل الجنة فى الجنة)

وقال عطاء :

(لايسمع سورة يوسف محزون إلااستراح إليها)

وإذا كـانت السـورة مـواسـاة له ﷺ .. جـزاء مـالا قـاه بخـاصـة من أقـربـائه المشـركين .. فـستظل كـذلك لكل من عـاش نفس الظروف .. فـجـاءته الطعنة من حيث يرجو الأمان .

كلمة لابد منها

فى بعض الفقرات قد لا أكتفى بالسطور أنقلها عن كتاب تدعيما لما أريده .. وإنما أنقل كلمة برمتها ولوكانت عشرات الصفحات ..

وكان ذلك لسببين :

أننى أرى المقال زاخـرا بالمعانى فأعجز عن تلخيصه .. فكلما تابعت القراءة لأحـد القـدر المطلوب .. أحـسـست بأننى فى « خـرفـة » من البـيـان : كـأننى فى بستان يروعك كل ما فيه من زهور وأفنان .. فأجدنى مضطرا إلى نقل المقال كله - منسوبا إلى كاتبه طبعا .

وشجـعنى على ذلك - وهذا هو السـبب الثـانى : مـا أعلمـه يقـينا من زهد طلاب اليوم فى الرجوع إلى كتب التـراث .. مشغولين بالثقافة الجاهزة السريعة والتى تحول بينهم وبين ذخـائر ماضيهم فكان لابد من رجعهم إلى هذا الماضى ليغذوا أنفسهم بزاد من العلم ومن التقوى هم فى أمس الحاجة إليه ..

لقـد قـرأت « وحى القلم» للرافـعى .. فى الأربعـينيـات .. ولكننى لم استوعبه عندئذ ..

بل لم أسمع عن كتاب « تنزيه القرآن عن المطاعن » للقاضى عبد الجبار إلا بعد أن تخطيت السبعين .. فماذا عن طلاب اليوم ؟!

لقد حـاولت رجـعهم إلى الماضى ليتـزودوا منه .. ولقـد لا حظت فى جل الرسائل الجامعية اليوم .. كيف كانت صفحة « المراجع » معتمدة على شباب

الدكاترة من الأحياء .. مجاملة لهم على حساب هذا التراث الذى نحاول اليوم إحياءه .. ليحيى الله به أبحاثا .. وباحثين كثيرا.

وقد تضرب كفا بكف حين يبالغ باحث فى مدحك بما ليس فيك .. ثم تكتشف فى النهاية أنه لم يكن متوقعا أن تكون فى « لجنة مناقشة رسالته » ومن ثم لم يذكر كتابا لك فى مراجعه .. فكان الإطراء تغطية لهذا القصور؟!!

القصة بين الذاتية والموضوعية

لحضرة الأستاذ حمزه محمد الشيخ
ليسانسيه فى الأدب الانجليزى
من جامعة فؤاد الأول (١)

يهدف القصص، مهما تشعب به الابتكار فى ميدان الفكرة، إلى تصوير أحداث أو وصف أشياء، ويمتاز النثر الذى يصور الأحداث بامتلائه بالحركة والسرعة، وأما النثر الذى يتناول الأشياء بالوصف، فيمعن صاحبه فى مراقبتها عن كثب، حتى ينقل إلى القارئ حقيقتها الأصيلة، فى غير تفريط أو إفراط، ويتسم هذا النوع الأخير بسلبية الطابع وفتور الحركة. وسواء اتجه القصص فى فنه الاتجاه الأول أو كليهما، فانه إنما يرمى إلى صوغ مايسمعه ومايراه، وما يعتلج فى قلبه من مشاعر، فى رموز تيسر له نقل التأثير الذى خلفته المرئيات فى نفسه إلى القارئ.. وتلك الرموز، وهى الألفاظ التى تعين القصص على تحقيق الوضوح العينى الذى ينشده، قد يحسن القصص استخدامها، فيستطيع تصوير الأحداث فى سرعتها، ووصف الأشياء فى حقائقها، تصويرا تسوده الدقة، ووصفا لاتنقصه الأمانة، كما أنه قد يسيئ استخدام تلك الألفاظ، فيتهافت عليها، ويسرف فيها بقصد الزينة، ومن ثم يجد زمام القصة قد أفلت من يده فأصبحت الأحداث تمضى فى بطء سقيم، وتراخ ممل، والأشياء شوهت معالمها، فأضحت أدنى إلى الخيال منها إلى الواقع.

وهذه النزعة نحو التنميق elaboration، والتوشية decoration فى الوصف القصصى، إنما تعزى إلى نقص كامن فى النفس البشرية، يدفعها دفعا نحو مزج الذات بكل أمر موضوعى، ومن هنا كان تفاوت القصصيين فى طغيان شخصياتهم أو اعتدالها وتوازنها فى كتاباتهم.

---

(١) عن مجلة "الأزهر"

ووجه الشبه كبير بين فنون كالموسيقى ، والرسم ، والتصوير ، وبين القصة الأدبية ، فللقصصى مدى يصل إليه ، وأفق يجول فيه ، بيد أن ذلك يختلف - إلى حد ما - عن مدى آلة التصوير ، إذ أن القصصى يختار من نماذجه ، وينتقى من شخصياته ، ما يشاء مما يقع تحت ناظريه من بساط الحياة الفسيح .. أما آلة التصوير ، فلا يملك صاحبها مثل هذه الحرية الإيجابية فى الاختيار ، إذ أن جهده الفنى ينتهى باختياره للنظر الذى يروقه ، وتثبيته لآلة التصوير ، التى تأخذ فى نقل تفاصيل المنظر ، وإن كانت لا ترتاح إليها عين المصور ؛ ومن ثم كان القصصى أكثر حرية من المصور فى الاختيار ، وأقدر على تصفية نماذجه ، وتهذيب شخصياته وإننا لنجد القصصيين يتراوحون حول فن التصوير قرباً وبعداً ، فكلما قرب القصصى من المصور كان موضوعى النزعة ، وكلما بعد عن المصور فى فنه كان ذاتى النزعة .

وفى الحق إنه ليندر أن نجد قصصياً يعنى بفكرته theme ، ويهتم بها أكثر من عنايته بمشاعره وآرائه الخاصة . ولكنا لو علمنا أن القصة ، فى جوهرها ، ليست تعبيراً عن نفس صاحبها ، أو ابرازاً لميولها الذاتية ، وإنما هى تخاطب جمهوراً من القراء .. لو علمنا ذلك ، للمسنا حاجة القصة إلى دقة الوصف والتصوير ، وإلى خلوها من الشرح والتعليق .

ويتوقف جزء كبير من نجاح القصصى على انتقاء موضوعه ، وهذا هو الجانب الإيجابى للاختيار ، وكذلك من الأهمية بمكان ترك الموضوعات التى لا تتلاءم مع القصة ، وهذا هو الجانب السلبى للاختيار ، الذى لو عنى به كثير من القصصيين المعاصرين ، لكانوا اليوم فى الصف الأول من حماة القصة ، والقائمين عليها ، إذ قلما نرى اليوم قاصاً ، إلا وينفق من وقته وجهده ، الكثير على السطحيات externals ، بينما يهمل إهمالا مشيناً الجوهريات essentials ، فيصف شخصياته وصفاً سطحياً ، نعرف منه حياتهم معرفة يسيرة ، فأما أنفسهم وضمائرهم ، وما يضطرب فى الأولى من خلجات وآمال ، وما يكمن فى

الثانية من نجوى وأسرار ، تنعكس على أسارير صاحبها ، فيخفيها فى ابتسامة مغتصبة ، أوفى ضحكة مريرة - فأما كل ذلك فإننا لا نجد إليه سبيلا ، أو نعثر منه على النذر اليسير ، الذى لايشفى غلة ، ولا يسد فراغاً .

القصة بين الذاتية والموضوعية

وليس حسن الاختيار للموضوع وحده كافيا لكى يستطيع القاص أن ينتج أثراً أدبياً قيما ، وإنما يكون ذلك نتيجة للتوافق بين الفكرة ومزاج الكاتب ، مما يمهد له طريق الابداع فى نتاجه الفكرى ، مهما بعدت خاتمته ؛ أما تجارب القاص ، فإنها مهما كانت واسعة المدى أو فسيحة المجال ، فلن يصل إلى أعماق شخصيته ، أو يشحذ قوته الخالقة ، غير القليل من تلك التجارب ، فلن يصل إلى أعماق شخصيته ، أو يشحذ قوته الخالقة ، غير القليل من تلك التجارب ، التى يجد فيها خياله مسرحه الخصيب وميدانه الرحيب ، وهذه المسارب الضيقة ، من تجارب ، فلا يهمه من أمرها شئ ، إلا ككائن حى تعرض له شتى ألوانها .. وما ذلك إلا لأن القاص لا يستقبل تجاربه استقبالا سلبيا ، وإنما يعمل فيها عقله اللماح وعينه الفاحصة .. ومن ثم يمكن القول بأن شخصيات القصة إنما تنشأ عن نواة صغيرة تستقر فى تربة خصبة يرويها خيال القاص ويغذيها العقل وتجارب الصبا .

وقد عانى النثر القصصى فى انجلترا خلال القرن الثامن عشر الشئ الكثير من ذاتية الكتاب الطاغية ، التى ما برحت تبرز واضحة فى تعليق القصصى ، أو نظرة جانبية فرعية side-glance أو تأملات فلسفية تعترض سير القصة ، كما وجدنا لورنس ستيرن (١٧١٣ - ٦٨) sterne فى قصته (Tristram Shandy) ينتهز كل أمر جل أوهان لكى يحيد عن محور القصة ، ويقرب منه فى هذا المضمار صمويل بتلر Butler فى قصته (The Way of all Tlesh) . ومثل هذا الاتجاه فى كتابة القصة ، وإن كان يزيدها امتاعا ، نظرا لطرافة موضوعاتها

وتنوعها، بيد أنه يغض من قيمتها الفنية، إذ أنها تفقد أحداثها وجدتها، ويخلو أسلوبها من القصد فى التعبير، والاستواء فى العبارة.

وقد تطغى الذاتية على نفسية الأديب، فيحاول أن يستجيب لها فى شتى صورها، وربما بالغ الأديب فى ذلك، فأفرط فى استخدام المحسنات البديعية من تورية pun، وطباق antithesis، وجناس alliteration حتى تغدو اللوحة الفنية، التى يجهد نفسه فى رسمها، شوهاء منفرة لما خالطها من صنعة وكلفة mannerism، وهذه المحسنات البديعية كالنار، فهى خادم صالح وسيد طالح، فإن أحسن الفنان استخدامها - كما فعل وليم شكسبير، عاهل الأدب الانجليزى فى مقطوعاته الشعرية القصيرة sonnets، التى زاوج فيها بين المعنى والمبنى، وجانس بين ظلال الصورة وإطارها - إن فعل الأديب ذلك أصبحت تلك المحسنات عينها إحدى مقومات البناء الفنى للنتاج الأدبى التى لاغناء عنها للأديب لكى يعبر بها عن حالات شخصياته النفسية واتجاهاتهم الفكرية.

أما إن أساء الأديب استخدامها، شأن الكثيرين من الأدباء الناشئين، فإنه سرعان ما يجد نفسه كالعجوز التى تحاول يائسة ستر جمالها الذاوى بشتى أصناف العطور، وسائر ألوان المساحيق والأصباغ لكى تثير فى النفوس الرغبة فيها والعجب بها ... ولن يلتقى الأديب هو الآخر من قرائه رغبة فى نتاجه أو اعجابا به، فقد اصطلح الناس اليوم على بغض الزيف، والمبالغة، والصنعة الجارفة التى تجافى الذوق الأدبى السليم، والتى لا نعثر عليها اليوم إلا فى تضاعيف فن الدعاية والإعلان. أما فى الأدب الرفيع، فإن المذهب الذى لن يخبو نوره، والذى أصدر عنه كبار الفنانين، مهما اختلف مصدر ثقافتهم أو تباين نوعها، هو أن قوام الفن ستر بريقه المصنوع، واخفاء وهجه الخاطف أو كما يقال فى اللغة اللاتينية ars est celare artem.

ولعل أسوء ما تلقاه القصة الأدبية على يدى الفنان غير المطبوع، هو

استلهامه لذاتيته الطاغية - عن قصد أو غير قصد - حتى يجد نفسه يعلو ويهبط ، ويسير يمينا وشمالا ، حسبما يتجه به تياره الفكرى ، لا كما يوجهه موضوع القصة ، والمحور الذى تدور حوله أحداثها ومرئياتها .. ونحن بعد ذلك كله قد نستطيع أن نغفر للقصصى أن يتراوح بين دفتى القصة ، قربا من الموضوع ، وبعدا عنه ، لو أن القصة لم تكن شيئا آخر غير الموضوع ... أما والقصة صورة فنية للحياة حولنا ، فلذلك وجب أن تتوافر فيها عناصر أخرى إلى جانب المشابهة likenss كالبراعة فى رسم القالب أو الاطار frame ، والأناقة فى صوغ التصميم design ، والدقة فى إخراج الانشاء الفنى compostion ...

وهذه العناصر جميعا لو توفرت للقصصى ، بعد نجاحه فى اختيار موضوعه ، وحرصه على توازن عنصرى الذاتية والموضوعية فى قصته ، لاستطاع أن يقدم للقارئ الانشائى creative reader نسيجا متجانسا مؤتلفا ، ويعرض أمام ناظريه ، موكبا حافلا متصلا ، ما يكاد يفرغ من استعراض صفحاته ، حتى يتمثله فى مخيلته صورا مفعمة بالحياة والانسجام . أ . هـ

قصص القرآن (١)

(امتن الله على رسـوله ﷺ بقوله « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين » فعلمنا من قوله احسن القصص ان سياق القصص القرآنية لم يكن مساق الاخماض وتجديد النشاط ، وما يحصل من استغراب مبلغ تلك الحوادث من خير أو شر لان غرض القرآن أسمى وأعلى من هذا ، ولو كان من هذا لساوى كثيرا من قصص الاخبار الحسنة الصادقة فما كان جديرا بالتفضيل على كل جنس القصص .

والقصة الخبر عن حادثة غائبة عن المخبر بها فليس ما فى القرآن من ذكر الاحوال الحاضرة فى زمن نزوله قصصا مثل ذكر وقائع المسلمين مع عدوهم وجمع القصة قصص بكسر القاف ، واما القصص بفتح القاف فاسم للخبر المقصوص وهو مصدر سمى به المفعول يقال قص على فلان اذا اخبره بخبر .

وابصر اهل العلم ان ليس الغرض من سوقها قاصرا على حصول العبرة والموعظة مما تضمنته القصة من عواقب الخير او الشر ، ولا على حصول التنويه باصحاب تلك القصص فى عناية الله بهم او التشويه باصحابها فيما لقوة من غضب الله عليهم كما تقف عنده افهام القانعين بظواهر الاشياء واوائلها ، بل الغرض من ذلك اسمى واجل . ان فى تلك القصص لعبرأ جمة وفوائد للامة ولذلك نرى القرآن يأخذ من كل قصة اشرف مواضيعها ويعرض عما عداه ليكون تعرضه للقصص منزها عن قصد التفكه بها ، من أجل ذلك كله لم تأت القصص فى القرآن متتالية متعاقبة فى سورة أو سور كما يكون كتاب تاريخ بل كانت مفرقة موزعة على مقامات تناسبها لان معظم الفوائد الحاصلة منها لها علاقة بذلك التوزيع هو ذكر وموعظة لاهل الدين فهو بالخطابة أشبه .
وللقرآن اسلوب خاص هو الاسلوب المعبر عنه بالتذكير وبالذكر فى آيات يأتى تفسيرها فكان اسلوبه قاضيا للموطرين وكان اجل من اسلوب سوق القصص

---
(١) للشيخ محمد الطاهر بن عاشور

لمجرد معرفتها لان سوقها فى مناسبتها يكسبها صفتين صفة البرهان وصفة التبيان . وقد بثت القصص باسلوب بديع اذ ساقها فى مظان الاتعاظ بها مع المحافظة عل الغرض الاصلى الذى جاء به القرآن من تشريع وتقريع فتوفرت من ذلك عشر فوائد :

الفائدة الأولى ان قصارى علم اهل الكتاب فى ذلك العصر كان معرفة اخبار الانبياء وأيامهم وأخبار من جاورهم من الامم . فكان اشتمال القرآن على تلك القصص التى لايعلمها الا الراسخون فى العلم من أهل الكتاب تحديا عظيما لاهل الكتاب . وتعجيزا لهم لقطع حجتهم على المسلمين قل تعالى « تلك من انباء الغيب نوحيها إليك ماكنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » فكان حملة القرآن بسبب ذلك احقاء بان يوصفوا بالعلم الذى وصفت به احبار اليهود وبذلك انقطعت صفة الامية عن المسلمين فى نظر اليهود ، وانقطعت ألسنة المعرضين بهم بأنهم امة جاهلية . وهذه فائدة لم يبينها من سلفنا من المفسرين .

الفائدة الثانية إن من أدب الشريعة معرفة تاريخ سلفها فى التشريع من الانبياء بشرائعهم فكان اشتمال القرآن على قصص الانبياء واقوامهم تكليلا لهامة التشريع الاسلامى بذكر تاريخ المشرعين قال تعالى (وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير الاية) وهذه فائدة فتوحات الله لنا ايضا . وقد رأيت من اسلوب القرآن فى هذا الغرض انه لا يتعرض الا الى حال اصحاب القصة فى رسوخ الايمان وضعفه وفيما لذلك من اثر عناية الاهية او خذلان وفى هذا الأسلوب لا تجد فى ذكر أصحاب هذه القصص بيان أنسابهم أو بلدانهم اذ العبرة فيما وراء ذلك من ضلالهم زو ايمانهم ، وكذلك مواضع العبرة فى قدرة الله تعالى فى قصة اهل الكهف " ام حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا - إلى قوله - نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى الآيات " فلم يذكر انهم من اى قوم وفى اى عصر وكذلك قوله فيها « فابعثوا احدكم بورقكم هذه إلى المدينة » فلم يذكر اية مدينة هى لان موضع العبرة هو

انبعاثهم ووصول رسولهم الى مدينة إلى قوله « وكذلك اعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق"

الفائدة الثالثة - ما فيها من فائدة التاريخ من معرفة ترتب المسببات على اسبابها فى الخير والشر والتعمير والتخريب لتقتدى الامة وتحذر قال تعالى (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا) وما فيها من فائدة ظهور المثل العليا فى الفضيلة وزكاء النفوس أو ضد ذلك .

الفائدة الرابعة مافيها من موعظة المشركين وتهديدهم بما لحق الأمم التى عاندت رسلها ، وعصت اوامر ربها حتى يرعووا عن غلوائهم ، ويتعظوا بمصارع نظرائهم وآبائهم ، وكيف يورث الارض اوليـاءه وعبـاده الصالحين قال تعالى (فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) وقال (لقد كان فى قصصهم عبرة لاولى الالباب) وقال (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادى الصالحون) وهذافى القصص التى يذكر فيها مالقيه المكذبون للرسل كقصص قوم نوح وعاد وثمود وأهل الرس واصحاب الايكة .

الفائدة الخامسة ان فى حكاية القصص سلوك اسلوب التوصيف والمحاورة وذلك اسلوب لم يكن معهودا للعرب فكان مجيئه فى القرآن ابتكار اسلوب جديد فى البلاغة العربية شديد التأثير فى نفوس أهل اللسان ، وهو من اعجاز القرآن إذ لا ينكرون إنه اسلوب بديع ولا يستطيعون الاتيان بمثله إذ لم يعتادوه . انظر إلى حكاية احوال الناس فى الجنة والنار والاعراف فى سورة الاعراف وقد تقدم التنبيه عليه فى المقدمة الخامسة من مكملات عجز العرب عن المعارضة .

الفائدة السادسة إن العرب بتوغل الامية والجهل فيهم اصبحوا لا تهتدى عقولهم الا بما يقع تحت الحس ، أو ماينتزع منه فقدوا فائدة الاتعاظ باحوال الأمم الماضية وجهلوا معظمها وجهلوا احوال البعض الذى علموا اسماءه فاعقبهم ذلك اعراضا عن السعى لاصلاح احوالهم بتطهيرها مما كان سبب هلاك من قبلهم . فكان فى ذكر قصص الأمم توسيعا لعلم المسلمين باحاطتها بوجود الامم ومعظم أحوالهم .

ونعلم من قوله " قال قائل منهم لاتقتلوا يوسف وألقوه فى غيابات الجب يلتقطه بعض السيارة " إنهم كانوا يعلمون وجود الاحباب فى الطرقات وهى آبار قصيرة يقصدها المسافرون للاستقاء منها : وقول يعقوب (واخاف أن يأكله الذئب) إن بادية الشام إلى مصر كانت توجد بها الذئاب المفترسة وقد انقطعت منها اليوم .

وفيما ذكرنا ما يدفع عنكم هاجسا رأيته خطر لكثير من أهل اليقين والمشككين وهو أن يقال لماذا لم يقع الاستغناء بالقصة الواحدة فى حصول المقصود منها . وما فائدة تكرار القصة فى سور كثيرة . وربما تطرق هذا الهاجس ببعضهم إلى مناهج الالحاد فى القرءان . والذى يكشف لسائر المتحيرين حيرتهم على اختلاف نواياهم وتفاوت مداركهم هو أن القرآن كما قلنا هو بالخطب والمواعظ أشبه منه بالتاليف . وفوائد القصص تجتلبها المناسبات فتذكر القصة كالبرهان على الغرض المسوقة هى معه فلا يعد ذكرها مع غرضها تكريرا لها لان سبق ذكرها إنما كان فى مناسبات آخرى . كما لا يقال للخطيب إذا خطب فى قوم ثم دعته المناسبات إلى أن وقف خطيبا فى مثل مقامه الاول فخطبته السابقة ، إنه أعاد الخطبة ، بل أنه أعاد معانيها ولم يعد ألفاظ خطبته ، وهذا مقام تظهر فيه مقدرة الخطباء فيحصل من ذكرها هذا المقصد الخطابى . ثم تحصل معه مقاصد أخرى : أحدها رسوخها فى الاذهان بتكريرها.

الثانى ظهور البلاغة فإن تكرير الكلام فى الغرض الواحد من شأنه أن يثقل على البليغ فإذا جاء اللاحق من إثر السابق مع تفنن فى المعانى باختلاف طرق أدائها من مجاز أو استعارات أو تمثيل أو كتابة . وتفنن الالفاظ وتراكيبها بما تقتضيه الفصاحة وسعة اللغة باستعمال المترادفات مثل (ولئن رددت)(ولئن رجعت) وتفنن المحسنات البديعية المعنوية واللفظية ونحو ذلك كان ذلك من

الحدود القصوى فى البلاغة فذلك وجه من وجوه الاعجاز.

الثالث أن يسمع اللاحقون من المؤمنين فى وقت نزول القرءان ذكر القصة التى تطمئن أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم "

الفائدة السابعة تعويد المسلمين على معرفة سعة العالم وعظمة الامم والاعتراف لها بمزاياها حتى تدفع عنهم وصمة الغرور كمال وعظهم قوله تعالى عن قوم عاد " وقالوا من اشد منا قوة " فاذا علمت الأمة جوا مع الخيرات وملائمات حياة الناس تطلبت كلماينقصهامما يتوقف عليه كمال حياتها وعظمتها.

الفائدة الثامنة ان ينشئ فى المسلمين همة السعى إلى سادة العالم كما سادة امم من قبلهم ليخرجوا من الخمول الذى كان عليه العرب إذ رضوا من العزة باغتيال بعضهم بعضا فكان منتهى السيد منهم أن يغنم صريمة، ومنتهى أمل العلمى أن يرعى غنيمة. وتقاصرت هممهم عن تطلب السيادة حتى آل بهم الحال إلى أن فقدوا عزتهم فاصبحوا كالاتباع للفرس والروم فالعراق كله واليمن كله وبلاد البحرين تبع لسيادة الفرس، والشام ومشارفه تبع لسيادة الروم، بقى الحجاز ونجد لاغنية لهم عن الاعتزاز بملوك العجم والروم فى رحلاتهم وتجاراتهم.

الفائدة التاسعة معرفة أن قوة الله تعالى فوق كل قوة وأن الله ينصر من ينصره، وإنهم ان اخذوا بوسيلتى البقاء: من الاستعداد والاعتماد سلموا من تسلط غير هم عليهم. وذكر العواقب الصالحة لأهل الخير. وكيف ينصرهم الله تعالى كما فى قوله " فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم، وكذلك ننجى المؤمنين ".

الفائدة العاشرة إنها يحصل منها بالتبع فوائد فى تاريخ التشريع والحضارة وذلك يفتق اذهان المسلمين للالمام بفوائد المدينة كقوله تعالى " كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ اخاه فى دين الملك الا أن يشاء الله " فى قراءة من قرأ دين بكسر الدال أى فى شرع فرعون يومئذ فعلمنا أن شريعة القبط كانت تخول استرقاق السارق. وقوله " قال معاذ الله أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده " فدل على

أن شريعتهم ماكانت تسوغ اخذ البدل فى الاسترقاق . وإن الحر لا يملك إلا بوجه معتبر . ونعلم من قوله " وابعث فى المدائن حاشرين) فارسل فرعون فى المدائن كانت فاتتهم مماثلتها قبل إسلامهم أو فى مدة مغيبهم فإن تلقى القرءان عند نزوله أوقع فى النفوس من تطلبه من حافظيه .

الرابع إن جمع المؤمنين جميع القرءان حفظا كان نادرا بل تجد البعض يحفظ بعض السور فيكون الذى حفظ إحدى السور التى ذكرت فيها قصة معينة عالما بتلك القصة كعلم من حفظ سورة أخرى ذكرت فيها تلك القصة .

الخامس أن تلك القصص تختلف حكاية القصة الواحدة منها بأساليب مختلفة ويذكر فى بعض حكاية القصة الواحدة مالم يذكر فى بعضها الاخر وذلك لاسباب :

منها تجنب التطويل فى الحكاية الواحدة فيقتصر على موضع العبرة منها فى موضع ويذكر آخر فى موضع آخر فيحصل من متفرق مواضعها فى القرءان كمال القصة أو كمال المقصود منها ، وفى بعضها ما هو شرح لبعض .

ومنها أن يكون بعض القصة المذكور فى موضع مناسبا للحالة المقصودة من سامعيها فانها تارة إلى كليهما وقد تساق للطائفة من هؤلاء فى حالة خاصة ، ثم تساق إليها فى حالة أخرى وبذلك تتفاوت بالاطناب والايجاز على حسب المقامات الا ترى قصة بعث موسى كيف بسطت فى سورة طه . وسورة الشعراء وكيف أوجزت فى آيتين فى سورة الفرقان " ولقد ءاتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا "

ومنها أنه قد يقصد تارة التنبيه على خطأ المخاطبين فيما ينقلونه من تلك القصة وتارة لا يقصد ذلك .

فهذه تحقيقات سمحت بها القريحة . وربما كانت بعض معانيها فى كلام السابقين غير صريحة .] أ.هـ [1]

---

(١) عن التحرير والتنوير ، للشيخ / محمد الطاهر بن عاشور .

أهمية قصة يوسف عليه السلام

فى سورة " هود " يذكر الله عز وجل من قصص بلاء الأنبياء مايثبت به الأفئدة . وتتم به التسلية ..

التسلية إزاء ما يلاقيه العبد من الأنكاء ..

وكان من الممكن أن تكون قصة يوسف عليه السلام ضمن القصص المذكورة فى سورة هود عليه السلام .

ولكن الله عز وجل يفردها بالذكر لما فيها من ألوان البلاء مايستحق التفرد والتفصيل .

فقد (حسده إخوته .. فألقوه فى غيابة الجب .

وأخرجته السيارة .. فباعوه بيع العبيد .

وكادت له امرأة العزيز .. فزج فى ضيق السجن . فصبر على أذى الإخوة . وكيد امرأة العزيز . ومكر النسوة :

علم ما فى الفاحشة من المفاسد .. وما فى العدول عنها من المصالح :

فآثر الأعلى على الأدنى .

واختار عقوبة الدنيا بالسجن .. على ارتكاب الحرام .. وكانت العاقبة أن نجاه الله تعالى منهم . ورفعه فوق إخوته . وأذل له العزيز وامرأته .. وأقرت المرأة والنسوة ببراءته) [1]

وفى القصة (عنصر الغيرة والتحاسد بين الإخوة من أمهات مختلفات ..

.. وعنصر التفاوت فى الاستجابات المختلفة للغيرة والحسد فى نفوس الإخوة .

---

(١) تفسير يوسف - المنار -

وعنصر المكر والخداع . فى صور شتى .

وعنصر الشهوة ونزواتها .. والاستجابة لها : بالاندفاع أو بالإحجام .. وبالإعجاب والتمنى . والاعتصام والتأبى ..

وعنصر الندم فى بعض ألوانه . والعفو فى أوانه ..) (١)

وينتهى الأمر بالتمكين ليوسف فى الأرض .. تمكينا يؤكد :

أن العاقبة للمتقين . ولا عدوان إلا على الظالمين :

(وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين .. ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) (٢)

ومن أهمية قصة يوسف : بيان ملامح المنهج الإسلامى فى مواجهة الكوارث

عن المنهج الذى اتخذه القرآن الكريم لمواجهة الكوارث الطبيعية . الجفاف والقحط والمجاعة . وكيف أنه منهج علمى محكم ، يقول الدكتور صلاح أحمد حسن أستاذ الطب بجامعة أسيوط (يعرض القرآن الكريم - على لسان يوسف (عليه السلام) - فى سورة يوسف ، منهجا علميا محكما ، فى مواجهة الكوارث الطبيعية المتوقعة ، وذلك فى ثلاث آيات بينات هى قوله تعالى " قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون " ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون " ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون " (يوسف ٤٧ : ٤٩) وقد تناول النص القرآنى الكارثه الطبيعية المتوقعة من عدة وجوه هى :

---

(١) فى ظلال القرآن (٢) يوسف / ٥٦ - ٥٧

أولا : رؤيا الملك يقول تعالى : " وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات " (يوسف ٤٣) ، ويمكن هنا اعتبار رؤيا الملك ، أول إرهاصات علم التنبؤات الجوية ، وتوجيه أنظارنا إلى أهمية رصد العوامل الجوية المختلفة (مثل درجات الحرارة والرطوبة والضغط الجوى والمرتفعات والمنخفضات الجوية واتجاه الرياح وكثافة وارتفاع السحب واحتمالات هطول الأمطار وغيرها) ، لما له من علاقة مباشرة بزراعة المحاصيل الزراعية والتأثير المباشر على غلتها . وهنا يجب الإشارة إلى أن الكارثة الطبيعية المتوقعة لها ثلاث مراحل متتابعة من الشدة

(١) مرحلة الجفاف : وفيها يحبس المطر ، وتغيض الأنهار وعيون الماء ، فلاتكفى كميات الماء لقيام زراعات جديدة ، فيعتمد الناس على استهلاك ما لديهم من مخزون سلعى

(٢) مرحلة القحط حيث تجف الزروع القائمة ، وينفد الكلأ من المراعى ، ويحدث تيبس وتشقق للأرض ، وتهزل البهائم ، وتجف ضروعها ، ولا يجد الإنسان من ورائها نفعا ، إلا فى ذبحها أو التخلص منها

(٣) مرحلة المجاعة : حيث تنفق البهائم ، وتقحط الأرض ، ويصيب الهزال الناس والدواب ، وتتفشى الأوبئة ، فلا يجد الانسان مفرا سوى الهجرة ، أو أكل الميتة وخشاش الأرض . وقد نقل رؤى الملك على وجه السرعة إلى يوسف (عليه السلام) ليفسرها ، يقول تعالى : "يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلوهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات " (الآيه ٤٦) ، فقام يوسف بتفسير الرؤيا ، ولم يكتف بذلك ولكنه قام بوضع خطة علمية - عملية مكونة من ثلاث محاور للخروج من الكارثة المقبلة .

ثانيا : خطة يوسف العلمية بمواجهة الكارثة الطبيعية المقبلة : (١) زيادة إنتاج القمح : (قال تزرعون سبع سنين دأبا ..) ، وهو ما يسمى الآن "

الدورات الزراعية الموحدة " ، والتى تعتمد على زراعة مساحات كبيرة من الأراضى الزراعية بمحصول واحد ولعدة سنوات متصلة ، حتى يمكن توفير مايسمى " المخزون الاستراتيجى " ، ويكون الهدف من وراء ذلك الخروج بالبلاد من أزمة اقتصادية طاحنة ، أو لكسر حصار اقتصادى مفروض ، أو التحرر من ضغوط سياسية خارجية ، أو التصدير للمحصول على مايسمى الآن بالعملات الصعبة وقد طالب يوسف (عليه السلام) بالدأب (أى شدة بذل الجهد والمثابرة والصبر) طوال زراعة السنين السابقة ، للحصول على إنتاجية للقمح ، حتى يمكن تخزين ما يكفى احتياجات البلاد ، خلال سنوات الكارثة . (٢) سلامة تخزين محصول القمح (فما حصدتم فذروه فى سنبله) ، وهى طريقة مازالت معروفة حتى الآن فى ريف مصر ، بترك القمح فى سنابله ، فلا تقترب منه الآفات الزراعية فلا تحدث زيادة فى نسبة الفاقد ، وهذه أول اشارة فى التاريخ إلى أهمية علم وقاية النبات فى حفظ المحاصيل الزراعية (٣) ترشيد الاستهلاك (... إلا قليلا مما تأكلون) ، أى يكون استهلاك القمح من المخزون (يعرف الآن بالرصيد الاستراتيجى) للطعام فقط ، فلا يستخدم كغذاء للماشية ، أو للمقايضة بسلع أخرى ، أو فى صنع أغذية ترفيهيه ، لأن سنوات الجفاف المقبلة ستستهلك معظم المحصول ماعدا جزءاً يسيرا سيظل مخزوناً (ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون)

ثالثا : انفراج الازمة والإشارة إلى المحاصيل النوعية لحوض البحر المتوسط يقول تعالى :" ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون " (يوسف ٤٩) ، أى سوف يحدث انفراج لأزمة الجفاف ، وتفيض الأنهار ويسقى الناس الزروع والدواب ، ويعود الرخاء وتحدث وفرة فى المحاصيل الزراعية ، حتى إن الفائض منها سيقوم الناس بعصره ، وهى إشارة قرآنية إلى عصر الزيتون والعنب ، وهى من المحاصيل الخاصة بدول حوض البحر الأبيض المتوسط ، وربما كان فى الإشارة القرآنية - أيضا - ما يحذر من أن الكارثة المقبله

لم تقتصر فقط على مصر ، بل إنها ستمتد إلى كل البلدان المشهورة بوفرة إنتاجها من الزيتون والكروم (كبلاد الشام والمغرب العربية) ، والتى يقوم اقتصاده على محصول الزيتون والأعناب) أ.هـ

تــأمـــلات

يقول عز وجل :

﴿ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾

أنت مسافر من الدنيا :

فليكن سفرك اعتبارا :

انظر إلى " الآية " : إلى العلامة .. إنها تشير إلى شئ وراءها :

فلا تجعلها " ظاهرة " تمتص كل انتباهك : إن الشجرة فى مرأى العين : شجرة .. ولكنها فى نفس الوقت تثبت أن من ورائها من خلقها عز وجل ﴿ الذى جعل من الشجر الأخضر نارا فإذ أنتم منه توقدون ﴾ يس-٨٠

مدخل

كانت أول هدية أهداها رئيس اسرئيل إلى المرحوم الرئيس السادات هى قصة يوسف وإخوته فى مصر.

والقصة مأخوذة من سفر " التكوين " .. يريد بها التنويه بالدور الاسرائيلى فى هذه المنطقة من العالم . وكيف استطاع يوسف عليه السلام أن يكون مستشارا للأمن الغذائى فى مصر ..

والمهم :

أن توقيت الهدية كان مقصودا .. لأنها جاءت مع بداية القحط والجفاف فى افريقيا .

وإذا كانت اسرائيل تريد استثمار قصة يوسف عليه السلام لحسابها .. فنحن أحق بيوسف عليه السلام منهم .. وأولى الناس بتدبر ما فى قصته من آيات بينات .. تقود خطانا إلى التى هى أقوم .

بيان الإنســان

وبيان القــرآن

وهكذا يكون بيان المخلوق :

إنه محكوم بمزاجه الشخصى . ثم بم استقر فى وجدانه من ميول ورغبات .. توجه أحداث القصة كما يحلو لها - قصد القاص ذلك أم لم يقصد - ثم مايلجأ إليه من تزويق وتنميق يخفى به ما استكن فى قراره من أفكار ..

وأين قدرة المخلوق من قدرة الخالق سبحانه وتعالى :

تحدث " مخرج مسرحى " فقال :

إذا كان الجو مرحا .. كانت الظلال كذلك :

صارخة . متنوعة .

وإذا كان الجو جادا .. كانت الظلال قاتمة ..

بمعنى :

أن الجو الذى تنطلق منه الكلمة له آثاره فى الإقناع .

وقد عكف " الموجى " سنة كاملة ليلحن " قارئة الفنجان "

وحبسه " عبد الحليم حافظ " خمسة وأربعين يوما لينجزها ..

من ملامح القصة فى القرآن

البعد عمالا فائدة من ورائه مما يمثل حشواً لافائدة من ذكره مثل . ذكر اسم الرجل الناصح لموسى عليه السلام أو اسم الفتاتين وهكذا ..

المهم هو : التركيز على موطن العبرة والعظة .

وعدم التركيز على النماذج السيئة والإطالة فى ذكرها .

وياليت من يتعرضون لكتابة القصص والروايات يتعلمون من القرآن ويلتزمون أدبه ومنهجه . إذن لأقلعوا عن ذكر الهابط من القصص التى تركز على الحشو الذى لا فائدة من ذكره والتركيز على النماذج السيئة .

وياليت القائمين على الإعلام يتخيرون من القصص ما يتفق والمنهج القرانى فى عرضه لقصصه .

من أسرار قصص القرآن

قرأت كثيرا من أسرار القصة فى القرآن .. ثم عدت من رحلة القراءة إلى حقيقة تفرض نفسها وهى :

أننى لن أضيف جديدا إلى ماخطته أقلام علمائنا فى هذا الباب ..

وإنما هو : مجرد التبسيط .. والتوضيح .. فآثرت أن أسجل هنا ما قاله بعض علمائنا عن فوائد القصة القرآنية وأسرارها .. ربطا للشباب بجيل من المؤلفين لهم باعهم الطويل فى الكشف عن أسرار القرآن .. وسوف يتبين لهم أن اقتصارهم اليوم على مؤلف بالذات . ومؤلف بعينه .. حرمان للنفس من متعة معايشة سلفنا الصالح .. ثم حرمانها من متعة أسرار القرآن التى ساعدتهم تقواهم على اقتناصها .. ثم ماكان من طرائقهم فى التعبيروالاستنباط .. مما يجعل اقتصار الشباب على ثقافة معينة اليوم .. تقصيرا فى حق النفس التى ينبغى - حتى تبلغ رشدها - أن تكون تلك النحلة التى تمتص من رحيق كل الأزهار والأشجار . حتى يجئ نتاجها تلخيصا لكل عناصر الوجود من حولها .. ليكون حكم الشباب فى النهاية صائبا بعد ما كان تصورهم قبل ذلك صائبا .

نظرات تفصيلية

يقول الله عزوجل ﴿ ألر تلك آيات الكتاب المبين ﴾

﴿ إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ﴾ ١-٢

روى البيهقى فى أواخر الدلائل بسنده عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما :

(أن حبرا من اليهود . دخل على رسول الله ﷺ . - وكان قارئا للتوراة - فوافقه وهو يقرأ سورة يوسف عليه السلام كما أنزلت على موسى عليه السلام فى التوراة . فقال له الحبر :

يامحمد : من علمك ؟ قال :

الله علمنيها .

فرجع إلى اليهود فقال لهم :

أتعلمون والله أن محمدا ليقرأ كما أنزل فى التوراة ؟!

فانطلق بنفر منهم .. حتى دخلوا عليه .

فعرفوه بالصفة . ونظروا إلى خاتم النبوة بين كتفيه . فجعلوا يسمعون إلى قراءته لسورة يوسف .. فتعجبوا منه وقالوا :

يامحمد !

من علمك ؟ فقال رسول الله ﷺ :

علمنيها الله !!

فأسلم القوم عند ذلك)[1]

---

(١) ضعيف جدا . وفى إسناده الكلبى محمد بن السائب ، متهم بالكذب .

من بركات السورة

ولقد كان من بركات سورة "يوسف " إيمان هذا الوفد .. الذى كان إيمانه شهادة صدق على أن هذا القرآن من عند الله .. فى نفس الوقت الذى ينفى شبهة انتشار الإسلام بالقوة .. من حيث كان إيمان الوفد هنا طواعية واختيارا .

والآية الكريمة تذكير بمجموعة من النعم :

أولها : أنه مبين : ظاهر الإعجاز . واضح المعانى .. بَيِّن لمن تدبره:

أنه من عند الله . وأنه عربى ليس مما يعلمه بشر .

وثانيها : أنه بلفظ عربى .. ليفهموه ..

وثالثها : تدل الآية الكريمة على أن اللسان العربى :

(أفصح الألسنة . وأوسعها . وأقومها . وأعدلها)

وبهذا المفهوم : تظل العربية منفتحة على كل الأجناس مستوعبة لها . وفى كل العصور . ومؤثرة فيهم .

لقد [اتسعت دائرة اللغة العربية . بعد ظهور الاسلام الحنيف .

وطاوعت ألسنة كثيرة من الأمم والمجتمعات . التى لاتمت بصلة لغوية إلى العربية فارتضتها لغة أساسية :

لا فى مجال الشعيرة الدينية فحسب . وإنما فى التعامل والابداع الفكرى .

الأمر الذى دفع الكثير من المسلمين غير العرب إلى استيعاب العربية أسلوبا وسلوكا علميا وفكريا ومعرفيا .

وقد اجتازوا مساحات واسعة فى مجال الفهم والإدراك . والاحاطة بلغة

القرآن الكريم . حين صاروا أئمة لنحوها وقواعدها الصرفية والبلاغية والدلالية .. ولاغرابة أن تكون اللغة ديوانا .. يستضيف مفردات اصطلاحية لمسميات لم تصادفها اللغة] (١)

إن [اللغات كالأمم والحضارات ، تمر بأدوار متباينة التطور عبر التاريخ . وليست العربية بدعاً من باقى اللغات الإنسانية . فدورة العربية الأولى توكيد قدرتها العجيبة على التعبير الشعري ، والشقشقة بالخطابة العالية الفصاحة ، الطافحة البيان ؛ نجد العربية تنتقل من عهد الشعر والخطابة والترسل إلى عهد جديد . وكان ذلك على أيام عبد الملك بن مروان (وعلى يد الحجاج بن يوسف الثقفى تحديدا) ، تنتقل إلى عهد الإدارة والمالية والجيش ؛ فدونت بها الدواوين حدث ذلك على الرغم من الاعتراض الشديد للكتاب الفرس الذين كانوا موكلين بتحرير تلك الدواوين فى إدارة بنى أمية ؛ وذلك حتى لاتنقطع أرزاقهم ، وحتى لا تضمحل فى التاريخ لغتهم . فتلك دورة العربية الثانية .

وما إن بلغ الزمن العربى عهد المأمون ، وهو عهد من أجمل عهود الحضارة العربية الإسلامية وأرقاها ، حتى وقع التفكير فى وضع برنامج لترجمة كل ثمار العقول للأمم المتحضرة السابقة ، وخصوصاً اليونان فاستعان المأمون بكل العلماء من كل النحل والملل - وهى السيرة نفسها التى يسلكها الأمريكيون على عهدنا هذا فى مراكز بحثهم - فترجمت الفلسفة والطب والجغرافيا ، وعلم الفلك ، وكل أنواع المعرفة التى رأى العرب على ذلك العهد أنها ضرورية لقيام نهضتهم . وقد ابتدأت لغة الترجمة العربية متعثرة ركيكة . ثم لم تلبث العربية أن تأنقت ، فتألقت ، فحلقت ؛ وذلك بإيجاد المصطلحات اللائقة لكل حقول المعرفة المترجم منها .وتلك دورة العربية الثالثة وقد تميزت بالأخذ أساساً .

وبعد هضم تلك العلوم والرياضيات وعلم الفلك انتقلت العربية من

---
(١) العربى سبتمر / ٢٠٠٢ عدد ١٢٤

التقليد إلى الإبداع وقل : إنها انتقلت من مرحلة الأخذ من اللغات، إلى مرحلة تقديم الثمار الفكرية والعلمية إلى سائر اللغات ؛ فلأول مرة فى التاريخ شرع

العرب فى إنتاج المعرفة فى مستواها الأرقى ؛ فاخترعوا الأرقام التى تستعمل اليوم فى العالم كله ، وتوصلوا إلى ابتداع فروع فى الرياضيات لم تكن موجودة قبلهم كالجبر والمقابلة (الخوارزمى) . وفعل مثلهم علماء الكيمياء (جابر بن حيان) ، وعلماء الفيزياء (ابن الهيثم) . أما الفلاسفة فبعد أن هضموا الفلسفة الإغريقية ونظرياتها شرعوا فى كتاب فلسفة قائمة على الإيمان بالعقيدة الإسلامية فأضاف الفارابى ، وابن سينا ، وابن رشد ، معرفة جديدة ، وحاولوا أن يوفقوا بين المادة والروح بإخراج الفلسفة من الاشتغال بالأرض وحدها إلى الاهتمام بالسماء أيضاً . وقد استطاع العلماء العرب فى بضعة قرون أن يسهموا ، برقى ووعى وكفاءة ، فى ترقية العلم فى كل حقوق المعرفة .

ثم جاءت دورة الانحطاط والسبات ؛ فكان من أمر الأمة العربية ما كان ؛ فغطت العربية ، هى أيضاً مع أهلها فى سبات عميق دام قرونا ؛ إلى أن بزغت النهضة الحديثة - مما هو معروف بين الناس فبدأت تقوم بما كانت تقوم به فى العهد الأول من ترجمة العلوم والتكنولوجيا من اللغات الأجنبية الحية ؛ فأبدت قدرة عجيبة على استيعاب المنقولات العلمية، والمترجمات التكنولوجية ولكنها إلى اليوم لم تبلغ درجة الإبداع المنتظرة منها ؛ فتلك دورة العربية الرابعة . ونحن ننتظر مبعثها من جديد ، فى دورة خامسة عظيمة ..](١)

(١) عبد الملك مرتاض - الجزائر .

(٢) نظم الدور

أحسن القصص

يقول الله عزوجل :

﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾

ولقد كانت سورة يوسف أحسن القصص .. لماذا ؟

لما [قد ضمنها سبحانه من النكت والحكم أمرا عظيما . وذكر فيها حسن مجاوزة يوسف عليه السلام لإخوته . وصبره على أذاهم . وحلمه وإغضائه . عند لقائهم عن تبكيتهم . وكرمه فى العفو ..

.. وكان عقابها إلى خير وسلامة . واجتماع شمل وعفو من الله . وتجاوز عن الكل][1]

ثم هى - مع هذا - دالة :

[على أن اللسان العربى أفصح الألسنة . وأوسعها . وأقومها . وأعدلها] أ. هـ

ولكننا نتساءل معجبين .. ومتعجبين :

كيف كانت سورة يوسف أحسن القصص .. مع ماضمت عليه من بلاء يسلم إلى بلاء ؟ :

من غيابة الجب .. إلى فتنة امرأة العزيز .. إلى ظلمات السجن؟!

إن فى البلاء لحسنا .. يستشعره المجاهدون الصابرون المحتسبون .. بينما " المترفون " فى سكرتهم يعمهون : (إن الإسلام صب البطولة صبا فى أعصاب المسلمين . وأجراها فى دمائهم) وإذن .. فمتعتهم الكبرى ليست فى الراحة وإنما فى : عذوبة العذاب :

---

(١) المنار.

(ومهما حاقت بهم الشدائد . وتوالت المحن . فلن تتبدل طبيعة البطولة فيهم :

والعاقبة لهم .. إن كانوا مع الله ..

لأن الله سيكون حينئذ معهم .

ومن كان الله معه .. لا يغلبه مخلوق .

أتذكرون يوم عادوا من معركة الأحزاب . وقد نفدت منهم آخر قطرة من الطاقة البشرية ؟ .. استنفدها ماقاسوا من الشدة والامتحان فى ذلك اليوم .. حتى لم يبق لأحدهم أمنية إلا أن يأكل لقيمات .. ثم يطرح نفسه على الأرض . يستسلم إلى نومة مريحة ..

.. فجاءهم الأمر من القائد العام : من الذى لاينطق عن الهوى .

من الذى يأتيه " البريد الخاص " من السماء .

جاء الأمر بالسير إلى الناقض العهد : إلى حثالة البشر :

إلى بنى قريظة :

أما مسحوا النوم من عيونهم .. واستلوا بعزائمهم .. بل بإيمانهم التعب من أجسامهم وامتثلوا الأمر . وساروا .

لقد دُعوا بعدها إلى الجهاد : إلى التضحية : إلى بذل الروح . مئة مرة .. فما تقاعسوا . وما ترددوا :

لقد لبوادوما .. وما أبوا يوما) (١)

وهكذا كان يوسف عليه السلام .. والذى خاض سلسلة من الابتلاءات .. والتى كان مسك ختامها ذلك المشهد العزيز:

---

(١) الشيخ على الطنطاوى

(ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا ..)

وبعد هذا التكريم .. بعد هذا المسلسل من الابتلاء ما هو الحسن إن لم يكن ذلك هو الحسن ؟

وأين فى حياة المترفين ذلك الحسن .. الذى افتقدوه عندما تشابهت أيامهم .. فلم يتذوقوا للنعيم طعما .. لأن الترف لم يمكنهم من ذلك .

أما البلاء فهو قدر كبار النفوس وأمثلهم .. وهو متعتهم العظمى فى نفس الوقت :

(إن الإنسان لايعرف قيمة النعمة إلا عند فقدها : الطعام الآن أمامك . والشراب البارد تحت يدك .

فهل تقدرهما كما تقدرهما وأنت صائم فى نهار الصيف الطويل ؟ :

هل تعرف نعمة الأمن .. إلا عند الخوف ؟

والصحة . إلا عند المرض ؟

والإقامة إلا عند السفر :

كذلك الشيخ : لايعرف قيمة الشباب إلا عند فقده) أ.هـ

وتأمل فى قصة يوسف تلك التدابير الإلهية المؤكدة : كيف كان البلاء سبيلا إلى المعالى :

(فإخوة يوسف : لولم يحسدوه .. لما ألقوه فى غيابة الجب . ولو لم يلقوه .. لماوصل إلى عزيز مصر .

ولولم يعتقد العزيز بفراسته أما نته وصدقه .. لما أمنه على بيته . ورزقه وأهله .

ولو لم تراوده امرأة العزيز عن نفسه .. لما ظهرت نزاهته . ولم يخب كيدها .. لما ألقى فى السجن .

ولو لم يسجن) لما عرفت مواهبه ..

(فما من حلقة من هذه السلسة إلا وكان ظاهرها محرقا .. وباطنها مشرقا)[1] .. ومن أجل ذلك .. كان أحسن القصص (إنه الليل المطبق تتروح نسماته الأخيرة بعبير الشجر . وتتندى أزهاره فى نسيم السحر)

يقول القاضى عبد الجبار :

(فليتأمل القارئ أولاً : رؤيا يوسف للكواكب والشمس والقمر . وأن أباه ﷺ كيف تقدم بكتمان ذلك على إخوته . والصبر فى كتمان ذلك صعب . فاحتمله تحرزا من حسدهم .

ثانيا : كيف جاء بيوسف على إخوته لئلا يستو حشوا .. وظن السلامة مع خوفه منهم عليه . حتى أقدموا على ماأقدموا .

ثالثا : أنه بعد ظهور ذلك منهم : كيف احتملهم . ولم يجازهم على مافعلوه بقطعهم وإخراجهم عن محبته . وعن النظر لهم .

رابعاً : صورة يوسف فيما وقع إليه من امرأة العزيز :

وكيف تشدد فى الاحتراز عنها . واحتمل لذلك الحبس الطويل .. حتى كانت عاقبة صبره ماحصل : من اعتراف الكل بصيانته . ووصوله إلى الملك والبغية .

خامسا : مادفع إليه إخوته فى تلك السنين الصعبة من التردد إلى يوسف . يطلبون من جهته القوت . واحتمالهم لما عاملهم به .

سادسا : كيف صبر عليهم . وكيف احتمل فى تخليص أخيه إلى حضرته .

---

(١) المنار رشيد رضا .

واحتباسه عنده على مهل . وقد كان يمكنه التعجل .

سابعا : كيف حسنت معاملته مع إخوته . حين ظفر بهم . وقد كانوا عاملوه من قبل بما عاملوه به .

ثامنا : كيف الوصول إلى إزالة الغمة عن قلب أبيه . وصبر إلى أن ظفر بالوقت الذى أمكنه فيه إحضاره عنده . على أحسن الوجوه .

تاسعا : كيف كان صبر يعقوب ﷺ فى بابه . وفى باب غيبة أخيه "بنيامين" . وهو كالراجى لعودهما إليه . واجتماعه معهما .

عاشرا : كيف قبل يوسف عذر إخوته . وقد اعتذروا إليه مع تلك الجنايات العظام . فكان جوابه :

(لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم)

حادى عشر : كيف قبل يعقوب أيضا عذرهم وزاد بأن قال :

(سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم)

وهذا كله تفسير لمعنى " أحسن القصص " بما اشتمل عليه قصص القرآن من دروس : من تدبرها . وعمل بمقتضاها .. كان من الفائزين .

رؤيا يوسف

يقول عز وجل :

﴿ إذ قال يوسف لأبيه ياأبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين . قال يابنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين ﴾ ٤-٥

وفى الآية الكريمة كما قال المفسرون :

(التنبيه على ما للأرواح الإنسانية من الاستعداد للاطلاع على عالم المغيبات . وما يكون فى المستقبل : بواسطة مالها من الصفاء الذاتى . والفيض القدسى . والإلهام الربانى .

وقد ذكروا : أن أحوال المكاشفين أوائلها : المنامات .. فإذا قوى الحال .. صارت الرؤيا كشفا)

ومن معانى ذلك أن يكون يوسف عليه السلام قد سُلك به نحو ما سلك برسول الله ﷺ)

(وفى القصة يتجلى عنصر الحب الأبوى فى صور ودرجات :

فهو يحب كل أبنائه .. ولكن يوسف كان أحب .. والكيد هنا يكاد أن يكون قانونا من قوانين النفس الإنسانية :

فعنصر الغيرة والتحاسد بين الإخوة من أمهات مختلفات .. .. وعنصر التفاوت فى الاستجابات المختلفة للغيرة والحسد فى نفوس الإخوة كل أولئك متوقع .. بل واقع فعلا . وهو سلاح من أسلحة الشيطان . ولكن .. يظل الراشدون على مبادئهم : يطيعون الله تعالى فيمن عصوه فيهم :

وإن الذين بينى وبين بنى أبى ∴ وبين بنى عمى : لمختلف جدا

إذا أكلوا لحمى وفرت لحومهم ∴ وإن هدموا مجدى بنيت لهم مجدا .

آداب الرؤيا

ولماكانت الرؤيا فى قصة يوسف عليه السلام هى أول منازل البلاء .. فلابأس من بيان بعض آدابها :

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .. أنه سمع النبى ﷺ يقول :

« إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها .. فإنما هى من الله تعالى .. فليحمد الله تعالى وليحدث بها .

وفى رواية :

" فلا يحدث بها إلا من يحب . وإذا رأى غير ذلك . مما يكره : فإنما هى من الشيطان : فليستعذ من شرها . ولايذكرها لأحد . فإنها لاتضره " "متفق عليه"

وفى رواية :

" فلينفث عن شماله ثلاثا ، والنفث : نفخ لطيف لاريق معه .. "

وفى رواية :

وليتحول عن جنبه الذى كان عليه " رواه مسلم

وزاد الترمذى :

[ولاتحدث بها إلا لبيبا أوحبيبا]

(وذلك لأن العدو يحملها على بعض ماتحمله . مما فيه سوء للرائى . فيكون ذلك) لأن الرؤيا تفسر حسب تأويلها .

وإنما كان " النفث " لأنه أمر بطرد الشيطان الذى حضر الرؤيا المكروهة : تحقيرا له . واستقذارا . وخص به اليسار لأنها محل الأقذار.

ثم إن الله تعالى قدر وجود ما يسوء من الرؤيا عند وجوده .. فإبعاده يقتضى إبعادها.

وقال العلماء تعليلا لتحويل الرائى عن جنبه الذى كان عليه حين الرؤيا المكروهة :

(تفاؤلا : بتحول الحال من الرؤيا القبيحة إلى الرؤيا المليحة) نظير ماقيل فى تحويل الإمام الرداء فى خطبة " الاستسقاء " رجاء تحول الحال

وجاء من حديث أبى هريرة مرفوعا :

(إذا رأى أحدكم مايكره . فليقم . فليصل . ولايحدث به الناس) متفق عليه

وأما قوله عز وجل :

﴿ يابنى لاتقصص رؤياك على إخوتك ... ﴾

ففيه دليل على أن داء الحسد جزء من طبيعة الإنسان ..

وأن الشيطان الرجيم واجد فى هذه الغريزة فرصته التى من خلالها وبها يدمر علاقات الناس .

وعلاقة الأخوة مجال يؤثر فيه كيد الشيطان .. وبخاصة مع ذى الرحم الكاشح : والذى يطوى كشحه على حقد مقيم .. حتى وإن أعطيته فوق مايتمنى .. تماما كشجرة الحنظل :

كلما زدتها ماء فراتا .. زادت مرارتها ..

ألا وإن بعض العائلات كأنثى العنكبوت :

تأكل رجالها .. بعد ما بنوالها مجدا

(ومنهم من يلمزك فى الصدقات):

إذا لم تغسل يديك قالوا : قذر وإذا غسلتها قالوا : إنه يهدر الماء ؟!

ثم يحاول أن يتحرك على أنقاضك بعدما حاول هدمك :

ومابه من قوة ذاتية .. ولكن قوته لضعف خصومه !

فقد يسأل سائل :

ولماذا التحاسد بالذات بين الإخوة ؟!

ويجيب الواقع :

إن الناس يقارنونك بقريبك وليس بالبعيد ..

ومن ثم . يشعلون جذوة التنافس بين الأقرباء .. الذين قد يحملهم هذا التنافس المحموم على البغى والعدوان .

من دروس التربية

يقول الله عز وجل:

﴿ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم ﴾ ٦

تمهيد

فى قوله تعالى ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم .. ﴾ يقرر المفسرون :

يستفتح الحق تعالى الآية الكريمة بالبشارة بالعفو .. ولو بدأها

بقوله عز وجل ﴿ لم أذنت لهم ﴾ لا نفلق كبده ﷺ

وفى سورة عبس يقول عز وجل :

﴿ عبس وتولى ﴾ بضمير الغيبة .. ولو أنه تعالى قال له : عبست . لما تحملها قلبه الشريف ؟!

نذكر هذا بين يدى قوله عز وجل :

﴿ وكذلك يجتبيك ربك ﴾ .. الآية ..

يقول عز وجل ذلك .. قبيل الشروع فى ذكر مسلسل الابتلاء .. تقوية للقلب .. وإيناساله بالأمل فى الفرج بعد الشدة .. والرخاء بعد البلاء .. والصعود إلى القمة فى نهاية المطاف .. حتى إذا وافى البلاء كان متسلحا بالأمل الذى يصمد فى ظله للأحداث الهاجمة :

ما أضيق العمر لولا فسحة الأمل !

وقد قال الخبراء بطبيعة النفوس :

لابد من الأمل : من البشارة . سبيلا إلى تحمل المواقف الصعبة ..

وكان ذلك كذلك .. لتتسع دائرة البشرى .. وحتى .. تنداح دائرة السرور .. حتى قيل :

إن بين رؤيا يوسف وتأويلها : أربعين سنة .. وقيل ثمانين .

ومن أجل ذلك كان من وصاياه ﷺ للدعاة :

بشروا .. ولا تنفروا

وتبسمك فى وجه أخيك صدقة .

وقد ذكروا أن واحدا من الرياضيين .. كان يبيت كل يوم فى فراشه قلقا ..

وذات يوم .. وقف أمام المرآة .. ثم جرد من نفسه شخصا حاكمه قائلا :

كم أنت غبى ؟!

كيف تقلق لشئ لم يحدث بعد .. بل ربما لايحدث بالمرة :

إن الحياة قصيرة .. وإن العمر محدود .. والمستقبل لم يحدث بعد فلا ينبغى أن نبدد حياتنا فى معارك وهمية .

ولكن المسلم هنا يزيد فيقول :

اللهم : لا خير إلا خيرك ..

ولا إله غيرك ..

هجمة الناس : لا ترد قضاء ∴ فاعذر الدهر .. لا تشبه بلوم

أى يوم نخصه بسعود ∴ والمنايا ينزلن فى كل يوم

ليس يوم إلا وفيه سعود ∴ ونحوس : تجرى لقوم وقوم

والقرآن الكريم أعذب مورد .. لهذه البشارة

والتى تكون بما يسر .. ويظهر على " البشره " :

أ- بما يسر فى الدنيا

ب- وبما يسر فى الآخرة

جـ- وبما يسر فى الدنيا والآخرة

أما فى الآخرة .. فمثل قوله تعالى :

﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار.. ﴾ البقرة - ٢٥

وأما فى الدنيا :

﴿ فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مثدقا بكلمة من الله وسيداو حصورا ونبيا من الصالحين ﴾ آل عمران - ٣٩

أما فى الدنيا والآخرة

فمن مثل قوله تعالى :

﴿ لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لاتبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ﴾يونس - ٦٤

وفى قصة يوسف عليه السلام . يقول عز وجل :

﴿ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم واسحاق إن ربك عليم حكيم ﴾ ٦

ويقول تعالى :

﴿ .. وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون ﴾

ثم وفى النهاية جاء الفرج .. درسا بينا .. لكل مبتلى .. أن الفرج قريب ولكنكم تستعجلون .

البشرى فى السنة :

قوله ﷺ :

" لن يغلب عسر يسرين "

(إذا كررت الكلمة : معرفة بأل : فهى واحدة . وإذا كررت غير معرفة بأل : فهى اثنتان)

ومنه قوله تعالى :

﴿ فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا ﴾

قال ابن عباس رضى الله عنهما :

إن الرسول ﷺ . بشر خديجة رضى الله عنها ببيت فى الجنة :

من قصب ..

والقصب : اللؤلؤ المجوف "

لا صخب فيه ولا نصب " (لا صيام . ولا تعب)

وقوله ﷺ :

(.. واعلم أن النصر مع الصبر . وأن الفرج مع الكرب . وأن مع العسر يسرا)[١]

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند ج/٣٠٧/١

آيات إخوة يوسف

يقول الله عز وجل :

﴿ لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين ﴾ ٧/

تمهيد

نسافر بعقولنا .. وفى كل الاتجاهات .. فماذا نرى ؟؟

مما نراه : نرى العجب العجاب فى قصة يوسف عليه السلام : وأمام روعة التصوير القرآنى .. ننتقل من قراء للسطور إلى مشاهدين لحدث منظور :

وإذا كان السرد فى القصة يوفر بعدها الزمانى .. فإن التصوير هو الذى يوفر بعدها المكانى .. وهكذا .. نجد أنفسنا .. هناك .. على مسرح الأحداث : أحداث هذه القصة والتى تصب فى هدف واحد هو :

أن الله تعالى مع المحسنين ..

وقد يتعرض المحسنون للأذى يتواصى به الظالمون الحاقدون .. ثم تبوء مؤامراتهم بالفشل :

لأن الخوف من الله .. يحميك من الخوف من الناس . وقد تبوء مؤامراتهم بالفشل :

وقد تكون مزاياك هى بالذات عيوبك .. فلتعلم أن أمرك على ماقيل بحق:

وفى السماء نجوم لاعداد لها ∴ وليس يخسف إلا الشمس والقمر

وهكذا الطائرة فى جو السماء :

فمن الطبيعى كلما بدأت فى الصعود .. أن يقاومها الريح .. ولكنها فى النهاية تأخذ سمتها فوق عرش الهواء !!

بينما الحاقدون هناك : يتدحرجون على السفح الوطىء :

يحزنون على مافاتهم من الآمال .. فلا يفرحون بما فى أيديهم . ومن ثم .. لا يتقدمون .

ولا حظ من فقه الآية الكريمة قوله عز وجل :

﴿ .. فى يوسف وإخوته آيات للسائلين ﴾

لقد كان فى يوسف وإخوته وامرأة العزيز .. وفى السجن .. كانت هناك آيات بينات ..

لكنه عز وجل يركز على الآيات المتعلقة بالإخوة . لأنها أغربها وأعجبها :

لأن الأخوة مانعة من التآمر .. لامقتضية له ..

والإخوة المكيدون : جعلوا المانع مقتضيا .. فكان " حاميها حراميها " كما نقول فى تعبيراتنا ..

وكأنه إنكار تصرف الإخوة الذى لم يكن متوقعا .. بأى مقياس ..

أما ماترتب على ذلك من ابتلاءات فكانت بسبب تصرف الإخوة المعتدين.

ولقد روى أن حكيما سئل :

أيهما أحب إليك : أخوك .. أم صديقك ؟

فقال :

أحبهما إلى : أخى .. إذا كان صديقى

بمعنى : أنه لاتكفى لحمة الدم . ولا واشجة القربى . ولابد من عنصر التضحية ليكون صديقا صداقة تؤكد صدق هذه الأخوة .

وإخوة يوسف .. لم يكونوا إخوة .. ولم يكونوا أصدقاء

وتجربتنا الإنسانية شاهدة بذلك :

فقد ينصحك الطبيب أن يكون طعامك خبز الشعير .. أو سويق الشعير .. حفاظا على صحتك .. ومن هنا تصير طبيب نفسك .. والتى تلزمها هذا الطعام .. من أجل مصلحتك

أما أن يلزمك الوفاء أن تأكل شعيرا فترضى . فذلك هو ماتحسد عليه .. وكذلك فعل على رضى الله عنه ..

فبعد استشهاد عثمان رضى الله عنه قرر من بعده ألا يأكل إلا الشعير !

وتلك هى الصداقة .. وهذا هو الحب .. الحب فى الله .. الذى يصير به الحبيب ذلك الصديق :

الصديق :

الذى يستر عيبك .. وينشر فضلك .. ويقبل عذرك - وقبل أن تعتذر .. منطلقا من قاعدة : وهل عود يفوح بلا دخان ؟!

أما نحن اليوم .. فنحن على ماقيل :

لن تكون كاملا .. حتى يأمنك عدوك

فكيف ونحن اليوم بحيث لايأمننا صديقنا ؟!

وقد تسمع عنه سيئة .. فتنشرها ..

ومن سمع بفاحشة فأفشاها .. فهو كالذى أتاها !!

فكيف بمن فعلها ابتداء .. ثم أفشاها ؟!

إن الصديق الحق : عين لك ثالثة .. بل هو فى حياتك شئ أعظم من ذلك: إنه ذلك الذى عناه الشاعر :

جسمى معى . والروح عندكمو

فالجسم فى غربة . والروح فى وطن

وبهذا المقياس نقول :

إنه لايصلح صديقا لك .. من كان صديقا لكل إنسان ..

ذلك بأن صديق كل إنسان .. لاصديق له . ومع هذا .. فلابد له من هفوات .. لابد من تحملها لأن " الكمان " لكى يعمر طويلا لاينبغى شد أوتاره كثيرا ؟!

ولكننا اليوم خلاف ذلك :

فالأخ يبهت أخاه :

يتجهم له بالذات .. من أحسن إليهم . ليصبح الأمر على ماقيل :

أكثر الناس إساءة لك هو : من أحسنت إليه لماذا ؟

لأنه لايريد أن يقول لك : شكرا ؟!

بل إن الشاهد عليك .. من دمك ولحمك !!

وأحيانا : يكون حصاد النجاح والشهرة : أن يكون جريمة تعاقب عليها ..

وما هى حيلتك عندما يكون الشاتم .. أو المعاقب من العائلة نفسها ؟

والله غالب على أمره

قول الله عز وجل :

﴿ لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين ﴾ /٧

ولقد قلنا : إنه من المعلوم : أنه قد كان هناك آيات فى يوسف وامرأة العزيز.. ثم وهو فى السجن ..

ولكن النص الكريم يركز بالذات على الآيات فيه وفى إخوته لما لها من أهمية خاصة .. تشير إلى أن الله عز وجل إذا كان ينصر هذا الدين بالرجل الفاجر.. فإنه عز وجل من سخريته بالظالمين أن ينصر المظلوم بالظالم ..

وهو ما أشار إليه العلماء بمثل قولهم :(١)

(إن من يتأمل الأحداث التى مرت بيوسف وإخوته ليعجب أشد العجب ؛ حيث إن إخوة يوسف هم أنفسهم ، كانوا بما اقترفوه فى حق أخيهم يمثلون يد الله التى حققت ليوسف هذا المستقبل العظيم ،والذى بدأ منذ أن ألقوه فى البئر ليدرج على سلمه خطوة بعد خطوة ، ولكنهم لم يكونوا يعلمون ذلك . فلو أنهم كانوا يعلمون أنهم حينما ألقوه فى البئر ، كانوا يلقونه فى طريق طويل أوله وحشة البئر وآخره أن يسجدوا له وهو على عرش إحدى الممالك ، لما ألقوه فى البئر ، وإنما كانوا قد أحاطوه بأضلعهم ومهجهم ، وحافظوا عليه محافظتهم على أرواحهم ونفوسهم ليبقى فى أرض كنعان ببلاد الشام ، ولكن مشيئة الله غالبة . وهذه صورة أولى لجهلهم هذا ، فتتمثل فى أنهم حينما قذفوه فى البئر كانوا يعرفون أمر الرؤيا ، التى سجدت له فيها الكواكب والشمس والقمر ، كما تحكى بعض الأخبار فأرادوا أن يحولوا بينه وبين هذا المستقبل الذى وعدت به الرؤيا ، ولكنهم لا يعرفون أن الرؤيا من الله ، وأنها وعد محقق لامحاولة بوقوع ما

---

(١) مجلة الأزهر / فبراير / ٢٠٠٥

ترمز إليه ، والمقادير بيد الله ، الأحداث التى تؤدى إلى المستقبل ، لاتخرج فى جملتها وتفاصيلها عما أراده الله عز وجل . ووعد به)[١]

﴿ والله غالب على أمره ﴾ يوسف / ٢١

فكان الاقتراح الأخير - وهو فقط لا شئ غيره - لتنفذ فيهم وفى يوسف مشيئة الله[٢] .

... !!! ولكن جهلهم بهذه الحقائق الإيمانية .. وضعهم فى هذا المأزق التاريخى الكبير ؛ ليكونوا مضرب الأمثال فى قسوة القلب ، وتحجز الفؤاد ، وغيبة الضمير .. وليكون يوسف أمثولة الصبر .. والعفة .. والعفو .. والحلم .. !! إذن . الحقيقة الإيمانية تؤكد على أن الحقد لا يغير لله مشيئة ولو كان التغيير " قيد شعرة " .. فالأمر ، لابد صائرة إلى ما أراد الله شاء الحاقد أم أبى . بل ربما كان الحاقد بما يرتكبه فى حق المحقود عليه سببامن أسباب معاليه ، وارتفاع شأنه ، كما حدث هنا وفى قصة هذا النبى المبارك - عليه السلام - حقا .. حقا ... حقا .. !!)

إذن كان الاقتراح الأول - وفورة الغضب والحقد تغلى فى نفوسهم - كفيلاً بإنهاء قضية يوسف من اللحظة الأولى ، ولكن مشيئة الله غالبة ؛ فلم يحز هذا الاقتراح الرضا منهم هم ، أو قل ؛ لم يفز بموافقة جميع الآراء ، ولم يحدث بشأنه إجماع منهم ، ولو كانوا يعرفون ما سوف تأتى به الغداة لفعلوا وقتلوه وانتهى الأمر ، بتحقيق مأربهم فى لحظة من النهار ، ولكن ..

﴿ لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين ﴾ يوسف /٧

وحقا ... وحقا... حقا .. !!

﴿ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾ يوسف /٢١

---

(١) مجلة الأزهر / فبراير / ٢٠٠٥

(٢) وإن هذا ليذكرنا بقصة موسى - عليه السلام - وكيف نجا من القتل الذى استحر على يد فرعون وجنوده فى مواليد بنى إسرائيل ، الذكور . اقرأ إن شئت ؛ ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولاتخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين .. فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين .. وقالت امرأت فرعون قرت عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لايشعرون ﴾ [الآيات ؛ ٧-٩ سورة القصص] ، والقصة بتفاصيلها معروفة .

النزعة العدوانية

يقول الله عز وجل :

﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفى ضلال مبين ﴾ /٨

تمهيد

لقد كان يعقوب عليه السلام يحب يوسف حبا جما ..

لكن الذى لايريد الإخوة أن يفهموه هو :

أن أسباب هذا الحب كانت سماوية .. ولم تكن أرضية مادية !

إن الابن العادى .. يمتد به العمر .. ويستمر الذكر ..

فكيف بالابن إذا كان نبيا ؟!

لكن المقتضى للحب هنا لدى الإخوة كان " مانعا " .. حيث قرروا التخلص منه .. وكان جواب الوالد هنا رداعلى هذه .

بروز النزعة العدوانية

﴿ وأخاف أن يأكله الذئب ﴾

إنه خاف الذئب .. إما الإخوة .. فلا يخاف منهم أو هذا مايجب أن يكون !

ولكنهم فعلوا ماينسجم مع فطرتهم الحاقدة ..

القياس الخاطئ

إنهم يقولون :

(.. ونحن عصبة : مجموعة قوية : تدفع . وتنفع و ﴿ إن أبانا لفى ضلال مبين ﴾ إذ يؤثر غلاما وصبيا صغيرين على مجموعة الرجال النافعين الدافعين)

وكان قياسهم خاطئا : وخانهم ذكاؤهم الذى أخلى موقعه ليدير الحقد الموقف : (ويدخل الشيطان .. فيختل تقديرهم للوقائع . وتتضخم فى حسهم أشياء صغيرة . وتهون أحداث ضخام :

تهون الفعلة الشنعاء المتمثلة فى إزهاق روح : روح غلام برئ لايملك دفعا عن نفسه . وهو لهم أخ . وهم أبناء نبى .

يهون هذا : وتتضخم فى أعينهم حكاية إيثار أبيهم له بالحب . حتى توازى القتل : أكبر جرائم الأرض .. بعد الشرك بالله) أ.هـ

لقد زعموا أنهم " عصبة " أى عصابة .. لأن أمور البيت تظل معلقة ولا تعصب إلابهم ..

فإذا فضل الأب الصغيرين عليهم فهو ليس فقط ضالا .. وإنما هو : (فى ضلال مبين)

لأن الصغيرين لا كفاية لهما .. فكيف يفضلهما ؟ !!

يقول صاحب المنار :

(إنه لفى تيه من المحاباة لهما . ضل فيه طريق العدل والمساواة ضلالا بينا لا يخفى على أحد) أ.هـ

(.. وهذا الحكم منهم على أبيهم : جهل مبين وخطأ كبير :

لعل سببه اتهامهم إياه بإفراطه فى حب أمهما من قبل . فيكون مثاره الأول : اختلاف الأمهات بتعدد الزوجات .. وهو الذى أضلهم عن غريزة الوالدين فى زيادة العطف على صغار الأولاد وضعا فهم)

وبهذا المعنى : فالقضية له .. وليست عليه :

لأن العطف على الضعفاء شارة إنسانية الإنسان .. وهو نفسه المعنى

المفهوم من إجابة والد قيل له :

أى ولدك أحب إليك ؟ فقال :

صغيرهم حتى يكبر .

وغائبهم حتى يحضر .

ومريضهم حتى يشفى .

وفقيرهم حتى يغنى .

على أن فى الموقف جانبا آخر شاهدا بسلامة موقف الوالد وخطل رأى الأبناء :

فضيه (وجوب عناية الوالدين بمداراة الأولاد . وتربيتهم على المحبة والعدل . واتقاء وقوع التحاسد والتباغض بينهم

(ومنه : اجتناب تفضيل بعضهم على بعض . بما يعده المفضول إهانة له . ومحاباة لأخيه بالهوى ..

.. ومنه سلوك سبيل الحكمة فى تفضيل من فضل الله تعالى بالمواهب الفطرية : لمكارم الأخلاق والتقوى . والعلم والذكاء .

وما كان يعقوب بالذى يخفى عليه هذا ..

وما نهى يوسف عن قص رؤياه عليهم إلا من علمه بما يجب فيه ولكن ..

ولكن .. ماذا يفعل الإنسان بغريزته . وقلبه . وروحه ؟

أيستطيع أن يحول دون سلطانها على جوارحه ؟

كلا :

دلائل العشق لاتخفى على أحد ∴ كحامل المسك : لايخلو من العبق) !!

أما بعــد :

فقد كان قياس الأبناء قياساً فاسدا .. فترتب عليه من الفساد ما الله به عليم ..

فكأنهم قالوا :

لقد فضله علينا بلا مسوغ لهذا التفضيل ..

لأن القرب المقتضى للحب واحد : فكلنا أبناؤه ومن صلبه .

(فنحن فى البنوة سواء)

ولكن (لنا مزية تقتضى تفضيلنا وهى : أنا عصبة : لنا من النفع له والدفاع عنه والكفاية ماليس لهما)

وهكذا الغرور .. يملى لأصحابه .. حتى يروا حسنا ماليس بالحسن .. ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا) .

وهيهات ..

حـق القـــوة

يقول الله عز وجل :

﴿ اقـتلوا يـوسف أو اطرحـوه أرضـا يخل لكم وجـه أبيكم وتكونـوا من بعـده قوما صالحين ﴾ ٩

إن قـسـوة البـلاء هنا .. أن المؤامـرة تتم فى بيت نبى هو : يعـقـوب عليـه السلام .. ثم يتولى كبرها إخوة هم أنبياء وما هكذا تكون أخلاق الأنبياء .

شبهة وردها ..

وقـد تساءل ناس : كيف صدر هذا التآمر من أنبياء هم معصومون من مثل هذا الذى ارتكبوه .. وفى حق أخيهم يوسف ؟

بل كيف يكونون أنبياء .. ثم تسمح له أنفسهم أن يعتدوا على قيمة البر .. حتى حرموا الوالد من ولده .

والجواب .. كما يقول العلماء (١)

أما إنهم أنبياء :

فهذا واضح من الآية الكريمة :

﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنـزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لانفرق بين أحد من رسله ونحن له مسلمون ﴾ البقرة / ١٣٦

ولكن يبقى الإشكال قائما :

كيف يقع منهم ماوقع . والتى ينبئ ظاهرها أنها لاتليق بالأنبياء؟

أو على الأقل : لاتليق بالمرشحين للنبوة ؟

(١) راجع : أسنى المطالب للهيتمى / ٢٦٧ وما بعدها

(بل الصواب :

أن الأنبياء جميعهم والرسل : معصومون قبل النبوة وبعدها من صغائر المعاصى وكبيرها : عمدها وسهوها)

والجواب [١]

١- ذهب كثير من العلماء :

أن العصمة بعد النبوة .. لا قبلها

٢- وعلى فرض كونها قبل البعثة .. فقد كان لهم تأويل سوغ لهم ما فعلوه .. وكان على المتهمين ألا يتسرعوا فيرموهم بما لا يليق .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر :

أن " ابن عمر " قيل له :

كيف تقرأ " نرتع ونلعب " وهم الأنبياء ؟

فقال :

لم يكونوا يومئذ بالأنبياء . وقد فسر .. ابن عباس :

(نسعى . وننشط . ونلهو)

والحاصل : أنه يجب علينا الإيمان ببراءتهم ونزاهتهم .

صح عن ابن مسعود رضى الله عنه :

أفرس الناس ثلاثة :

العزيز : بما تفرس فى يوسف

---

(١) راجع : اسنى المطالب للهيتمى تحقيق د. حسن عبد الحميد . و" تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضى عبد الجبار / ١٨٧

وبنت شعيب : بما تفرسته فى موسى

وأبو بكر .. با ستخلافه عمر "[١]

إنه لشئ مؤسف حقا : أن تجيئك القذيفة من منطقة الأمان :

أن ترمى بالأحجار .. من حيث تتوقع أن تنثر من فوقك الأزهار :

أن يكون ظالموك من بنى لحمك ودمك ..

وظلم ذوى القربى أشد غضاضة ∴ على النفس .. من وقع الحسام المهند

فإذا كان الظالم هو أخاك ..

وإذا تم ذلك فى بيت النبوة .. فإن ذلك هو البلاء . الذى يجل عن العزاء .. ولكن لابأس .. فلا يخلو الموقف من فوائد .. لاتكون إلا فى أتون المحن والشدائد .. وذلك مايشير إليه . الشاعر القائل :

جزى الله الشدائد كل خير :

عرفت بها عدوى من صديقى

أجل :

فإن الحياة تكون رخية ناعمة ..

والأسرة آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ..

وفجأة يجئ البلاء .. عندما يلقى غلام غشوم بحجر فى البحيرة الساكنة .. فإذا كل شئ يتغير . ثم تكون الدروس والعبر :

---

(١) أورده ابن كثير فى البداية والنهاية ج /١/ ٢٤٤

الغيرة بين التدمير .. والتعمير

لقد غار ابن آدم من أخيه .. فقتله .. مدفوعا بهذه الغيرة المدمرة ..

أما غيرة الرجل على دينه وعرضه فتلك هى الغيرة المعمرة

إن " الغيرة " نزعة فطرية فينا نحن البشر ؛ ولكننا بسلوكنا نجعلها شكا وحقدا .. حين نخلطها بأهوائنا ..

وكذلك فعل إخوة يوسف

أما بعد :

فهل صار إخوة يوسف بالتخلص منه صالحين؟

والجواب : أبدا .. ما صاروا صالحين .. وإنما صاروا فاسدين .. فكان جزاؤهم من جنس عملهم

على ما يقول عز وجل :

﴿ ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ﴾ الروم / ١٠

فمن عاقبة الذين ارتكبوا من الخطايا أسوأ مايكون :

﴿ إنهم لما أساءوا .. زادتهم إساءتهم عماوة . حتى ارتكسوا فى العمى . فوصلوا إلى التكذيب والا ستهزاء . الذى هو أقبح الحالات .

وهو عكس ما يجازى به المؤمن من أنه :

يزداد بإيمانه هدى)

كيف كان الكذب عقابا

١- إن الكذاب تؤرقه " عقدة الذنب " من جراء الكذب

٢- ثم هو خائف من ظهور الحقيقة .. فلا يستقر على حال من القلق ؛

٣- ولقد كانوا ذلك الرجل الذى يحتفظ بتوبته " جاهزة " يفعل ما يشاء .. وبالتوبة يصحح أخطاءه ..

وهيهات

قـوة الحـق

يقول الله عز وجل :

﴿ قال قائل منهم لاتقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴾ ١٠

روى أن " يوسف " كان أحب إلى أبيه .. لما يرى فيه من المخايل . وكان إخوته يحسدونه .

فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة . بحيث لم يصبر عنه . فتبالغ حسدهم الذى حملهم على اقتراح قتله تخلصا منه . وليخلو لهم وجه أبيهم كما توهموا..

وتأمل من بلاغة الآية قوله عز وجل حكاية عنهم :

﴿ اقتلوا يوسف ﴾

لقد كان الغضب فى بادئ الأمر عنيفا .. فعبروا عنه باقتراح قتله .. فلما تبخرت شحنة الغضب .. هدأت النفوس فقالوا : ﴿ أو اطرحوه أرضا .. ﴾ :

أرضا : بالتنكير : فهى أرض منكورة مجهولة .. يتعرض فيها للهلاك .. فرارا من مباشرة قتله بأيديهم

قالوا ذلك .. إلا واحدا منهم هو : شمعون .. والذى استبعد احتمال القتل اكتفاء بإلقائه فى البئر .. بحيث يراه السائرون فيلتقطونه .. إن كنتم ولا بد فاعلين به ما تريدون .

وكان " شمعون يمثل فى إخوته "قوة الحق " التى تواجه بالحكمة " حق القوة " الغاشمة التى تريد فرض مشيئتها .. ورغم أن القائل معروف " وهو " شمعون " ولكن [أبهمه القرآن :

لأن تعيينه بتسميته لا فائدة منها فى عبرة ولا حكمة . وإنما العبرة فى

وصفه بأنه منهم . وذلك يعنى :

أنهم لم يجمعوا على جناية قتله ..

والجب هو :

البئر غير المطوية : أى : غير المبنيه من داخلها با لحجارة](١)

ومن مظاهر حكمة أو سطهم هذا :

أولا :

إنه يقول لهم .. إذا كان بالإمكان التخلص منه بلا ارتكاب جريمة القتل .. فلا داعى لارتكاب جريمة تسخطون الله بارتكابها .. مع أن هدفكم يتحقق بدونها .

وثانيا :

إنه يصرح باسم يوسف فيقول ما حكاه القرآن :

(لاتقتلوا يوسف ..) وكان يكفى أن يقال : لاتقتلوه .. لأن التصريح باسمه ربما يحرك فيهم الرأفة .. فيثور الدم المشترك .. فلا يحققون ما يريدون.

ويبدو أنهم كانوا مهيئين لقبول هذا الاقتراح فرارا من عقدة الذنب

وهنا شبهة مردودة . وهى ما أشار إليه الدكتور حسن جاد (٢) يزعم بعض الكاتبين من طلاب الشهرة :

أ- " فى قصص القرآن أحداث ومشاهد نجدها فى التوراه والإنجيل .

ب- " إن مصادر القصص القرآنى ليست هى التوراة والإنجيل . وإنما هى شئ آخر .

(١) المنار ، للشيخ رشيد رضا .	(٢) من مقال بمجلة " لأزهر "

ماهو ؟ هو العرب أنفسهم وما عرفوه من اليهود والنصارى . وما انتشر بينهم من قصص التوراة والإنجيل "

ويهدف الكاتب من وراء ذلك كله : أن مصادر القصص القرآنى هى تلك الخرافات والأوهام والأساطير .

وكان من رد الدكتور قوله :

(إذا كان القرآن قد جارى الأساطير العربية . ولم يصدم الوجدان العربى فيما ألفه - من أوهام - فما باله يصدم هذا الوجدان بنفى صلب المسيح مثلا ، مع أن هذا يؤثر فى انتشار الاسلام سلبا .

وقياسا على ذلك نقول :

إن القرآن كان أدق فى تعبيره " بالجب " بدل ورودها فى التوراه باسم "البئر" .

فالجب كما قلنا هو مالم يبن بالحجارة من داخله .. وكان ذلك من مقاصد الإخوة حتى لايتمكن من الصعود لو كانت بنيت بالحجارة ..

فكيف تكون التوراة مصدرا من مصادر القرآن مع هذه المخالفة ؟

الحق أن القرآن " مهيمن " :

يصدق ما كان فى الكتب قبله صادقا .. ثم يصحح الخطأ هناك :

وذلك قوله عز وجل :

﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ﴾ المائدة / ٤٨

وصدق القائل :

[يظن كثير من الناس الآن - كماظن كثير ممن قبلهم - أن القصص التى

جاءت فى القرآن يجب أن تتفق مع ما جاء فى كتب بنى إسرائيل المعروفة عند النصارى بالعهد العتيق أو كتب التاريخ القديمة ، وليس القرآن تاريخا ولا قصصا وإنما هو هداية وموعظة ، فلا يذكر قصة لبيان تاريخ حدوثها ، ولا لأجل التفكه بها أو الإحاطة بتفصيلها ، وإنما يذكر ما يذكره لأجل العبرة كما قال : ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ١٢ : ١١١ ﴾ وبيان سنن الاجتماع كما قال : ﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ٣ : ١٣٧ ﴾ وقال : ﴿ سنة الله التى قد خلت فى عباده ٤٠ : ٨٥ ﴾ وغير ذلك من الآيات .

والحوادث المتقدمة منها ما هو معروف ، والله تعالى يذكر من هذا وذاك ما شاء أن يذكر لأجل العبرة والموعظة ، فيكتفى من القصة بموضع العبرة ومحل الفائدة ، ولا يأتى بها مفصلة بجزئياتها التى لا تزيد فى العبرة بل ربما تشغل عنها ، فلا غرو أن يكون فى هذه القصص التى يعظنا الله بها ويعلمنا سننه مالا يعرفه الناس ؛ لأنه لم يرو ولم يدون بالكتاب . وقد اهتدى بعض المؤرخين الراقين فى هذه الأزمنة إلى الاقتداء بهذا ، فصار أهل المنزلة العالية منهم يذكرون من وقائع التاريخ ما يستنبطون منه الأحكام الاجتماعية وهو الأمور الكلية ، ولا يحفلون بالجزئيات لما يقع فيها من الخلاف الذى يذهب بالثقة ، ولما فى قراءتها من الإسراف فى الزمن والإضاعة للعمر بغير فائدة توازيه ، وبهذه الطريقة يمكن إيداع ما عرف من تاريخ العالم فى مجلد واحد يوثق به ويستفاد منه ، فلا يكون عرضة للتكذيب والطعن ، كما هو الشأن فى المصنفات التى تستقصى الوقائع الجزئية مفصلة تفصيلا .

إن محاولة جعل قصص القرآن ككتب التاريخ بإدخال ما يروون فيه على أنه بيان لها هى مخالفة لسنته ، وصرف للقلوب عن موعظته ، وإضاعة لمقصده وحكمته] أ.هـ

لكن سيد قومه: المتغابى

يقول الله عزوجل :

﴿ قالوا ياأبانا مالك لاتأمنا على يوسف وإنا له لناصحون . أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون قال إنى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذن لخاسرون ﴾١١-١٤

هناك مثل يقول :

(كاد المريب بأن يقول : خذونى) !! بمعنى :

إحساس المذنب بذنبه الذى صار شبحا يطارده . ولا يستطيع الإفلات منه .. ومن شدة وطأة الإحساس بذنبه يوشك أن يصرخ فى الناس قائلالهم : وفروا على أنفسكم البحث عن المتهم .. فأنا الجانى .. فخذونى فأنا الفاعل .. وكان إخوة يوسف ضحايا هذا الإحساس :

فقد اتخذوا قرار التخلص من أخيهم يوسف ..

ولما بدأت أولى خطوات التنفيذ .. ارتعشت الأيدى .. وتلجلج اللسان .. "فإن الحق أبلج . والباطل لجلج" !!

ولأنهم يعيشون فى حمى هذا الإحساس .. فقد جاء أسلوب عرضهم الفكرة على أبيهم مشفوعا بمجموعة من المؤكدات .. يقاومون بها هذا الإحساس الضاغط ..

﴿ يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ﴾ ؟

(أكدوا هذه الدعوى :

أ- بالجملة الاسمية

ب- المصدرة بإن .

جـ- وتقديم " له " على خبرها

د - واقترانه باللام

ولولا شعورهم بارتيا به فيهم . لما احتاجوا إلى كل هذا التوكيد)

وكأنهم يريدون أن يقولوا :

مالك ؟؟! مالك لاتأمنا على يوسف .. والحال أنه لامسوغ لهذا التخوف :

فنحن فى غاية الحب له

وفى غاية الشفقة عليه

ثم إننا جميعا أبناؤك .. لامزية لأحدنا فيك على أحد .. فلماذا الحزن لفراقه والخوف على حياته .. وحده .. من دوننا ؟؟!

(أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون)

قالوا ذلك صادرين عن إحساس بأنه يعلم من حسدهم ما يسوغ ذلك .. يريدون استنزاله عن رأيه :

يقول صاحب الظلال :

(والتعبير يرسم بكلماته وعباراته كل مابذلوه . ليدسوا به إلى قلب الوالد المتعلق بولده الصغير الحبيب . والذى يتوسم فيه أن يكون الوارث لبركات أبيه إبراهيم .

« ياأبانا » :

بهذا اللفظ المؤثر . والمذكر بما بينهم وبينه من آصرة :

" مالك لا تأمنا على يوسف " ؟

سؤال : فيه عتب . وفيه استنكار خفى . وفيه استجاشة لنفى مدلوله من أبيهم . والتسليم لهم بعكسه وهو : تسليمهم يوسف فهو كان يستبقى يوسف معه . ولايرسله مع إخوته إلى المراعى . والجهات الخلويه التى يرتا دونها . لأنه يحبه . ويخشى عليه . " .. وانا له لناصحون) أ.هـ

إنهم يؤكدون إخلاصهم له . والذى بلغ فى الصفاء درجة التشبع .

جواب الوالد

وجاء جواب الوالد المشفق على ولده :

﴿ إنه ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ﴾

وها هو ذا .. كأنما يعتذر عنهم .. ولقنهم الحجة مسجلا فى نفس الوقت صعوبة الموقف من جهتين :

فهو حزين لفراق يوسف أولا : لأنه والده . وثانيا لما يتمتع به من خلق كريم :

إنه قدر يوسف :

كان جميل الخلق

وكان أيضا . جميل الخلق :

فحسدوه : لجمال قلبه .. فألقوه فى الجب ثم لحسن " قالبه " راودته التى هو فى بيتها عن نفسه .

يقول المفسرون :

لقد خاف " يعقوب " عليه السلام من :

أ- الذئب ب- ومن إخوة يوسف ..

وكان عليه أن يخاف فقط " من ربه " وأنه مشمول برعايته سبحانه وتعالى

من صور الخداع

﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولوكنا صادقين ﴾

أى الأصل أننا كاذبون ..

وحتى لو صدقنا .. لما صدقتنا ..

(أرسله معنا غدا يرتع ويلعب ..)

هناك بعض الإخوة :

يسأل عن " البعيد " شوقا ..

ولكنه يهمل " القريب " مع أن له فى عنقه حقين :

أ- حق الرحم ب- وحق الجوار

فأين مفتاح شخصيته ؟

لاشخصية .. فلا مفتاح .. لأنه لوكان منطلقا من قاعدة الأخوة .. لخص القريب بعطفه ..

لكنه : بالعكس .. يخصه بأذاه .إنه ذلك الرجل العابس :

ويبكى ويضحك .. لاحزنا ولافرحا ∴ يعطى ويمنع .. لابخلا ولاكرما

وإنما هو العبث .. الذى يهدر قيمة الأعمال .

قتل الإنسان

إنها طبيعة الأقران وبخاصة الإخوة الذين يرمون إلى هدف واحد ..

ومن ثم يتزاحمون عليه ..

ومن أجل ذلك يتدافعون إليه بالمناكب !!

وأحيانا .. يكون التدافع بالسلاح .. يحصدون بها الأرواح !!

وجاءت ساعة الصفر!

يقول الله عز وجل :

﴿ فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾ ١٥

وبدأ تنفيذ المؤامرة الماكرة ، وهاهم أولاء يجمعون على أن يتخلصوا منه بعد ما ترددوا من قبل .. لقد قلبوا له ظهر المجن :

(قال السدى :

إن يوسف عليه السلام لما برز مع إخوته . أظهروا له العداوة الشديدة ؛ وجعل هذا الأخ يضربه .. فيستغيث بالآخر فيضربه . ولا يرى فيهم رحيما .. فضربوه حتى كادوا يقتلونه وهو يقول :

يا يعقوب : لو تعلم ما يصنع بابنك) ؟!!!

وهى نفس الاستغاثة التى خطها يراع الكاتب القائل :

(أنا يوسف يا أبى . يا أبى ، إخوتى لا يحبوننى ، لا يريدوننى بينهم يا أبى . يعتدون على ويرموننى بالحصى والكلام . يريدوننى أن أموت لكى يمدحونى . وهم أوصدوا باب بيتك دونى . وهم طردونى من الحقل . هم سمموا عنبى يا أبى . وهم حطموا لعبى يا أبى . حين مر النسيم ولاعب شعرى غاروا وثاروا على وثاروا عليك ، فماذا صنعت لهم يا أبى ؟

الفراشات حطت على كتفى ، ومالت على السنابل ، والطير حطت على راحتى . فماذا فعلت أنا يا أبى ، ولماذا أنا ؟ أنت سميتنى يوسفا ، وهمو أوقعونى فى الجب ، واتهموا الذئب ؛ والذئب أرحم من إخوتى .. أبت ! هل جنيت على أحد عندما قلت إنى : رأيت أحد عشر كوكبا ، والشمس والقمر ، رأيتهم لى ساجدين؟) أ.هـ

ولاحظ من فقه الآية الكريمة ما يلى :

لقد كانوا من قبل يصرحون باسمه .. لكنهم .. وعند حافة البئر يعبرون عنه بالضمير :

(أن يجعلوه)

لقد صار فى حسهم أثرا بعد عين .. وتحققت أمنيتهم الكبرى يوم أن ذهب إلى حيث لايعود الذاهبون ..

ما الذى فعله يوسف حتى يلاقى هذا الهوان .. وتسلب حياته فى مقتبلها؟!!

لاشيئ ...

وكم من عائلات .. وكم من إخوة .. يلتمسون لأخيهم المعايب .. وكان عليهم حتى لو كان فيه عيب أن يستروه .. وفى ستره .. سترلهم ..

ولكنهم من فرط حقدهم .. قتلوه . بإلقائه فى الجب ..

ولكن الله عز وجل .. لم يكن ليجعل لشياطين الإنس على الأبرياء سبيلا .. فجاء قوله عزوجل .. وفى نفس الآية ..

﴿ وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون ﴾

وسوف يتبادلون المواقع .. عندما يقفون بين يديه أذلاء صاغرين .. فى موقف لايحسدون عليه .

ظلم الأقرباء

إنه مزيد من التعجب .. فمزيد من الصبر حين ترى كثيرا من الأقرباء يبغى بعضهم على بعض وبعد ما كان " القريب " يسعد عائلته أينما ذهب .. إذا به اليوم ..

يسعدهم .. لو أنه ذهب !

إلى الحد الذى قيل :

اللهم احفظنى من قريبى .. أما عدوى فأنا كفيل به :

لأننى أستطيع أن أتحرز من عدوى .. ولا أقدر أن أتحرز من قريبى !!

لقد تغير كل شئ :

ومع أن الدُّور .. والدروب كما هى .. وأن القوالب كما هى .. إلا أن القلوب تغيرت تماما :

وأرى خيام القوم مثل خيامهم ∴ وأرى نساء القوم غير نسائهم

والنتيجة هى :

التفكك العائلى .. بعد ما صار الأمر على ما قيل :

لا أذود الطير عن شجر ∴ قد بلوت المر من ثمره

إن القريب الذى لاتنفعك حياته .. لايضرك موته :

فلا هو مكسب إذا عرفته ولا هو خسارة .. إذا لم تعرفه

ويصير الأمر على ماقيل :

إذا لم يكن للمرء فى دولة امرئ ∴ نصيب ولاحظ .. تمنى زوالها !

ولكننى مازلت أذود الطير عن شجر قد بلوت المر من ثمره .. وما تمنيت زوالهم أبدا ..

ومازلت أدفع عن دولتى .. عن أمتى !

وما أسفى على الدنيا ولكن : على إبل : حداها غير حاد

مؤذنها .. تركى

وخطيبها .. هندى

وحاميها .. حراميها !!

ورحم الله أيام زمان :

شتم رجل الأحنف بن قيس :

حتى إذا بلغ مشارف قبيلته التفت إلى الشاتم قائلا :

إن كان قد بقى عندك شئ فقله الآن حتى لايمزقك شباب عائلتى !!

دموع التماسيح

يقول الله عزوجل :

﴿ وجاءوا أباهم عشاء يبكون . قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين . وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون ﴾ ١٦ - ١٨

ولأن الصب تفضحه عيونه .. فقد جاءوا بالليل حتى لاينكشف أمرهم .. لقد علموا من سلامة فراسة أبيهم وصدق حدسه مايفضحهم .. فقرروا المجئ متدثرين بظلمة الليل ..

ولكن هل نجحت الخطة ؟! أبـــداً !!

ذلك بأن ثوب النفاق يشف عما تحته

فإذا التحفت به .. فإنك عار ..

ولقد عروا أنفسهم فعلا :

فأين هو ذلك الذئب الحليم الذى أكل يوسف .. ولم يمزق قميصه ؟!

والدم المكذوب شاهد آخر عليهم يؤكد أنهم من الكذب فى الدرك الأسفل؟.. بل إنهم شهدوا على أنفسهم بما معناه :

الأصل أننا كذابون .. ولو حدث وصدقنا .. لما صدقتنا !

ولاحظ أنهم يقولون أكله الذئب :

أولا : ينقلون نفس ما توقعه أبوهم (وأخاف أن يأكله الذئب)

وثانيا : قال الخطابى :

إن الافتراس معناه فى فعل السبع : القتل فحسب . وأصل الفرس : دق العنق .

والقوم إنما ادعوا على الذئب أنه أكله أكلا . وأنه أتى على جميع أجزائه وأعضائه فلم يترك مفصلا ولا عظما .

وذلك : أنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر باق . يشهد على صحة ماذكروه . فادعوا فيه الأكل . ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة .

والفرس لايعطى تمام هذا المعنى .

فلم يصلح على هذا أن يعبر عنه إلا بالأكل

على أن لفظ الأكل شائع فى استعمال الذئب وغيره من السباع) (١)

ولم تنجح حملة التضليل فى إخفاء الحق .. ولابد أن يترك المجرم بصمته على جريمته ومهما تكلف الذكى واحتال .. فإن الذكاء يخون أهله وها هو ذا يعقوب عليه السلام يعالنهم بأنهم كاذبون .. وأن الذئب برئ من دم يوسف..

وأن أمرا خطيرا زينته لهم أنفسهم .. فطاوعوها ..

ولقد كانت الصدمة عنيفة حقا :

فيوسف أحب أولاده إليه ..

ثم إن الفاعل أبناؤه (فإذا رميت أصابنى سهمى) وإذا فالمحنة مضروبة فى اثنين !!

وليس إلا الصبر الجميل .. نواجه به المحنة الضاغطة :

(فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون)

وهكذا : إذا فدح المصاب . وعظم الخطب .. كان الصبر هو طوق النجاة ..

---

(١) عن التفسير القرآنى د. محمد رجب البيومى ١٣٧

وبخاصة عندما تجيئك القذيفة من منطقة الأمان .. وبخاصة من الإخوة الذين كانت سماؤهم محرقة . وبحورهم مغرقة .

لقد توسل إليهم أن يتركوه .. فلا يلقوه فى البئر .. ولكن .. كان توسله صرخة على أجنحة الهواء .. وفوق أمواج المحيط :

فلقد انقطعت الحبال عندئذ بين عقولهم وقلوبهم .. فلم تنفعل بل (تبلدت قلوبهم . فلم تحس وانعقدت ألسنتهم .. فلم تنطق وأشربت نفوسهم حب الكيد الصامت : فهى تكيد .. لكنها لاتقول .. وإنما فقط تستدعى دموع التماسيح فى حركة مضللة .. تخفى من ورائها ذلك الكيد العظيم .

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى

وصـــوت إنســـان فكـــدت أطير

وهو درس بليغ فى الاصطبار مهما كانت أحجام الأخطار .. على الأقل لترى أعداءك من نفسك قوة ..

والرجل الحصيف .. المكيث .. يتخذ من الصبر ركوبا مؤكدا هذه الحقيقة:

(فمن كانت بدايته محرقه .. كانت نهايته مشرقة)

تماما كالدواء يكون مرا .. ثم وبالشفاء تكون عاقبته خيرا

وبين هذه البداية .. وتلك النهاية أحوال وأهوال .. يصفها الشاعر فيقول :

صابر الصبر ... فاستغاث به الصبر ⁖ فقال الصبور ... ياصبر صبرا

إن الصبر نفسه يستغيث بهم .. على ماكان من مصابرتهم .

وتقدرون فتضحك الأقدار !

يقول الله عز وجل :

﴿ وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يابشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون . وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين . وقال الذى اشتراه من مصر لا مرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾ ١٩ - ٢١

رب ضارة نافعة :

فقد يستحكم البلاء . وتتشابك حلقاته .. ثم تضيق به النفوس ذرعا .. وفجأة .. وعلى غير ميعاد يجئ الفرج .. لأن النوائب إذا توالت .. تولت ..

تولت لتخلف من ورائها من الفوائد مالم يكن متوقعا :

ومن هذه الفوائد :

مايرجع إلى المبتلى .. حتى يسلو .. ومن لم يبتل .. حتى يستعد لمثل هذا البلاء .. ويهيئ نفسه لاستقبال وارداته .

وياله من بلاء : أن يجد الحر نفسه فى سوق النخاسة تحت رحمة الجشعين ؟

الجشعين الذين يطوون قلوبهم على هذا الحقد .. ثم يتحدثون عن الحرية . والسلام . وكرامة الإنسان ..

الإنسان الذى خلقه الله حرا .. يستعبد اليوم ؟!!

ولقد عبروا عن خبيئة نفوسهم لما باعوه (بثمن بخس دراهم معدوده)

فلم يغالوا فى ثمنه .

مما يؤكد أن الأنانية . والبخل كلاهما قد يدفع إلى ارتكاب الجرائم ولو كانت الجريمة أن يقتل المرء أخاه وعندئذ .. فلا حيلة

ولو أن هذا الموت يقبل فدية ∴ شريت أبازيد بما ملكت يدى

ألا (إن الملتقط للشئ متهاونا به : لايبالى بم باعه : ولأنه يخاف أن يعرض له مستحق له ينتزعه من يده .. فهو يبيعه من أول مساومة وبأوكس ثمن)

﴿ وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه .. ﴾

ومن هذا الباب : تهب رياح الفتنة :

باب التراخى . فى علاقة الرجال بالنساء . وما لغريزة الجنس من ضروة تجعلها : عمياء .. لا ترى .. صماء لاتسمع

ولاحظ أن الآية الكريمة تقول :

﴿ لا مرأته ﴾ ولم تقل (لزوجته)

فقد كانت مجرد " أنثى " لايعنيه أمرها ؟!

وإلا .. فلو أحس بأنها زوجته .. لكان حماها من هذا الخطر المحدق به وبها .. فهذا " الشبل " غدا يكون أسدا ؟!

وأحيانا .. يرى الأعزاء من الصغار الأطهار .. أحيانا يرون مالايجوز أن يرى .. ويسمعون مالا ينبغى أن يسمع .. ثم يشبون عن الطوق .. فتكبر معهم انطباعات ما رأوا .. وما سمعوا .. فإذا هم خلق آخر .. وقد كانوا من قبل كالملائكة !

والزوجة كذلك .. قد تفرض عليها معركة كان من الممكن ألا تكون طرفا فيها ..

أجل .. قد تفرض من الزوج المتساهل .. والذى قد يثور ولكن بعد فوات الأوان !!

(وهنا يقف السياق . لينبه إلى أن هذا التدبير من الله :

وبه . وبمثله قدر ليوسف التمكين فى الأرض .

وها قد بدت بشائره بتمكين يوسف فى قلب الرجل وبيته . ويشير إلى أنه ماض فى الطريق . ليعلمه الله من تأويل الأحاديث . ويعقب السياق على هذا الابتداء فى تمكين يوسف . بما يدل عليه أن قدرة الله غالبة : لاتقف فى طريقها قوة . وأنه مالك أمره .

ومسيطر عليه : فلا يخيب . ولايتوقف . ولايضل) أ . هـ

ومن تدبير الله عز وجل أن (الرجل الذى اشتراه من مصر .. قد ضمه إليه. واتخذه ابنا له . (إذ لم يكن له ولد)

ودعا امرأته إلى أن تكرمه ، وتتولى تربيته . وتنشئته . على أنه ابنها .

وهكذا يجد يوسف فى مصر أهلا بدل أهله . وأبا وأما مكان أبيه وأمه .

وهكذا صنع الله ليوسف) أ . هـ

ومن صنعه سبحانه وتعالى أن نزل فى مصر سهلا .. ووجد من أبنائها أهلا :

يقول صاحب المنار :

(وعلى هذا النحو من التدبير والتسخير جعلنا ليوسف مكانة عالية فى أرض مصر :

كان هذا العطف عليه والرجاء فيه .. من هذا العزيز .. ليقع له فى بيته . وفى السجن مايقع من التجارب . والاتصال باقى الملك . فيكون وسيلة للوصول إليه « ولنعلمه من تأويل الأحاديث »: كتعبير الرؤيا ومعرفة حقائق الأمور ما ينتهى به إلى الغاية من هذا التمكين ..

" ولكن أكثر الناس لايعلمون "

لايعلمون أنه تعالى غالب على أمره .. بل يأخذون بظواهر الأمور أ.هـ

ومن ثم .. فهم يحكمون متسرعين .. وبلاتدبر وتأمل .. بل يقفزون فوق الأحداث قفزا لا يدركون به أن الله تعالى غالب على كل أمر . وأن الحكم له وحده ، وهكذا : كل من شغل نفسه برؤية الأسباب لا يتمكن من إدراك حكمة بسبب هذه الأسباب !

ولو أنهم تأملوا لظهر لهم من حكمته عز وجل :

﴿ أمر يعقوب يوسف عليهما الصلاة والسلام ألا يقص رؤياه حذرا عليه من إخوته .. فغلب أمره سبحانه حتى وقع ماحذره .

فأراد إخوته قتله .. فغلب أمره - سبحانه - عليهم .

وأرادوا أن يلتقطه بعض السيارة . ليندرس اسمه .. فغلب أمره سبحانه . وظهرا اسمه واشتهر .

ثم باعوه ليكون مملوكا . فغلب أمره تعالى حتى صار ملكا وسجدوا بين يديه .

ثم أرادوا أن يغروا . ويطيبوا قلبه حتى يخلو وجهه لهم .. فغلب أمره تعالى فأظهره على مكرهم .

واحتالت عليه امرأة العزيز لتخدعه عن نفسه .. فغلب أمره سبحانه فعصمه) أ . هـ

وهكذا كان الأمر على ما يقول الشاعر :

وإذا العناية لاحظتك عيونها

نم .. فالمخاوف كلهن أمان

وإذا كان الله عزوجل ينصر هذا الدين بالرجل الفاجر .. سخرية منه.

فإنه عزوجل ينصر المستضعف بعدوه ..

عدوه الذى يبالغ فى الكيد .. ولكن " العدسة الخفية " ترقبه : ثم تعاتبه .. بل تحاسبه .. بل تعاقبه ..

ليكون حزينا مرتين :

مرة .. لنجاة خصمه ..

ومرة .. لأنه كان سبب هذا النجاح .. من حيث لا يحتسب

ومن تدبير الله عزوجل :

أن يخرج العزيز إلى السوق ..

وبالذات .. فى الوقت الذى كان يباع فيه .. ثم اشتراه .. وألقى الله عليه محبته .. فأحبه " العزيز " حبا حمله على أن يوصى امرأته به :

(أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا)

ومن وراء ذلك كله تدبير الله عـزوجل . (.. وكـذلك مكنا ليـوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون .

ولما بلغ اشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين)

ولما كان يوسف عليه السلام محسنا .. فقد أعطاه أجر المحسنين .. من حيث أراد إخوته .. وأراد ربه عزوجل .. فكان ما أراده الله تعالى . وبطل السحر والساحر !

امرأة العزيز:
استثناء من القاعدة

يقول الله عز وجل :

﴿ وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون ﴾ يوسف ٢٣

تمهيد

بين يدى الحديث عن امرأة العزيز .. والتى أساءت بتصرفها إلى جنس النساء .. لابد من بيان أمر مهم وهو أن طبيعة المرأة ليست هكذا .. وإلا ففى النساء من تشرف بهن النساء :

السيده " سارة " والتى لقنت " الجبار " درسا فى العفة لاينساه ..

وهند بنت عتبة .. زوجة أبى سفيان والتى قالت : (هذا شئ نستقبحه حلالا .. أفنفعله حراما) ؟؟!!

وهذا مما حدا الشاعر الذى يقول :

ولو كان النساء كمثل هذه

لفضلت النساء على الرجال !

أما امرأة العزيز .. فقد كانت الشذوذ من هذه القاعدة : فماذا كان من أمرها .. وفى ضوء الآية الكريمة: لقد قال لها العزيز

(أكرمى مثواه)

ولكنها نظرت إليه بعين غير عين زوجها .. وأرادت منه .. غير ما أراد :

لقد أراده أميرا .. وأرادته عشيقا ..

ولقد طالت مدة مكثه فى القصر غلاما .. ولاشك أنها رأت من طهارته وإبائه ما أغاظها .. فقدرت الوصول إلى رغبتها بالمراودة . بالمراوغة .. معتصمه بالكيد .. وإن كيد هن لعظيم !

إن من شأن المرأة أن تكون مطلوبة ، لاطالبة .. مراودة - بالفتح - لامراودة - بالكسر !

ولكن امرأة العزيز تكسر هذه القاعدة الفطرية .. وتراود هى وتطلب هى .. وبإلحاح .. فلعل وعسى :

تراود : تذهب وتجئ .. مثلما يفعل المخادع .. الذى يراود الضحية بالمنطق المعسول ! .. رغبة فى أن يواقعها !

(وغلقت الأبواب) كل الأبواب :

الأبواب الكثيرة..

والتى بالغت فى إيثاقها .. ليطمئن .. حتى يفعل ما تريد !

ولقد كانت الرغبة عتيقة حين أنطقتها لتقول : (هيت لك)

أنا .. سيدة القصر .. الذى أنت فيه مشمول بسلطانى ..

أنا .. لك وحدك .. فأسرع إلى امتثال أمرى (وهنا تبدو صورة من " المجتمع الجاهلى " : رخاوة فى مواجهة الفضائح الجنسية . وميل إلى كتمانها عن المجتمع)

قال يوسف :

(معاذ الله)

ثم قال : (إنه ربى أحسن مثواى)

ثم قال : (إنه لايفلح الظالمون)

وهذه أسمى طريقة إلى تنبيه ضمير المرأة فى المرأة : إذ كان أساس ضميرها فى كل عصر هو : اليقين بالله . ومعرفة الجميل . وكراهة الظلم .

ولكن هذا التنبيه المترادف ثلاث مرات . لم يكسر من نزوتها . ولم يفثأ تلك الحدة :

فإن حبها قد انحصر فى فكرة واحدة اجتمعت بكل أسبابها :

فى زمان . فى مكان . فى رجل :

فهى فكرة محتبسة كأن الأبواب مغلقة عليها أيضا . ولذا بقيت المرأة ثائرة)

أما هو فكان له حساب آخر :

لقد غلقت الأبواب : يعنى :

هيأت الجو للمعصية .. حتى يكون الشيطان ثالثهما .. فهذا أوان حضوره..

ولكنه استعان بالله عزوجل .. فأعانه ببرهانه تعالى مدركا مايلى :

لقد كان بالأمس فى الجب المظلم ..

واليوم هو : فى القصر المنيف ..

فلم يكن ليجعل من شكر نعمة سيده أن يخونه !!

منطلقا من هذا المبدأ :لاينبغى الاجتراء على معصية الله تعالى .. فإنه سبحانه لايقر عباده على موجبه ولقد أهلك أمة عظيمةمن أجل ناقة قيمتها : ثلاثمائة درهم . وهى ناقة الله التى عقرها " قدار بن سالف

ولكن : أين ملكها . وسطوة ملكها ؟! فى تصوير الآية الكريمة ؟

لم تزد الآية على أن قالت : (وراودته التى)

يقول الرافعى :

و " التى " هذه : كلمة تدل على كل امرأة كائنة من كانت .. فلم يبق على الحب ملك ولا منزله .. وزالت الملكة من الأنثى يعنى لم يبق منها إلا كتلة اللحم الفائرة والتى تعرض نفسها فى ابتذال !

ثم يقول :

(... وأعجب من هذا كله " راودته " وهى بصيغة المفردة حكاية طويلة تشير:

إلى أن هذه المرأة جعلت تعترض يوسف بألوان من أنوثتها : لون بعد لون .

ذاهبة إلى فن . راجعة من فن :

لأن الكلمة مأخوذة من " رودان الإبل " فى مشيتها : تذهب .. وتجئ .. فى رفق .

وهذا يصور حيرة المرأة العاشقة واضطرابها فى حبها . ومحاولتها أن تنفذ إلى غايتها :

كما يصور كبرياء الأنثى : إذ تختال . وتترفق .فى عرض ضعفها الطبيعى : كأنما الكبرياء شئ آخر غير طبيعتها :

فمهما تتها لك على من تحب . وجب أن يكون لها فى نفس الوقت : مظهر امتناع . أو مظهر تحير واضطراب .

وإن كانت الطبيعة من وراء ذلك مندفعة . ماضية مصممة)

انتصار الإرادة المؤمنة

﴿ وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لايفلح الظالمون ﴾ ٢٣

فى تعليق « للرافعى » على الآية الكريمة :

(.... ثم قال : " عن نفسه " :

ليدل على أنها لاتطمع فيه .. ولكن فى طبيعته البشرية :

فهى تعرض ماتعرض لهذه الطبيعة وحدها :

وكأن الآية مصرحة فى أدب سام كل السمو منزه غاية التنزيه بما معناه :

" إن المرأة بذلت كل ماتستطيع فى إغرائه :

مقبلة عليه . ومتدللة . ومتبذلة ! ومنصبة من كل جهة : بما فى جسمها وجمالها على طبيعته البشرية .. وعارضة كل ذلك عرض امرأة خلعت - أول ما خلعت - أمام عينيه : ثوب الملك)

ثم قال :

(وغلقت الأبواب) ولم يقل " أغلقت " :

وهذا يشعر أنها لما يئست . ورأت منه محاولة الانصراف .

أسرعت فى ثورة نفسها . مهتاجة : تتخيل القفل الواحد أقفالا عدة .

وتجرى من باب إلى باب . وتضطرب يدها فى الإغلاق .

كأنما تحاول سد الابواب .. لا إغلاقها فقط .

وقالت " هيت لك " .. ومعناها فى هذا الموقف :

أن اليأس قد دفع بهذه المرأة إلى آخر حدوده :

فانتهت إلى حالة من الجنون بفكرتها الشهوانية .

ولم تعد : لا امرأة .. ولا ملكة !

بل أنوثة حيوانية صرفة ! متكشفة .. مصرحة .

كما تكون أنثى الحيوان فى أشد اهتياجها وغليانها .

وهذه ثلاثه أطوار : يترقى بعضها من بعض .

وفيها طبيعة الأنوثة نازلة من أعلاها إلى أسفلها .

فإذا انتهت المرأة إلى نهايتها . ولم يبق وراء ذلك شئ تستطيعه أو تعرضه .. بدأت من ثم عظمة الرجولة السامية . المتمكنة فى معانيها)

(لقد استطاع هذا العبد العبرانى الخارق للطبيعة البشرية فى حسنه وجماله .. وفى جلاله وكماله .. استطاع أن يعكس القضية :

فخرق نظام الطبيعة . والعوائد بين الجنسين :

فأخرج المرأة من طبع أنوثتها فى إدلالها وتمنعها .. وهبط بالسيدة المالكة من عزة سيادتها وسلطانها .

ودهور الأميرة من عرش عظمتها وتكبرها . وأذلها لخادمها وعبدها :

حتى إنها لتراوده عن نفسه فى مخدع دارها . فيصدعنها علوا ونفارا .

ثم تصارحه بالدعوة إلى نفسها فيزداد عتوا واستكبارا . معتزا عليها بالديانة والأمانة . والترفع عن الخيانه . وحفظ شرف سيده . وهو سيدها وزوجها . وحقه عليها أعظم .

إن هذا الاحتقار لايطاق . ولاعلاج لهذا المتمرد إلا تذليله بالانتقام)[1]

---

(١) تفسير المنار، للشيخ رشيد رضا .

صعوبة الابتلاء

ولقد كان الامتحان عسيرا .. ولكن الفتى المؤمن .. اقتحم عقباته بنجاح :

قال :

﴿ معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لايفلح الظالمون ﴾

وكأنما يقول لها :

لا أخون سيد القصر الذى أحسن مثواى .. لاأجعل من رد جميله أن أخونه فى أهله ..

بل لا أعصى الله عزوجل .. وهو الذى أحسن إلىّ أولا وأخيرا : لاأجعل من شكر النعمة سوء استعمالها : إن ذلك ظلم .. والظالمون لايفلحون .

عمق الابتلاء

ولكى نعرف مذاق الانتصار هنا .. فى هذا الامتحان العصيب فإن علينا أن ندرك حجم الابتلاء .. الذى كان مجموعة من العقبات التى اقتحمها الفتى .. فنجا به إيمانه وتقواه :

١- إن يوسف شاب تغلى عروقه بفورة الشباب .

٢- يواجه امرأة : أنثى .

٣- وأنثى على غاية مايكون الجمال

٤- ثم هو فى بيتها : فى مملكتها .. فهى متمكنة منه :

٥- وطالما وعدته .. وأوعدته .

ومع كل هذه الضغوط .. فقد نهض من تحتها بإرادته المؤمنه المشمولة برعاية الله تعالى وعنايته فكان من عباد الله تعالى والذين يخشون ربهم فى

الخلوات والجلوات .[١]

(لقد كان يعيش معها وقوته وفتوته تتكامل ؛ وأنوثتها هى كذلك تكمل وتنضج .

فلا بد كانت هناك اغراءات شتى ؛ خفيفة لطيفة . قبل هذه المفاجأة الغليظة العنيفة)

ولكنه انتصر عليها .. وتحطم كيدها بددا .. أمام عزيمته الماضية ..

وبينما كانت تنحدر هابطة .. كان هو يعلو صاعدا .. فبدا متربعا فوق القمة العالية .. بينما هى تتدحرج على السفح الوطئ) !

---

(١) وحى القلم ١ / ١٠٤ وما بعدها ط دار الفكر العربى .

مـن حكـم البـلاء

يقول الله عزوجل :

﴿ وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لايفلح الظالمون ﴾ ٢٣

البلاء واستدعاء البلاء :

إذا كان البلاء والابتلاء سنة الله فى خلقه ومعيارا لفرز الصابرين من غيرهم ، وتربية للمؤمنين ، ونعمة وإكراما منه تعالى إليهم فلا يعنى ذلك أن يطلب المؤمن الابتلاء ويستدعيه من غير حاجة ملزمة شرعا ، بل الصحيح أن يدفعه عن نفسه بقدر ما يستطيع ، فإذا عجز صبر واحتسب .

وعن أنواع الابتلاء يقولون : « .. الابتلاء كسنة ربانية ماضية فى الحياة ، لايقتصر فقط على الابتلاء بالفتن والحمم المصحوبة بالآلام والمنغصات ، بل يشمل كذلك الابتلاء بالنعمة ، سواء كانت صحة مكتملة ، أو مالا وفيرا ، أو علما غزيزا أو جاها عريضا ، أو سلطانا مكينا .. وهذا اللون من الابتلاء هو أخطر أنواع البلاء على الإنسان » (ص ١٢١).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية بشأن شدة الصبر على النعمة ، حيث قال : « كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها ، أكمل من صبره على إلقاء إخوته له فى الجب ، وبيعه ، وتفريقهم بينه وبين أبيه ، فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره ، لا كسب له فيها ، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر ، وأما صبره عن المعصية : فصبر اختيارا ورضا ، ومحاربة للنفس ، ولا سيما مع الأسباب التى تقوى معها دواعى الموافقة ، فإنه كان شابا ، وداعية الشباب إليها قوية ، وعزبا ليس له ما يعوضه ، ويبرد شهوته ، وغريبا ، والغريب لا يستحى فى بلد غربته ، مما يستحى منه بين أصحابه ومعارفه وأهله ، والمملوك أيضا ليس وازعه كوازع الحر . والمرأة جميلة ، وذات منصب ، وهى سيدته ، وقد غاب

الرقيب ، وهى الداعية له ، والحريصة على ذلك أشد الحرص ، ومع ذلك توعدته إن لم يفعل بالسجن والصغار.

ومع هذه الدواعى كلها : صبر اختيارا وإيثارا لما عند الله ، فأين هذه من صبره فى الجب على ما ليس من كسبه »

ومن الحب ما قتل !

يقولون :

إن « الحب » هو ديدن الحياة المستمر:

حب الإنسان أمه .. طفلا

وحب الزوجة .. رجلا

وحب البنين والحفدة .. شيخا

ثم حب الإخوة والأقارب .. ودائما

ولكن : قد يفرط الحب .. فيقتل صاحبه أو يؤذيه على الأقل :

إن الفتى « يوسف » شاب صالح .. ولكن النار إلى جانب الوقود .. تفرض مزيدا من الحذر

ولا حذر يجرى ما دام فى البيت مختلطاً بسيدة البيت :

(ما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما)

سنة بشرية لاتتخلف .. نطق بها من لاينطق عن الهوى .. وإذن .. فماذا يفعل فتى .. يتفجر حيوية :

يحس بعواطف .. بل بعواصف راعدة توشك أن تمزقه :

ومع كل هذه الضغوط فقد تأبى عليها .. مما زاد فى عنادها :

وكلما تكررت محاولاتها .. كما زادها جفاء .. وكلما وجدت نفس الصمود ..

أجل لقد أثارته هى .. ليبدأ هو .. ولكنه صمد

فحاولت اغتصابه !!

ضاربة عرض الحائط بقوانين النفس الإنسانية ،

ثم إن الضال الحقيقى هو كل من سمح بهذا الاختلاط الذى كان من وراء ماحدث :

قد يكون فى كيان المذنب رغبة فى الخير .. فلماذا لانمهد له طريق العود الحميد إلى الصف المؤمن تائبا ..

ولقد قرأت أن « الظعينة » التى كلف على رضى الله عنه بملاحقتها .. كانت مغنية !

ومع ذلك فقد أمرته بالابتعاد عنها .. حتى لايرى عورتها ؟!

وإذن .. فالعفة موجودة مركوزة فى داخل الإنسان . مهما كان موقعه .. وقد قرر الناقدون أن ٩٩٪ من الفنانات راغبات فى العود إلى البيت فرارا من الجو المشحون بالإثارة ولكن الوضع الاقتصادى يمنعهن من تحقيق هذه الأمنية العظمى !!

بل لقد قرأت أن الممثل « فريد شوقى »

يقول :

إنه لم يجلس على « قهوة » قط وأنه يقترح :

إنشاء قناة « تليفزيونية » لإذاعة القرآن الكريم وعلومه .

وهنا نقول لبعض المتسرعين الهجامين : إن للحق جنودا يخدمونه .. منهم : المبطل فى ساعة يكون فيها صادقا مع نفسه ..

وليس هذا تحريضا على المعاصي .. ولكنه : رفض للتشفي في المذنب . وعدم الإشفاق عليه .

ونعوذ بالله أن نقف عند رؤية البصر .. غافلين عن نظرة البصيرة :

صعوبة الامتحان

عبر القرآن الكريم عن سيدة القصر بقوله تعالى : ﴿ .. التى ﴾

وذلك يعنى - كما يقول الرافعى :

أنها عندئذ كانت " أنثى " صرفه : فى ذروة الشهوة .. التى تسلطت فيها غريزة الجنس .. كالثور الهائج .. بلا رادع ..

فإذا أضفت إلى ذلك قوة تأبيه .. وإصرار دفعها عنه - بدليل تمزق القميص (وهو قميص خادم القصر : فهو جديد قوى) ؟!

ثم قولها :

هيت .. لك :

لك أنت بالذات ..

إذا تصورنا هذا تبين لنا إلى أى حد كانت المدافعة وكانت الممانعة !

وصار أمرها على ماقال الشاعر :

وكنت فتى من جند إبليس . فارتقى

بى الحال حتى صار إبليس من جندى

إذا مات قبلى كنت أحسن بعده

خلائق سوء ليس يحسنها بعدى !

ومن الحب .. ماقتل !

يقول الله عز وجل

﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ ٢٥

تمهيد

عبر محطة إذاعية - ومن بلد عربى إسلامى - سمعت أذناى من تقول : يزعمون أن المرأة نصف المجتمع .. والحق أنها كل المجتمع ؟!

ثم استطردت فى تأييد دعواها قائلة :

إنها الأخت . والأم . والزوجة . والبنت . والصديقة و " العشيقة " ؟!!

وقلت : إن مع الأخت " أخا " ومع الزوجة " زوجا " ومع الأم أبا .. ومع البنت ابنا .. فلماذا نسقط الرجال من الحساب ؟؟

على أى حال . لو سلمنا بوجهة نظرها .. لكان على الرجال أن يطلبوا المساواة بالنساء .. وليس الأمر بالعكس !!

ثم .. إن ذلك .. لو كان مقبولا .. جدلا على الأقل .. فإن قولها :

"العشيقة " غير مقبول وغير معقول !! لأنه امتهان للمرأة .. حين نقر "عشقها " .. ابتذالها .. وتقديم لحمها الطرى للهر الجائع !!

وقل معى : ماذا أنت قائل : عندما يصبح الحال محالا .. ويحاول القبح أن يغلب الجمال ؟ :

عندما تهبط أسهم العقلاء .. عندما تحاول الشطارة أن تغلب المواهب ؟!

عندما تحاول القذارة هزيمة الطهارة ؟!!

نذكـر هذا ونحن نتـأمل مـوقف امـرأة العـزيز هنا .. وكـيف تتـسلح بكل ماتملك من دهاء وحيلة وسلطان .. فى محاولة لتعكير النبع الرائق ؟

إنه الذئب المفترس يعيث فسادا فى أرض الطفولة البكر :

أطفـال : كـأنهم الملائكة تمشى على الأرض .. تسـتـدرجـهم عـاهرات استداراجا يثير فيهم غرائزهم .. فإذا هم ضحايا تلكم البغايا !!

لقد تكلمت امرأة العزيز .. فأعلنت عن رغبتها سافرة داعرة ..

أما اليوم :

فهى صامتـه .. ولكن فى تدبيـر يراد به التـدميـر . فكانت أشد فسـادا من امرأة العـزيـز .. وقـد نصب جـام غـضبنـا على أولادنا والمجـرم الحقيـقى من خلف الستار !

وأين سبب الانحراف

سبب هذا الخلل فى بنية المجتمع هو :

الاختلاط

هذا الاختلاط الذى يتجاهل د. عبدالعظيم رمضان " آثاره فيقول :

لافرق بين عارية .. ومحتشمة :

الكل سواء ..

والنظافة وغيرها من صنع المشاهد الذى يخلع باطنه على المشاهد ؟!

المجتمع كله منحرف .. بدليل قوله تعالى على لسان يوسف :

(وإلا تصرف عنى كيدهن)

ويذكرنا ذلك بالإمام الغزالى .. حين سمع مناديا ينادى قائلا :

" ولدتائه " يا أولاد الحلال .. فقال له .

بل قل :

أمة تائهة !!

أجل : إنه مجتمع ضال تائه .. حين كان " العشق " حقا من حقوق المرأة فى عصر التنوير !! ومن الحب ماقتل !

قالت عليه بنت المهدى العبّاس :

تحبب فإن الحب داعية الحب :

فالحب أقوى غرائز البشر .. وأكبر مايفتن الرجال بالنساء .. والنساء بالرجال ..

وإن من الحب لكاذبا وصادقا ..

وإن من العشق لعذريا عفيفا .. وشهويا فاسقا) المنار

ويبقى الاحتياط من هذا الاختلاط :

ويبقى واجبا مفروضا .. فرارا من آصاره وأخطاره ..

وإلا .. فإن التسا هل مفض إلى مالاتحمد عقباه بعدما تقاربت الأنفاس .. بتحريص من الوسواس الخناس :

وقد قيل فى ذلك :

(قرب الوساد . وطول السواد):

والسواد - بالفتح - شخص الإنسان ..

وبالكسر : مصدر ساوده : إذا ساره فقرب سواده من سواده .

أى : شخصه من شخصه :

والكلمة لابنة الخض :

اعتذرت بها عن نفسها .. بعد أن فتنت .. فقيل لها : لم ؟ وأنت سيدة قومك ؟ فقالتها فأرسلتها مثلا يجب أن يعتبر به الذين يتساهلون فى السماح لنسائهم بالخلوة بالرجال من الخدم .. فضلا عن غيرهم) المنار

مثال :

إنه (إذا ابتلى النساء بالحب .. أظهرن مايعجز عنه إبليس .. مع مساعدة الطبيعة للميل الهين وقوة المناسبة بين الرجال وبينهن . كما يشير إليه قوله تعالى ﴿ خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ﴾ فما فى العالم فتنة أضر على الرجال من النساء .. وتأمل قوله تعالى :

﴿ وقطعن أيديهن ﴾ لتعلم أن الإنسان قد يصل من المحبة إلى مقام لايحس فيه بألم : استغراقا فى المحبة التى تصيرنا عبيدا . ولنجتهد فى محبة الله ورسوله التى تصيرنا ملائكة أطهارا ﴾[1].

كان من المخلصين

فصار منا لمخلصين

يقول الله عزوجل:

﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ ٢٥

يقول صاحب المنار

(إن أعظم مزايا البشر فى قوة الإرادة :

فلولاها لكان الإنسان كالحيوان الأعجم : عبد الطبيعة .

---

(١) من مقال للشيخ يوسف الدجوى . (٢) المنار.

ولذلك .. كانت المراودة احتيالا .. لتحويل الإرادة . وجعلها خاضعة للمراود.

وإنما يظفر فيها من كانت إرادته أقوى ..

وفوق ذلك : عناية الله تعالى :

فإذا كان فى أهل الإباحة والحرية المطلقة من يملك إرادته . ولايلين لمراوده .. ولايغريه المال - وهو معبوده الأكبر ..

أفيكثر .. أو يستغرب أن يكون يوسف بن يعقوب . بن اسحق . ابن ابرهيم : فى وراثته الفطرية والأدبية . ومقام النبوة عن آبائه الأكرمين .. أن يستمسك بعروة العصمة الوثقى لانفصام لها) [1].

ولقد استمسك بها .. فلزم حصن الله الآمن ..

أما هى : فقد همت به .. إذ لاعاصم عندها من دين أو عقل . وإذن .. فقد كان الهم مختلفا :

فبينما هى متعلقة به .. متهالكة عليه .. عازمة على الظفر به .. كان همه هو على مايقول الرازى :

(اللهم : خطور الشئ بالبال . أو : ميل الطبع . كالهائم فى الصيف :

يرى الماء البارد . فتحمله نفسه على الميل إليه . وطلب شربه . ولكن .. يمنعه دينه عنه)

يشهد بذلك تمزق القميص الذى كان بسبب من قوة دفعه .. ثم قوة تعلقها به ..

وهكذا كانت حياته عليه السلام بلاء موصولا :

---

(١) المنار.

لقد راود إخوته عنه أباه ..

وها هى ذى امرأة العزيز تراوده عن نفسه . ولكن خرج من المحنة أصلب عودا .. فى الوقت الذى تتراخى فيه إرادة الرجال أمام إغراء الأنوثه .. على مايقول أحد ملوك الأندلس :

نحن قوم : تذيبنا الأعين النجل ∴ على أننا نذيب الحديد

فترانا لدى الكريهة أحرا ∴ راو فى السلم للملاح عبيدا

يقول الرافعى هنا :

(هنا يعود الأدب السامى الإلهى إلى تعبيره المعجز فيقول : " ولقد همت به " :

كأنما يومئ بهذه العبارة إلى أنها ترامت عليه وتعلقت به . والتجأت إلى وسيلتها الأخيرة وهى : لمس الطبيعة لإلقاء الجمرة فى الهشيم .

جاءت العاشقة فى قضيتها ببرهان الشيطان يقذف به فى آخر محاولته . وهنا يقع ليوسف عليه السلام برهان ربه . كما وقع لها هى برهان شيطانها :

فلولا برهان ربه .. لكان رجلا من البشر فى ضعفه الطبيعى .

وهاهنا المعجزة الكبرى :

لأن الآية الكريمة تريد ألا تنفى عن يوسف عليه السلام فحولة الرجوله .. حتى لايظن به .

ثم هى تريد من ذلك :

أن يتعلم الرجال . وخاصة الشبان منهم :

كيف يتسامون بهذه الرجولة فوق الشهوات . حتى فى الحالة التى هى نهاية قدرة الطبيعة :

حالة ملكة مطاعة . فاتنة . عاشقة . مختلية . متعرضة متكشفة . متهالكة :

هنا . لاينبغى أن ييأس الرجل :

فإن الوسيلة التى تجعله لايرى شيئا من هذا هى :

أن يرى برهان ربه !

وهذا البرهان : يؤوله كل إنسان بما شاء :

فهو كالمفتاح الذى يوضع فى الأقفال كلها .. فيفضها كلها !

فإذا مثل الرجل لنفسه فى تلك الساعة : أنه هو وهذه المرأة منتصبان أمام الله يراهما .

وأن أمانى القلب التى تهجس فيه . ويظنها خافية .. إنما هى صوت عال يسمعه الله .

وإذا تذكر أنه سيموت ويقبر .. وفكر فيما يصنع الثرى بجسمه هذا .

أو فكر فى موقفه يوم تشهد عليه أعضاؤه بما كان يعمل .. أو فكر فى أن هذا الإثم الذى يقترفه الآن .. سيكون مرجعه إليه فى أخته أو بنته :

إذا فكر فى هذا ونحوه .. رأى برهان ربه يطالعه فجأة .. كما يكون السائر فى الطريق غافلا . مندفعا إلى هاوية . ثم ينظر فجأة فيرى برهان عينيه

أتراه يتردى فى الهاوية حينئذ .. أم يقف دونها وينجو)

ولقد رأى يوسف عليه السلام برهان ربه .. فرفض الإثم الهاجم ..

(واستبقا الباب) :

وكما كان " الهم " مختلفا .. كذلك كان الاستباق مختلفا :

ولقد حذف حرف الجر " إلى " .. وإذن فلم تكن هناك مسافة فاصلة

بينهما وبين الباب :

لقد كان " الباب غايتهما " ولكن :

كان فى حس يوسف .. للهرب ..

أما هى .. فكانت .. للطلب !

كل منهما فى غاية الرغبة :

هذه تطلب ..

وهذا .. يهرب ..

ويبقى الدرس المهم وهو :

بعد أن نفر نفسيا من الإثم .. فنحن مطالبون بالفرار من المكان حتى لانقع تحت رحمة الملحدين !

من أصار الاختلاط

يقول الله عزوجل :

﴿ واستبقا الباب وقدت قميصه من دبرو ألفيا سيدها لدى الباب قالت ماجزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾٢٥

تمهيد

إنما سمى " الإخلاص " إخلاصا .. لأنك تتخلص به من كل هو اجسك .. متجاهلا كل مناعم الدنيا .. فارا به إلى الله وحده

ومن هؤلاء المخلصين ذلك العابد الذى قال :

(لو خيرت بين ركعتين .. ودخول الفردوس لأخترت الركعتين :

لأننى فى الركعتين أتعلق بربى .. وفى الثانية بحظى ..)

وكذلك تعلقت همتهم بالحق دون سواه حتى كان من وصاياهم :

" إن أعطاك من العرش إلى الفرش فقل له : بل أنت أريد !!

وهكذا كان يوسف ..

لقد وفقه الله تعالى حين أراه برهانه

أبى القلب إلا حب ليلى فبغضت ∴ إلى نساء مالهن ذنوب

لقد فر الفتى من بيت تعلوه شارة الأحرار ..

لكنه مسكون بأخلاق العبيد

وياله من رقيق : بيع بثمن بخس واتهم فى أمر باطل ثم سحب مع الأشرار .

ولكن عزاءه .. وجنته فى إيثار مايرضى الله ..

إذا ماتمنى الناس روحا وراحة ∴ تمنيت أن أشكو إليه فيسمعا .

الخطوة العملية

ولكن الطهر وحده قد يتراجع مادامت الرذيلة متسلطة .. ولابد من الفرار من مكان المعصية الذى قد يغريك بالسقوط ..

وهذا هو الذى حدث بالفعل :

فقد (استبقا الباب) بمعنى : أن يوسف فر من مكان المعصية .. شاعرا ببطء الزمن .. راجيا سرعة الوصول إلى الباب .. الذى بدا وكأنه يسابقه

قال المربون :

يجب الفرار الحسى من مكان المعصية .. ولايكفى الفرار النفسى .. وبخاصة عند فوران الشهوة .. وفى مثل هذه الظروف العصيبه .. وهذا مافعله الفتى ..

لقد فر من حب الدنيا الذى يستعبدنا .. إلى حب الله تعالى .. والذى به يصير حراً . إن النفس ظلمة .. وسراجها التوفيق .

ومن توفيق الله عزوجل لأوليائه .. أنه عز وجل يكيداً ليوسف كيد بما احتوى عليه تهديدها منا لاعتراف الذى يؤكد الاقتراف . ثم باستبعادها فكرة اعدامه .. والاكتفاء بسجنه واهانته .. وذلك ليبقى لها . فلعل قناته فى المستقبل أن تلين وأن يستكين ؟!

يقول ابن تيميه فى دقائق التفسير [١]

(وهذا يدل على أنها لم تزل متمكنة من مراودته . والخلوة به . مع علم الزوج بما جرى . وهذا من أعظم الدياثه ..

ثم إنه لماحبس .. فإنما حبس بأمرها . والمرأة لاتتمكن من حبسه إلا بأمر الزوج).

(١) تحقيق د. محمد الجلیند / ٤٢٩ وما بعدها .

مع ملاحظة أنها لم تقترح " قتله " آملة أن يظل حيا .. فقد يعود إليها يوما .

أما بعد

فتلك آصار " الاختلاط "

وذلك قول الشاعر :

وأشد ما لقيت من ألم الجوى

قرب الحبيب .. وما إليه وصول !

وعلى المسلم :

أن يقول مع القائلين : ولقد همت به ..

وألا يخوض مع الخائضين فى :

(وهم بها)

يعينه على ذلك :

قوله تعالى :

﴿ وغلقت الأبواب ﴾

غلقتها " بالتشديد "

وكل لأبواب ..

شاهدة - من منطلق معايشتها له قبل ذلك - بأنه :

التقى .. النقى . الأبى .

والحيى :

الذى كان من حياته ماحكاه القرآن عنه : (هى راودتنى) فلم يصرح باسمها : ولم يقل : هذه .. ولم يقل : زوجتك

أ- حياء .

ب- ثم احتراما لمن آواه . وأكرم مثواه .

قصور - بعض - الأغنياء :

بنيان شاهق

ومال : صامت .. وناطق

ثم حدائق .. وعيون

ولكن الفجور يتخفى من وراء كل ذلك !

ولايهز الشجر إلا فرع منها

يقول الله عزوجل :

﴿ قال هى راودتنى عن نفسى وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ﴾٢٦-٢٨

تمهيد

تعددت الابتلاءات فى حياة يوسف عليه السلام :

فكانت مثنى . وثلاث . ورباع :

أ- ابتلاء الشدة : فى الجب . والسجن

ب- وابتلاء الرخاء : فى قصر الملك

جـ- وابتلاء الشهوة : مع امرأة العزيز

وفى ظنى أن أشد البلاء ضغطا هو :

حين تكون بريئا من الذنب .. ولكن وقاحة خصمك تحاول إلصاقه بك .. ليبدو هو بريئا من الذنب براءة مخصومة من حساب كرامتك .. وتبلغ المأساه ذروتها حين تساق إلى السجن مظلوما ..بينما خصمك الماكر وقد كسب القضية زورا- يمرح على الساحة وحده .. وبلا منازع !!

ولابأس .. فإن الأحداث - على غرابتها وتناقضها - مسخرة لخدمة المظلوم .. وإن كان الظالمون لايشعرون :

(كذلك كدنا ليوسف)

وإذا كانت " سماحة هابيل " انتصرت على " عنف قابيل " فسوف ينتصر

الحق .. ولكن فى ميـقـات يوم معلوم .. وبعـد أن يثـبت المظلوم أنه أهل لذلك الأنتصار :

وقد أثبت يوسف ذلك .. حين دفع التهمة عن نفسه فى أدب جحم :

(هى راودتنى عن نفسى)

يقول : " هى " ولم يقل زوجتك .. حتى لايثير نخوته .

إن بعض الناس لايرى أشـهى من " لحم " العلمـاء .. ومن ثم يؤثـرونهم بالقدح بدل المدح !

ولكن يوسف الفتى يثبت : عمليا .. وهو فى معمعان الفتنة أن " لحم " المسلم " مر المذاق " وأنه لاينبغى أن يستسلم للباطل مهما كان فى خيله ورجله !!

لقد قال ما حكاه القرآن عنه :

(هى راودتنى عن نفسى) ولم يمكنها من إدارة الموقف لحسابها - مؤقتا على الأقل -

وتأمل من خبايا الموقف مايلى :

فإنه يدخل " القصر " ومن بعد القفر .. ويلوح له الترف .. بعد الشظف

ثم إنه " غريب " :

والمغترب لايخاف أهله .. لأنهم غائبون ..

وهو مملوك .. فله عذره .. لأنه " عبد المأمور "

وعلى الجانب الآخر :

أنثى . هى : زوجة الملك :

وصاحبة الدار لاتخاف الفضيحه

وهى جميلة .. وهى الداعية - بل : الملحة ..

ولقد غلقت كل الأبواب .. ومن يصبر على مغالبة هذا البلاء :

ليس إلا يوسف الفتى المؤمن .. لايصبر عليه إلا :

إلا الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم : يوسف بن يعقوب بن اسحق ابن ابراهيم

لقد ابتلى على قدر دينه .. فاصطبر فظفر ..

وهكذا الأبرار :

ينظرون إلى الخلق :

ينظرون إلى الخلق .. ولكن بعين الحق فلا يعبأون بما يكون منهم ..

أما من نظر إليهم بغير ذلك .. فإنه يفنى عمره فى مخاصمتهم !

ولقد راودته بمختلف الأسلحة :

بالكلمة الطرية ..

والحركة المغرية ..

والزينة الملفته ..

ولكنه " الضعف الشريف " يهزم القوة السافلة .. أجل : انتصرت العفة .. فى معترك الشياطين وآية ذلك

﴿ قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ﴾ ٢٨

أجل .. إن كيد النساء عظيم :

أولا : لأن الأسد المجروح يضرب بقوة .

ثانيا : المرأة .. لأنها ضعيفة - تستجمع كل قوتها .. وأيضا لأنها خائفة .. فإن ذلك يجعل ضربتها كما يقولون " ضربة خوف " كناية عن شدتها :

يقول المفسرون :

إن عظيم الكيد هنا معناه :

أنهن (ألطف : أعلق بالقلب . وأشد تأثيرا فى النفس :

عندما تلاحظنا العناية

يقول الله عز وجل :

﴿ وشهد شاهد من أهلها .. ﴾ ٢٦

قال الفخر الرازى فى تفسيره :

(قد شهد الله تعالى فى هذه الآية الكريمة . على طهارته أربع مرات :

أولها :

" لنصرف عنه السوء "

واللام للتأكيد والمبالغة .

والثانى : قوله :

" والفحشاء "

أى : وكذلك لنصرف عنه الفحشاء .

والثالث : قوله :

" إنه من عبادنا " مع أنه تعالى قال " عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا .. الآية ..

والرابع :

قوله : المخلصين ..

والرابع قوله : المخلصين :

بفتح اللام : يدل على أنه تعالى :

استخلصه لنفسه . واصطفاه لحضرته .

ب- بكسر اللام :

وهو " يدل على كونه آتيا بالطاعات والقربات . مع صفة الإخلاص

وعلى كلا الوجهين :

فإنه من أدل الألفاظ على كونه منزها عما أضافوه إليه) أ. هـ

يضاف إلى ذلك : أن قد شهد له بالبراءة كل من له تعلق بالقضية :

أما يوسف :

(هى راودتنى)

(رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه)

أما اعتراف المرأة :

(ولقد راودته عن نفسه فاستعصم)

أما الزوج :

إنه من كيدكن ..

يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين .

(وأما إقرار إبليس بطهارته ونزاهته :

ففى قوله تعالى :

﴿ قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ ص/ ٨٢-٨٣

فأقر بأنه لايمكنه إغواء المخلصين .

ولاشك أن يوسف من المخلصين ..

يقول الرازى :

" هؤلاء الجهال . الذين نسبوا إلى يوسف عليه السلام هذه الفضيحة :

إن كانوا من أتباع دين الله تعالى .. فليبقوا شهادة الله تعالى على طهارته.

ولعلهم يقولون :

كنا أول الأمر تلامذة إبليس .. إلى أن تخرجنا من بين يديه فزدنا فى السفاهة عليه :

كما قال الخوارزمى :

وكنت فتى : من جند إبليس . فارتقى

بى الحال .. حتى صار إبليس من جندى

فلومات قبلى .. كنت أحسن بعده

طرائق فسق .. ليس يحسنها بعدى !!

الـزوج الحـائر:

بـين عقـله وقـلبه

يقول الله عزوجل :

﴿ يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ ٢٩

تمهيد

كان الزوج " العزيز " ديوثا : متراخيا .. حائرا : ومن مظاهر دياثته مايلى :

أ- أنه لم يساعد يوسف على ردعها وتقليم أظافرها .

ب- إنه لم يجرؤ على اتهامها مباشرة ليقول لها : أنت خائنة .. ولكنه قال ماحكاه القرآن الكريم عنه :

﴿ إنك كنت من الخاطئين ﴾

أنت واحدة : من الخائنات ؟ .. لا .. وإنما من الخائنين .. تبرئة لساحة النساء من الخيانه .. وكأنه يمدحها ولايقدحها .

جـ- ثم يقول " كنت من الخائنين .. محاولة منه إبعاد شبح الموقف المعيب الذى يحاول دفنه فى غيابات الماضى .

د- ثم تأمل التفاته إلى يوسف ليقول له :

﴿ يوسف أعرض عن هذا .. ﴾

يايوسف لاتحدث بما كان أحدا ..

وهكذا يكون الوضع فى بعض القصور .. لا فى كل القصور : وما هو هذا الوضع :

لايهمنا ما حدث .. مهما كان أثره التخريبى .. وأهم من ذلك : كتمان الأمر

.. وحجبه عن أجهزة الإعلام ..

إن الفضيحة فقط هى التى تؤلمنا .. أما الجريمة ذاتها فلا تضيرنا .. فكلنا مجرمون !!

وهذا هو المعنى الخبيث .. الذى يتحرر من الأسلاف إلى الأخلاف .

إنه :

حرية المكان . لا حرية الإنسان ؟؟

فى الغرب :

لا يُدان الزوج بالزنا .. إلا إذا كان الجرم قد ارتكب على فراش الزوجية .. أما فى مكان آخر .. فلا جريمة .. ويا لحرية المكان .. وضياع الإنسان !

من سخريات القدر

من يزن بامرأة .. بألف درهم .. فى بيته يزنى بغير درهم !

وقد قال أحدهم :

كنا نزنى بالخادمات .. وفى حظائر البهائم .. فزنى الخدم بنسائنا .. وعلى فرشنا !!

وقد جاء هذا التصريح جزاء معجلا !!

وهكذا النزوة الطارئة .. تدمر كل شئ : إن درهما حراما .. يحرق ألفا من الحلال فاعتبروا يا أشباه الرجال !

إن المرأة اليوم : بلا عزيز

واليوم .. ماذا ترى ؟

قد ترى (وقد هنا للتقليل لا للتحقيق)

قد ترى المرأة بلاعزيز .. فهى سيدة مصيرها :

لاتغلق الأبواب .. فلا عزيز تخشى أن يفاجئها !

وقد يكون لها عزيز .. لكنه الجمل المستنوق :

إنه فعيل .. بمعنى مفعول !!

وإذا لم يكن بيننا " يوسف الصديق " الآن "فقد تكون المرأة ذئبا جائعا ..بل ربما كانت أشد افتراسا من الذئب :

وقد سمعنا عن تلك الزوجة التى اتفقت مع صديقها أو عشيقها على التخلص من زوجها : لا . بإلقائه فى الجب ..

ولكن بقتله !!

وفوق هذه الجرأة المنافية لطبيعة المرأة .. بل الزوجة .. فوق هذا ..يكون التحدى .. حين يفعلان فعلتهما .. والجثة ملء ناظريهما .. ثم لايستحون !!

وهو الأمر الذى يحملنا على مزيد من الحذر :

الحذر : الذى لاينطلق من الشك .. وسوء الظن بالمرأة .. فذلكم هو الحذر السلبى ..

وإنما هو الحذر الإيجابى .. وهو ما أشار إليه المرحوم الشيخ " يوسف الدجوى " حين قال :

ففى القصة حثنا على الاقتداء به عليه السلام ، وإرشادنا إلى الاحتياط فى أمر النساء وبيان مكرهن وكيدهن ، ووصول الأمر إلى غايته فيهن مهما كان حالهن :

فلا تحسبا هنداً لها الغدر وحدها   سجية نفس : كل غانية هنـــد

وبعد : فمن الآثار السيئة للمدنية قلة الغيرة ،

وقد كانت الحضارة فى مصر بالغة حدها ، فكان للنساء فيها شأن وخطر ، حتى إن بعضهن تولت الملك مثل نيوتوكريس وغيرها ، وكل أمة تساوى رجالها بنسائها فى جميع الشئون فلا بد أن يخرجن عن حدودهن ويتخطينها ولا يقمن للرجال وزنا كبيرا ، فهذا من مساوئ المدنيات القديمة والحديثة ، حيث يسود الترف وينغمس أهلها فى الشهوات واللذائذ . وإنك لتلحظ فى غالب الأحوال الخنوع من الرجال الذين أثرت فبهم المدنية غير الاسلامية أثرها الخبيث ، فترى قلة غيرتهم على النساء وسلطان النساء عليهم ، كما هو مشاهد الآن فى أولئك المقلدين للأوربيين بلا عقل ولا بصيرة).

عندما ينحرف المجتمع

يقول الله عزوجل :

﴿ وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها فى ضلال مبين . فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ماهذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ﴾ ٣٠-٣١

عند الانتهاء من تأمل هذه الآيات الكريمات .. فإننا نحس بما خلفته فى عقولنا وقلوبنا من انطباعات أو عظات :

الأولى : أن " الشعب " مولع بمعرفة أخبار علية القوم من سكان القصور .

ولقد نجحت امرأة العزيز فى تحقيق مأربها باعتراف النسوة بأنه :

" ملك كريم "

وهنا نذكر قول الشاعر :

لاتخف مافعلت بك الأشواق   واشرح هواك فكلنا عشاق !!

وهكذا يكون " مجتمع الاختلاط " والذى كان إلى جانب البغى وكأن لسان حالها يقول :

لقد اعترفن بعد رؤيته لحظة واحدة . فكيف بى .. وأنا أعايشه : أراه .. ،أسمع صوته ؟!

الثانية : تقول قواعد اللغة :

إن الفعل " قال " للمذكر .

والفرض أنه يؤنث لتأنيث الفاعل وهو " نسوة " ومن معانى ذلك :

أن الجمل قد استنوق تحت سقف البيت .. وتراجع الدور الرجالى .. لتصبح المرأة مرجعا لتصدير الشائعات .

ونستأنس بقوله تعالى :

﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ﴾ هود / ٦٧

فالصيحة شديدة . دل على شدتها : سقوط تاء التأنيث من الفعل " أخذ " وهكذا فى القرآن : لايغنى لفظ عن لفظ .. بل ولا حركة عن حركة .. فلكل معناه . وله كذلك مغزاه : وهكذا أيضا يقف القرآن أضخم وأثبت من الطود العظيم :

بإعجازه اللغوى ... يتحدى العرب

وبإعجازه العلمى ... يتحدى البشرية

ومما قاله النسوة :

﴿ إنا لنراها فى ضلال مبين ﴾

قالوا ذلك : تشفيا .. وليس التشفى من أخلاق المسلم ..

وإذ يقول الانفعاليون :

عزمنا يجعل الصخور رفاتا

فإننا باسم الاسلام نقول :

ونحن نفجره عذبا فراتا !!

ثم .. إن الجريمة لم تتم .. والذى حدث هو : محاولة ..

وإذن فالقول اللائق هنا : الحمد لله ..

الحمد لله الذى أحبط كيد الشيطان .. ولكن حكم النسوة كان مبالغا :

إنا .. بالتوكيد ..

نراها :

نراها بأعيننا .. ولم يخبرنا أحد !

ثم هى " فى " عمق الضلال :

إن ضلالها مؤكد .. وظاهر لكل عين ..

ونقول :

لماذا الحكم المطلق الموثق .. وأنتن لم ترين .. ؟!!

وحذار ممن تبالغ فى لوم المرأة المنحرفة . فربما - نقول ربما كانت تغار منها وتتمنى أن لو ظفرت هى بالصيد ؟!

الثالثة : ومن وراء ذلك الانحراف أسباب :

١- تقاليد عفنة :

تبيح الفساد .. بل وتباركه :

فقد الوعى . وغيض الحياء . لقد انكسرت النسوة نزولها عن عرشها من أجل فتاها ..

إن المراودة شئ ممكن بل ومقبول !

لكن العيب : أن تراود فتاها ؟!

٢- وفى هذا الجو الخالق ترى زوجا " ديوثا " لاغيرة عنده ..

٣- إنه الاختلاط وآصاره :

فلا تحسبن هندا لها العذر وحدها ∴ سجية نفس : كل غانية هند !

الرابعة : وإذا كانوا يقولون :

من أجل عين ألف عين تكرم .. فإنا نقول وبنفس القوة :

ومن أجل ظن .. ألف ظن يهدم ؟!

لماذا :

(لأن بعض الظن إثم ..

كان على النسوة - أمس واليوم - بدل التشفى .. أن يبحثن عن حل عملى .. يتفادى به المجتمع تكرار ما حدث :

بمنع الاختلاط والاستمساك بالعفة ..

فالمجتمع كله مسئول .. والدولة مسئولة .

عندما تبيح الخيانة !

يقول الله عزوجل :

﴿ قالت فذلكن الذى لمتتنى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين . قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين .

فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم . ثم بدا لهم من بعد مارأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾ ٣٢-٣٥

تمهيد

كان يوسف عليه السلام مكتمل الشباب ناضجا .. فيه فحولة الرجولة ..

ثم وجد نفسه أمام " أنثى " : مجرد أنثى : مفرغة من الملك والسيادة .. فلم يبق منها إلا اللحم المعروض .. والدم الساخن فى العروق ..

وكان من المتوقع أن ينهار " السد " أمام هذه الموجات العاليه ..

ولكنه استعصم : استمسك بالعروة الوثقى التى لاانفصام لها ..

ولئن بدا الجو غائما .. بل مظلما .. فإن نجوم الهداية طلعت فنسخت هذا الغيم .. ووضح البرهان الذى عاد به إلى ربوة الأمان

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول مايجنى عليه اجتهاده

وتأمل تبجح المرأة الخائنة التى اتخذت من فتنة النساء به مايشبه الانتصار فى معركتها . وكأنما تقول لهن كمايقول صاحب الظلال :

(لقد بهرنى مثلكن .. فراودته عن نفسه . فطلب الاعتصام :

تريد أن تقول:

إنه عانى فى الاعتصام والتحرز من دعوتها وفتنتها - ثم تظهر سيطرتها عليه أما مهن فى تبجح المرأة من ذلك الوسط :

لاترى بأسا من الجهر بنزواتها الأنثوية : جاهرة . مكشوفة فى معرض النساء :

﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾

وهكذا :

(هتكت حجاب الحياء . وتوعدته بالسجن إن لم يفعل .. ولم تعد تخشى لوما ولامقالا . خلاف أول أمرها : إذ كان ذلك سرابينها وبينه) القرطبى ..

ولاحظ أنها تؤكد السجن بالنون الثقيلة " ليسجنن .. بينما أكدت الإهانة أو الصغار بالنون الخفيفة (وليكوناً):

(لأن عزمها على السجن أقوى من العزم على إيقاع الصغار به)

ويفصل صاحب المنار الموقف تفصيلا فيقول :

[قالت لهن مايعلم شرحه من قرينة الحال لما جاء فى التنزيل من إيجاز وإجمال :

إذا كان الأمر ما رأيتن بأعينكن . وما أكبرتن فى أنفسكن . وما فعلتن بأيديكن . وما قلتن بألسنتكن : فذلكن هو الأمر البعيد الغاية . الذى لمتننى فيه . وأسرفتن فى عذلى عليه ..

والمشار إليه " بكاف " البعد هو : يوسف :

البعيد فى حقيقته . البديع فى صورته :

فما هو كنعانى مملوك . ولا خادم صعلوك .. بل هو أكبر من ذلك وأعظم : هو ملك روحانى .. تجلى فى شكل إنسانى :

أوتى من روعة الجمال ماخلب ألبابكن فى الوهلة الأولى .. فما قولكن فى أمرى معه . وافتتانى به .. وإنما ترعرع فى دارى . وبلغ أشده بين سمعى وبصرى :

فأنا أشاهده فى قعوده وقيامه . ويقظته ومنامه . وطعامه وشرابه . وحركته وسكونه ..

وأخلو به ليلى ونهارى : فأراه بشرا سويا : إنسيا لاجنيا فأتراءى له فى زينتى : وأعرض على نظره ماظهر وماخفى من محاسنى .. فيعرض عنها احتقارا]

وفى بيان مغزى هذا الكلام يقول الرازى :

كأنها تقول (أنتن باللوم أحق منى ؟!

لماذا ؟

لأنهن بنظرة واحدة .. لحقهن أعظم مما نالها .. مع أنه طال مكانه معها)

وأما قولها " فذلكن " فمغزاه كما جاء فى " الكشاف " : (أن النسوة كن يقلن: إنها عشقت عبدها الكنعانى . فلما رأينه .. ووقعن فى تلك الدهشة . قالت هذا الذى رأيتموه : هو ذلك العبد الكنعانى . الذى لمتننى فيه . تعنى :

أنكن لم تتصورنه حق تصوره .

ولو حصلت فى قلوبكن صورته .. لتركن هذه الملامة) أ.هـ

وتأمل من عظيم كيد النساء أنها تهدده .. بالصغار : " بالهوان " منطلقة من واحد من قوانين النفس الإنسانية يقول :

(معلوم أن التوعد بالصغار . له تأثير عظيم . فى حق من كان رفيع النفس عظيم الخطر) ومن معانى ذلك :

أنها لاتتكلم اعتباطا .. وإنما عن دراية بأسرار النفس الإنسانية .

ولكن يوسف عليه السلام كان قد حسم القضية فلم يعد يؤثر فيه تهديد:

لقد رأى برهان ربه : (فأحفظوا هذه الكلمة الواحدة . التى فيها أكثر الكلام . وأكثر الموعظة . وأكثر التربية . والتى هى كالدرع فى المعركة بين الرجل والمرأة والشيطان : كلمة (رأى برهان ربه) (١) .

ولقد كان من دروس موقفه:

أن الرذيلة لا تحارب فقط بستر العورة .. فقط .. على أهمية هذا الستر طبعا . وإنما تستأصل الرذيلة بضرب الأنوثة الهائجة العاهرة .. المتبجحة .

ضربها فى الصميم .. وذلك بالإعراض عنها إعراضاً يحبط مفعولها .

وقد فعل يوسف ذلك .. فى صحبة بقية يقين جازم بأن الله معه .

وقد بدا ذلك في دعائه قائلاً :

﴿ رب ... هكذا بدون حرف نداء ثقة بخالقه عز وجل . ومن خلال هذا الظلام الكثيف .. والذى ضرب الباطل فيه أطنابه .. فتاه الدليل ..

أما بعد:

فقد صدق الله العظيم .. ﴿ إن كيدكن عظيم ﴾

لأنهن يواجهن الرجال .. والشيطان يوسوس مسارقه ..

ومن دلائل ذلك:

أن امرأة العزيز دعت أربعين امرأة : فيهن الخمس من النساء اللائى أشعن الخبر .. فكان كيدهن عظيماً حقاً !!

---

(١) الرافعى : وحى العلم ج١/ ١٠٦

ولقد صار حال النسوة على ماقيل :

أبعـده عـــاذلى عليـــه ... ولـم يكـن قبلــها رآه

فقال لى : لو عشقت هـذا ... مالامك الناس فى هواه

فظل من حيث لايـــدرى ... يأمر بالعشق من نهاه ؟!

الاستعلاء

فى مواجهة البلاء

يقول الله عز وجل :

﴿ قال رب السجن احب إلى مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ﴾ .

تمهيد :

هجم الرجل الصالح على أسد غير هياب ولا وجل .. فلما سئل فى ذلك قال :

تذكرت عظمة الخالق .. فهان علىّ المخلوق !

ولقد بدا فى ناظرىّ كلبا .. فهجمت عليه !

شئ من هذا القبيل كان عليه يوسف عليه السلام .. عندما هددته بالسجن والهوان .. من تملك التنفيذ .

لقد [هتف بمن فنى بشهوده عن كل مشهود .. دافعاً عن نفسه ماورد عليها من وسوسة الشيطان فى أمر جمالها .. ورئاستها . ومالها . ومن مكر النسوة اللاتى نوَّ عن له القول فى الترغيب والترهيب .. عالماً بأن القوة البشرية تضعف عن حمل مثل هذا إلا بتأييد عظيم .

وهذه العبارة وهى ﴿ رب السجن أحب إلى ﴾ تدل على غاية البغض لموافقتها .

فإن السجن لايتصور حبه عادة .

وإنما المعنى :

أنه لو كان يتصور الميل إليه .. كان ميلى إليه أكثر . لكنه لايتصور الميل إليه . لأنه شر محض .. ومع هذا فأنا أوثره على ماتدعوننى إليه ..

ومن معانى ذلك :

[أنه فوضل فى المحبة بين شيئين : أحدهما وهو السجن .. مقطوع ببغضه] أ . هـ (١) .

ففضل هذا المقطوع ببغضه على الذى يظن حبه .

وفى هذا القول اختياران .. ذكرهما ابن تيميه : (٢)

إحداهما :

إختيار السجن والبلاء . على الذنوب والمعاصى

والثانى :

طلب سؤال الله ودعائه أن يثبت القلب على دينه . بصرفه إلى طاعته ..

وإلا .. فإذا لم يثبت القلب .. صبا إلى الأمرين بالذنوب . وصار من الجاهلين.

وهذا كقول موسى عليه السلام لقومه :

(استعينوا بالله واصبروا ..)

قوله تعالى :

" وإن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئا) آل عمران / ١٢٠

فلا بد من التقوى بفعل المأمور . والصبر على المقدور . كما فعل يوسف عليه السلام : فقد اتقى الله بالعفة عن الفاحشة . وصبر على أذاهم بالمراودة .

---

(١) نظم الدرر (٢) دقائق التفسير ٤٢٩

والحبس . واستعان بالله ودعاه) أ.هـ

وفى تصوير موقف يوسف عليه السلام . يقول صاحب المنار :[1]

(والله ما عجبى من يوسف أن راودته مولاته فاستعصم .. وأن قالت له : هيت لك .. فقال معاذ الله :

فكم قال هذا من ليس له مقامه فى معرفته بالله . ومراقبته لله .. وإنما عجبى .. بل إعجابى بيوسف عليه السلام :

أن نظره إلى الله . أو نظر الله إليه .. لم يدع فى قلبه البشرى مكانا خاليا لنظرات هذه العاشقة التى شغفها حبا ..

ومن أقوى غرائز البشر :

حب الإنسان لمن يعتقد أنه يحبه .. وإن كان مشغول القلب بحب من لايحبه .)

ولكن عزيمة يوسف المؤمنه .. تناست هذه الغريزة . حبا لله .. فالذين آمنوا أشد حبا لله ..

سؤال :

وقد افترض صاحب المنار سؤالا .. ثم حاول الإجابة عنه وهو :

فإن قيل :

إن المرأة إذا ابتذلت نفسها .. فبذلتها للرجل بذل .. وتحول دلها عليه مهانة وذلا .. فإنه يحتقرها وتتحول رغبته فيها . رغبة عنها .. وكلما تمنعت عليه ازداد حبالها . وشوقا إليها كما قال الشاعر :

منعت شيئا . فأكثرت الولوع به   أحب شئ إلى الإنسان مامنعا

---

(١) ٤٧ .

وقد أجاب عن هذه المفارقة العجيبة بقوله :

(نعم إن هذا مقتضى الطبع السليم . كما أن رد ذات الجمال والمنصب .من ضعف الرجل أمام المرأة .

ولكن المراودة قلما تبلغ من هؤلاء حد الوقاحة فى الصراحة .. فلا تكون منفرة ..

وقد علمت أن المراودة : احتيال . ومراوغه . لتحويل الإرادة . وأن النساء الأكابر فى الأمصار التى أفسدتها الحضارة .. لأستاذهن " الشيطان " مسالك من إغوائهن ..

ولكن عباد الله المخلصين ليس له عليهم سلطان .. وعناية ربهم بهم تغلب غواية الشيطان .ومكر النسوان .

وقد لجأ يوسف عليه السلام إلى هذه العناية)

وهذا الكلام الاخير يحمل فى طياته سبب عزوف يوسف عليه السلام .. لا لأسباب مما تعارف عليه الناس . مما ذكره صاحب المنار .. وإنما هى عناية الله عز وجل .. والذى أراه من برهانه .. ماأبقى عليه فى القمة .. قمة العفة !

وهو ماصرح به يوسف نفسه عليه السلام :

(وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن)

[يعنى :

إن لم تحول عنى ما ينصبنه لى من شراك الكيد . ويمددنه من شباك الصيد .. لم أسلم من الصبوة إليهن]

إنه مكتمل الشباب ناجح .. فيه فحولة الرجولة .. كما قلنا ..

ولكن هذا السد يمكن أن ينهار أمام هجمة الإغراء

وإذالم يكن عون من الله للفتى . فأول مايجنى عليـه اجتهاده .. وقد أعانه الله عزوجل .. وصرف عنه كيدهن .. إنه هو السميع العليم ..

أما بعد

فلقد شجعها المجتمع المترف على أن تتبجح فتقول ماحكته الآى عنها :

[ولقد راودته عن نفسه]

وذلك بعد ان أحبطت حجة النساء .

بل إنها تهدد وتتوعد :

(ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين)

" ليسجنن " قالتها : مؤكدة بالنون الثقيلة : فهى مصرة على سجنه .. لو لم يلب رغبتها الآثمة ..

ولكن " النون " الخفيفة فى " وليكونا " فإنه لايرضيها أن يكون صغيرا .. بل لستبعد ذلك .. لما رأت من براءته .

درس للشباب

يقول الله عز وجل :

﴿ قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ﴾ ٣٣ - ٣٤

وهو درس لبعض الشباب اليوم .. حين يستغرقه الحماس الفائر .. فينقل مواقف التاريخ .. نقل مسطرة " وذلك قول أحدهم :

رب السجن أحب إلي مما يدعوننى إليه ، ولكن الفارق هائل بين الموقفين :

فما يدعى إليه شباب اليوم أمور .. قد يكون مقدورا عليها ..

بل قد تكون معركة وهمية .. فى غير قضيه !

أما يوسف الفتى :

فقد كان يخوض معركة خطيرة .. فله قضية يدخل السجن من أجلها :

ومما قاله المرحوم الشيخ " يوسف الدجوى " :

(يعلمنا سبحانه وتعالى أن طريقة عباد الله المخلصين الذين يلزمنا الاقتداء بهم تعظيم أمر الله ، والتضحية بكل شئ فى سبيله ، ولو أدى ذلك إلى السجن والهوان . وقوله : ﴿ وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ﴾ يغرس فينا ملكة الرجوع إلى الله فى كل شئ ، موقنين أن ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن ، وهذا هو شأن العارفين بنفوسهم ، الحذرين منها المراقبين لها ، العارفين بربهم وإحاطته التى لايخرج عنها شئ .) أ. هـ [1]

---

(١) مجلة الأزهر

وهذا شأن المؤمن دائما :

إن المؤمن مستحضر فى وعيه جلال الله وجماله ..

وهو بهذا الوعى .. وهذا الذكر فى الحصن الذى لايرام.. مشمولا بالعين التى لاتنام بل إن شعاره :

عجبت لمن يقول : ذكرت ربى وهل أنسى .. فأذكر مانسيت

أموت إذا ذكرتك .. ثم أحيا ولولا حسن ظنى ماحييت

فأحيا بالمنى وأموت شوقا : فكم أحيا عليك .. وكم أموت :

شربنا الحب : كأسا بعد كأس : فما نفد الشراب .. وما رويت

وهذا هو " عمر بن الفارض " يؤكد كيف كان ذكر الله عز وجل هو حصنه الآمن .. ومتعته الدائمه ..

لقد جرد من الذكر سلاحا قطع كل مايربطه بالدنيا .. ليكون ولاؤه لله تعالى وحده .. فاطمأن قلبه .. ولم يجد اليأس إليه سبيلا .. قال :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها .. من قبل أن يخلق الكرم:

صفاء : ولاماء .. ولطف : ولاهوى ونور ولانار .. وروح ولاجسم

أما رابعة العدوية فإنها تقول :

أحبك حبين : حب الهوى وحبا لأنك أهل لذاكا

فأما الذى هو حب الهوى : فشغلى بذكرك عمن سواكا

وأما الذى أنت أهل له فكشفك لى الحجب حتى أراكا

وما الحمد فى ذا ولا ذاك لى ولكن . لك الحمد فى ذا .. وذاك

وهكذا يستقبل المؤمن هدية الجنة - وهو البلاء - يستقبلها بهذا القلب

الذاكر المطمئن .. فلا ييأس .. ولكنه يأنس بربه سبحانه وتعالى .. أنسا يجعله على ماقيل : (يجعله مثل الطيور ذات الأجنحة الطويلة : استطاع أن يحلق بعيدا عن الأرض ..

بعيدا عن الحياة .. فبدت له الأشياء كلها صغيرة .. وهى ليست صغيرة عندما كان يمارسها ويرتمى عليها .. إنما :

عندما طار بعيدا عنها !

وقارن هذا الأفق الغنى عن الدنيا .. بمن كان غناه بالدنيا .. فاستبدت به..

أحبك فى السنة الآتيه　　كحبك فى السنة الماضية
ويكبر شوقى بطول المدى　　كما تكبر الدوحة النامية
فأنت الزمان وأنت المكا　　ن .. وأنت غنى النفس ياغانيه
ولست أعد حساب السنين　　بالشمس : طالعة .. خافيه
ولكن بوجهك لى مقبلا　　ونظرتك الحلوة الساجيه
فيوم الرضا : عالم حافل　　من الحب والذكرة الباقية
ويوم النوى : عالم مظلم　　تضل الشموس به .. هاوية
دعى الناس يحيون أيامهم　　ويلهون بالضجة الخاوية
فعيدى بقربك .. لاينقضى　　وأعيادهم كلها فانيه !
إذا نظروا العالم لم أنتظر　　سوى لمحة منك لى كافية

عبرة للشباب

لقد تحدى الفتى سلاح الشهوة فى قلب المرأة ..

بل قد بلغ التحدى هنا مداه .. حين حول به الفتى مجرى الأحداث لحسابه :

ذلك بأن الظالم هنا حكم عليه بالسجن .. فإذا تحول حكم الظالم ليصادف هوى فى قلب المظلوم ..

إذا صار حكم الظالم بالسجن حبيبا .. بل أحب .. إلى قلب المظلوم .. فقد انتصر المظلوم على الظالم :

يقول الله عز وجل :

﴿ ثم بدا لهم من بعد مارأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾ ٣٥

تمهيد

إن مما أدرك الناس من كلام الحكمة الأولى :

(إذا ذهب الحياء .. انفرط العقد .. ولم يعد هناك ضابط ولارابط ينسق خطو الحياة .. والأحياء : الذين يضمحل حياؤهم فتضل آراؤهم . وتفسد أحكامهم . إلى الحد الذى يصير فيه المانع مقتضيا :

وهو المعنى المشار إليه فى قول الشاعر :

طهارة بعض الناس حرب عليهمو وفضلهمو خصم لهم وغريم

وتعجب حتى لاينقضى عجبك من أناس يتخذونك خصما لدودا .. ثم يعلنون عليك حربا ضارية .. لا لأنك أخطأت أو أجرمت .. ولكن بالعكس :

لأنك طاهر .. بل وتحب المتطهرين .. ولانك فاضل . دون هؤلاء الأراذل

إنهم الأنجاس الذين لايحبون المتطهرين .. وهم المتمردون : الذين ليحبون الناصحين !

وهكذا كان العزيز وآله :

لقد اتخذوا القرار الصعب . بالزج بيوسف فى السجن بغيا وعدوا . ومتى ؟

بعد مار أوا من آيات براءته ما يكف بأسهم :

إنها آيات .. وليست آية واحدة ..

ثم إنهم رأوها رأى العين .. ولم يخبرهم بها أحد .. وهكذا .. صار المانع من سجنه .. هو المقتضى للزج به فى غياهبه

ومن هذه الآيات :

١- ثناء الله تعالى عليه :

﴿ إنه من عبادنا المخلصين ﴾

﴿ آتيناه حكما وعلما ﴾

٢- شهادة الطفل الذى أنطقه الله عزوجل بالحق

٣- بل واعتراف امرأة العزيز بعفته وبراءته :

﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾

٤- رفضه الخروج من السجن حتى تظهر براءته ..

وهكذا : كانت كل آية هى أكبر من أختها !

وإذ يقول المرحوم سيد قطب :

(وهكذا جو القصور ...) فإنا نقول له

وأيضا : جو النجوع والكفور !!

فقد يبرز فى الحى .. أو القرية واحد ..

ولكن الحقد يعبر عن نفسه بمحاولات تحطيم هذا الرمز الذى لم يرتكب خطيئة أو إثما .. وإنما لأنه طاهر .. مستقيم ..

وكأنما شرف الشريف إذا سما   جرم جناه على الوضيع الأرذل

ونذكر هنا ذلك الصوت العاقل الذى نصح المشركين من العرب أن يكفوا أيديهم وألسنتهم عن رسول الله ﷺ : فإن كان صادقا .. فعزه عزكم ..

وضاع الصوت العاقل اليوم فى دوامة الحقد الاسود .. الذى يتفرد بالساحة دون الأطهار الأخيار ..

وبينما الأشرار يمرحون ويتضاحكون .. فإن على الأطهار إلا أن يحملوا عصيهم .. ثم يرحلون !

دمـوع التماسيح

وقد يستيقظ الضمير من إغفاءته لحة .. ليحس بخسة ماصنع .. ولا بأس أن يذرف دموع التماسيح .. ولكن فى الوقت الردئ .. وبعد فوات الأوان :

روى أنه لما أدخل السجن . ندمت " زليخا " على سجنه . وعيل صبرها على فراقه .

فأرسلت إلى السجان ليطلقه . فأبى . فلبث فيه سبع سنين

ولكن لماذا سجنوه ؟

ليظن الناس أنها محقة فيما ادعت عليه . وأنها لو كانت تحبه ما سعت فى سجنه :

(ويروون فى ذلك :

" أنها قالت لزوجها :

إن هذا العبد العبرانى .. فضحنى فى الناس .. يقول لهم :

إنى راودته عن نفسه . وأنا لا أقدر على إظهار عذرى :

فإما أن تأذن لى .. فأخرج .. واعتذر .. وإما أن تحبسه كما حبستنى .

فعند ذلك وقع فى قلب العزيز أن الأصلح : حبسه : حتى يسقط عن ألسنة الناس ذكر هذا الحديث) أ.هـ

فى غيابات السجن

ومن خلال ظلمة السجن .. ظهرت نجوم الهداية .. حيث دبر الله تعالى

لوليه .. وكاد ليوسف عليه السلام كيدا وصل به إلى رتبة الوزارة . جزء معجلا .. لكل محسن اتخذ الله وكيلا :

تالله ماطلعت شمس ولاغربت — إلا وذكرك مقـرون بأنفـاسى

ولا جلست إلى قوم أحدثهم — إلا وأنت حديثى بين جـلاسى

ولا شربت لذيذ الماء من ظمأ — إلا رأيت خيالا منك فى الكاس

إن كان للناس وسواس يوسوسهم — فإنك والله وسواسى وخنـاسى

لولا نسيـم بذكـراكم أفيق به — لكنت محترقا من حر أنفـاسى

أما بعد

فمن أقوال " الرافعى " :

(ربما عابوا السمو الأدبى بأنه قليل .. ولكن الخير كذلك .

وبأنه مخالف .. ولكن الحق كذلك .. وأنه محير .. ولكن الحسن كذلك ..

وبأنه كثير التكاليف .. ولكن الحريةكذلك) أ . هـ

وهكذا الناس عبر الزمان :إنهم فريقان يختصمون :

ناس : مبتدعون . حفاظ :

يفكرون " بالذاكرة "

لابالعقول .. فيظلمون .. لأن علمهم أكبر من عقلهم

ورجال :

مثل جذع الشجرة :

تتفرع الأشجار عنه . وتستمد منه .

ولولا هذه الجذور .. لما كانت الأعضاء التى تظهر .. بينما الجذور لاترى !

من تدبير الأقدار.. للأحرار

يقول الله عزوجل :

﴿ ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمرا وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين ﴾ ٣٦

تمهيد

وهنا سؤال يفرض نفسه :

لقد شهد الفتيان أنه من المحسنين فكيف كان ذلك ؟

والجواب - والله أعلم بمراده - ان الآية الكريمة تقول﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾

(وما قالا هذا القول إلا بعد أن رأيا من سعة علمه . وحسن سيرته مع أهل السجن ما وجه إليه وجوهما . وعلق به أملهما) أ.هـ

ومن أبعاد الموقف هنا كما يقول صاحب المنار :

[إن الله تعالى جعل له فى كل محنة ظاهرة منحة باطنه . وفى كل بداية محرقة نهاية مشرقة تحقيقا لما فهمه أبوه من احتباء ربه له .

وحكمته من ناحية دعوة الدين :

أن أقوى الناس وأقربهم استعدادا لفهمها والاهداء بها هم :

الضعفاء . والمظلومون . والفقراء . وأعناهم . وأبعدهم عن قبولها هم : المترفون والمتكبرون] أ . هـ

لماذا قرار سجن البرئ ؟

لقد تيقن القوم من براءة يوسف عليه السلام ولكنهم نفذوا اقتراح سيدة القصر التى كان زمامه بيدها .. لابيد عمرو !!

وذلك حتى يكف الناس عن ذكره .. وينسون جريمتها ..

ثم تنفيذ لو عيدها بهوانه وذله . فلعل السجن بهذا أن يسخره لها كما سخرت زوجها من قبل !

ويمكرون .. ويمكر الله

صحيح أن الشجرة الكبيرة قد تحجب ماوراءها من أشجار :

قد يستطيع " الإعلام المزور " أن يحجب الحقائق ..

فيساق البرئ إلى السجن .. بينما الجانى مطلق السراح .. ولكن ذلك الإعلام لايملك إلاخداع الأبصار دون البصائر :

الأبصار : التى قد ترى الشجرة خضراء . ولكن البصيرة تنفذ إلى الأعماق إلى ما وراء المشهد الخداع :

فترى " التمثيل الضوئى من وراء ذلك :

وكذلك كان يوسف عليه السلام :

فقد كان من تدبير الله عزوجل لدعوته أن يدخل (معه السجن فتيان) طلب إليه تفسير الرؤيا فضسرها ..

وكان ذلك مدخلا إلى كسب ثقتهما .. وبعد ذلك .. بدأ يدعوهما .. فى جو مناسب .. تؤتى الموعظة فيه أكلها

وكأى من داعية اليوم وظيفته فقط هى الكلام ..

وليست له حركة داخل المجتمع .. فأنى يستجاب له ؟!

ولكن يوسف عليه السلام يستجمع خصائص الداعية الشاعر بآلام الناس .. الساعى على مصلحتهم .. ومن ثم أثبت لنفسه . وفى السجن وجودا فرض احترامه على النزلاء الذين لايعلمون .. وواجبنا مضاعفة الجهد .. ليعلموا ثم ليؤمنوا .

من دروس الدعوة

ومن دروس الدعوة هنا : أن الظروف وإن كانت صعبة فإن ذلك لايمنع الداعية من أن يقول كلمته فى الوقت المناسب . وبالأسلوب المناسب .. مع الأخذ فى الاعتبار أن تدبير الله تعالى - مع هذا وفوق هذا - فوق كل تدبير ..

يقول صاحب الظلال :

(وينتهز يوسف هذه الفرصة ليبث بين السجناء عقيدته الصحيحة :

فكونه سجينا لايعفيه من تصحيح العقيدة الفاسدة . والأوضاع الفاسدة . القائمة على إعطاء حق الربوبية للحكام الأرضيين . وجعلهم بالخضوع لهم أربابا يزاولون خصائص الربوبية . ويصبحون فراعين.

ويبدأ يوسف مع صاحبى السجن من موضوعهما الذى يشغل بالهما : فيطمئنهما ابتداء إلى أنه سيؤول لهم الرؤى . لأن ربه علمه علما لدنيا خاصا . جزاء تجرده لعبادته وحده . وتخلصه من عبادة الشركاء : هو وآباؤه من قبله) أ.هـ

والنتيجة : تخلق الثقة بين الداعية والداعى .. وعلى جسر من هذه الثقة تعبر الكلمة الهادية إلى مكمن الإقناع .

وهنا يبدو الداعية أكبر من الموقف .. ومن ثم يكون قادرا على الإمساك بزمامه :

ومن أجل ذلك نقول :

إنه لايكفى أن يلبى الداعية حاجات المدعو ..

وإنما عليه أن يسبقه ... أن يقتحم له المستقبل الواعد

والذى يحقق فيه أمله .. بما عمله .

ومع هذا .. فحاجة الداعية إلى الله عزوجل متجددة دائما : فإذا تخلت عنه العناية .. صار لاشئ

وآية ذلك :

هذان الفتيان :

لقد كان من تدبير الله عزوجل أن يدخلا السجن - ومعه بالذات - ليتم مراد الله عزوجل :

وما تشاءون إلا أن يشاء الله .. ولو وكل الله تعالى عبدا من عباده إلى نفسه لو كله إلى الضعف .. والهوان ..

أما بعد

فيقولون :

ما أرفق الناس بالغربان .. وما أعنفهم على الحمائم !!

إن نصف الناس أعداء لمن ولى الاحكام .. هذا إن عدل ؟!

ولكن لله عزوجل حكمة هو بالغها :

لقد أرادوا بسجنه إلصاق التهمة به ..

ولكن الله عزوجل أراد بهذا السجن إظهار فضله :

وأنت تريد .. والله يريد .. ولايكون إلا مايريد .

من تدبير الله تعالى .. لدعوته

يقول عز وجل :

﴿ ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار. ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾ ٣٩-٤٠

تمهيد

من الأمور المهمة فى تكوين الداعية أن يكون له دور اجتماعى بين قومه .. بمعنى أن يحسوا بحاجتهم إليه .. ليقبلوا عليه ..

فإذا قضى لهم وطرا .. كان كلامه عبرا .. وكانت توجيهاته قوانين :

إيمان يوسف

وعفة يوسف

وفوق ذلك كله تدبير الله عزوجل والذى كان منه : أن أدخل السجن .. ومن السجن .. كان مستقبله الواعد .. والذى تم بسبب من مكر الماكرين .. وربنا خلاف الظنون !

(ولقد تدرب . وراض الأمور . وفهم مجاريها .. فانتفع بكفايته وأمانته)

(وكذلك نجزى المحسنين):

(فمن أحسن فى شبيته .. آتاه الله الحمكة فى اكتهاله)

وهكذا كان كلام يوسف عبرا .. بما آتاه الله من علم وحكمة :

فهو يقول لهم :

(ياصاحبى السجن) .. تذكيرا لهم بوحدة المصير . ووحدة المصيبة ..

التى من شأنها أن تجمع المصابين ليستمعوا إلى ذلك الذى يضرب على الوتر الحساس : (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) إنه لايحاول أن يجعل من الدعوة تسلطا .. يسقط عليهم القرار من " فوق " ..

وإنما المدعو هنا سيد مصيره : يتخذ قراره بمحض اختياره .. ليكون فى النهاية مسئولا وحده عما وقع عليه اختياره ..

وهو دروس من دروس الدعوة أيضا يؤكد ضرورة البدء بالدليل الأشد ظهورا على صحة ماندعو إليه .. رحمة بالمدعو .. وإعانة له على نفسه المقيدة بأغلال من مواريثها :

هل الأرباب المتفرقون .. المتنازعون .. المفسدون .. خير .. أم .. الله واجب الوجود الخالق لكل موجود .. الواحد فى ذاته وصفاته وأفعاله) أ.هـ

ولاحظ من حكمة الداعية ما يلى :

أ- اسلوب الاستفهام إقرار بأن للمدعو شخصية مستقلة لها كيانها ..

لأن الاستفهام يعنى : رد العلم بالجواب إليه .. فى الوقت الذى يبدو الداعى .. وليس طرفا فى القضية المسئول عنها .

وتبدو قيمة الإنصاف واضحة :

فقد سماها أربابا .. وهى ليست كذلك .. وإنما هو إرخاء الحبل للمبطل بالتساهل معه فيما يزعم صحته ..

وهو الإنصاف الذى هو ألين ملمسا .. وبالتالى أدعى لقبول المدعو .. أو على الأقل " تحييده " حتى لاينضم إلى فريق المشاغبين ..

جـ - ثم تجئ مواجهتهم بأنهم لايعبدون شيئا .. بهذا الأسلوب الحاسم القاصم .. وقبل أن يتذرعوا بالجحود فيشغبوا على الحق .

(لقد انتفى تعظيمها لذاتها . . أو لغيرها . وصار حاصل الدليل :

" لو كانوا أحياء يحكمون لم يصلحوا للالهية : لإمكان تمانعهم المؤدى إلى إمكان عجز كل منهم ..

.. لكنهم ليسوا أحياء . فهم أجدر بعدم الصلاحية . فعلم قطعا أنه لاحكم لمقهور . وأن كل من يمكن أن له ثان : مقهور .

فأنتج هذا قطعا أن الحكم إنما هو الله الواحد القهار) أ. هـ

ومع جلاء هذه الحقيقة .. كأنما هى الشمس فى رائعة النهار ..

فإن بعض الغافلين - وإن علموها - لكنهم بسلوكهم يخالفونها :

يقول صاحب المنار :

(ومن العجب أن هذه الحقيقة التى بينها القرآن فى مئات من الآيات البينات : تتلى فى السور الكثيرة .

بالأساليب البليغة . صار يجهلها كثير من الذين يدعون اتباع القرآن :

فمنهم من يجهل حقيقة التوحيد نفسه : فيتوجهون إلى غير الله إذا مسهم الضر . أو عجزوا عن بعض مايحبون من النفع)

وفقه هذا المعنى يفرض على الداعية أن يراعى سلم الأوليات فى دعوته :

فيعلم أولا .. ثم يدعو إلى ماعلم ثانيا أما الهجوم .. قبل التعليم .. فهو إهمال لحق المدعو فى التعلم أولا .. ثم بعد ذلك يجئ التذكير .

ومن أجل ذلك يختم الحق تعالى الآية بقوله :

﴿ ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾

إنه - حقا وصدقا - ذلك الدين المستقيم .. لا يختلف فى ذلك اثنان

ولاينتطح فيه عنزان ..

ولكن الذى يدرك ذلك .. ويعلم أهميته .. هو المرشح وحده للاعتزاز به . والالتزام بقيمة .. وهم القلة القليلة ..

أما الكثرة الكاثرة .. فإنهم لايعلمون ذلك .. ومن ثم يشكلون خطرا على الدعوة .. فى معركة كان من الممكن الانتصار فيها ..

من ملامح الخطاب الدينى

على لسانه عليه السلام

يقول عزوجل :

﴿ ياصاحبى السجن .. ﴾

١- الحاكمية إنما هى لله عزوجل وحده .. وليست إلى " خيال المآته " الذى تعبدون .. فما هى إلا مجرد أسماء .. بلا مسميات : كلمات .. بلا معنى .. ليس لها وجود إلا فى خيال غلمان قريش.

٢- حاول إقناع التلاميذ بهذه الحقيقة بالمنطق الرياضى :

إن واحدا يضاف إليه واحداً لن يكون ثلاثه ..

والله إله واحد وهو خير من أرباب متفرقين .. يفسدون ولايصلحون .

٣- لم تكن أزمة صاحبى السجن " عقلية " فالكافرون معترفون بالله تعالى ربا .. ولكن مشكلتهم هى : توحيد الألوهية : فهم مطالبون بأن يسلموا بنتيجة اعترفوا بمقدماتها ..

لكنهم لايستجيبون لأنهم لايعلمون

٤- ويتم ذلك كله فى جو من التلطف والتودد .. ليكون قرار الإيمان ذاتيا .. وبلا إكراه ..

وهو رد على من يشغبون اليوم على الاسلام بحسبانه يحاول فرض عقيدته بالقوة ..

وهؤلاء المغرضون يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض :

(لقد ذكرت آية السرقة .. وآية الحجاب كلتاهما فى آية واحده .. وهم

يحاولون الاحتجاج بهما على عنف الإسلام . ورفضه للحرية . بيد أنهم وفى نفس الوقت .. يتجاهلون آلاف الآيات الداعية إلى العفو والتسامح ..

وأنه إذا كان فى المسلمين متعصبون قساة .. ففى كل الأديان .. كذلك ..

أما الإسلام .. أما القرآن .. فإنه يفتح كل النوافذ .. بعد ما أضاء النهار ..

٥- يقول المفسرون :

إن احترام يوسف عليه السلام لم يقتصر على الرفاق من النزلاء فقط ..

ولكنه استطاع أن يكسب ثقته رئيس السجن نفسه

والذى وكل إليه تدبير أمور السجن نائبا عنه لما رآه من المحسنين . فأكتسبت الدعوة به أرضا جديدة .

٦- لم يستسلم الداعية لظروف " البيئة " التى يعيش فيها .. ولكنه اختار الموقف الصعب : فكان هجوميا .. ولم يكن " مدافعا " .

وذلك حين واجه قومه بعيبهم الأكبر (.. ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها ...)

أجل : واجه مجتمعا مزيفا :

شارات الحرية .. وأخلاق العبيد

شعاره أن يكون " إمعة "

وهل أنا إلا كالزمان : إذا صحا صحوت .. وإن ماق الزمان أموق [1]

٧- عدم مواجهة المذنب بذنبه حتى لايستمر فى عناده .

وذلك قوله عزوجل : (إنى تركت ملة قوم ...)

---

(١) ماق الزمان : تأخر

يكفى أن تذكر محاسنك أنت .. دون التركيز على مساوئ المدعو ..

لأن ذلك مما يحزنه .. إذ قد يظن فيك معنى التعالى عليه .. والمحاسبة له .. وكأنك " الواحد الصحيح " وهو صفر على شمالك !!

وقد تغنى الإشارة عن العبارة " وإياك أعنى واسمعى ياجاره "

وربما تحسس المدعو فى نفسه معنى ماتقول فهداه التفكير إلى أن يكون معك لا عليك ..

٨- أهمية النصيحة - حتى فى أحلك الظروف . ومهما كانت التكاليف ..

فرارا من النفاق فى مواجهة الأمور والذى يذكرنا بما قاله رجل كان يردد دائما عند باب " الحجاج " :

أيارب نصح يغلق الباب دونه ∴ وغش إلى جنب السرير مقرب !

٩- أ- عاش يوسف فى حضارة مصر القديمة

ب- والتى حاولت إغراءه بالجنس

جـ- ولم يمنعه ذلك من النجاح فى دعوتهم إلى التوحيد

د- بل وصل إلى أرقى المناصب ..

وإذن فنجاح الداعية ليس فى حاجة إلى " عبقرية " وإنما هو ذكاء القلب .. والمثابرة .. وبهما سوف ننتصر اليوم على مدنية تريد توليد الإنسان عن طريق الأنابيب .. ليصير كائنا هشا .. مبتور الصلة بمجتمعه ؟

عـزة المؤمـن

يقول الله عزوجل :

﴿ وقال الملك آتونى به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدكن عليم ﴾ ٥٠

تمهيد

للحاشية حول الملك قدرة أحيانا على تزييف الحقائق .. وقلب الأوضاع .

وكان من حكمة الملك هنا أن يستدعى يوسف عليه السلام ليسمعه بنفسه .. ويتأكد - بطريق مباشر - كيف كان يوسف عليه السلام على أوفى ماتكون الطهارة والتعقل ..

وكانت المفاجأة المذهلة وهى :

أن الملك .. بما يملك من سلطان .. يرسل إلى يوسف ليلتقى به .. لكن الفتى المؤمن - وبعد آن مكث فى السجن اثنتى عشرة سنة - إذا به لا يستخفه الفرح بقرار الإفراج .. ثم لقاء الملك ..

ولكنه يملى شروطه مؤكدا أن الكرامة فوق كل اعتبار ..

ولقد علمت النسوة أن امرأة العزيز راودته .. وأنه رفض رغبتها بل وتحداها ..

وتلك هى قضيته اليوم متناسيا ماهى فيه من عناء وأسى .. ولم يجد الملك بدا من أن يسأل وبنفسه هؤلاء النسوة .. وبسؤالهن يتضح الحال .. وذلك هو شرطه الذى يمليه وعلى الملك نفسه ..

لقد حوربت الدعوة فى شخصه ..

وإذن فهو .. لا يدافع عن نفسه وإنما عن الدعوة التى رغب أن تخرج من

المعمعة طاهرة مطهرة فى شخص رجلها ..

ذلك بأن هناك حاسدين لها .. بل حاقدين عليها : يرونها بما هو فيهم .. وسوف يمضى وقت طويل قبل أن نمحو هذه التهم الباطلة ..

ومن ثم .. ففكرة الإفراج ليست هى القضية .. هى :

إعلان براءته على رءوس الأشهاد .. على الأقل لنفوت على هؤلاء الحاقدين غرضهم .. وقبل أن يصيبوا الدعوة فى مقتل ..

وياله من موقف عظيم نوه به رسولنا ﷺ :

قال ﷺ :

(نحن أحق بالشك من ابراهيم إذ قال : رب أرنى كيف تحيى الموتى .. ويرحم الله لوطا :

لقد كان يأوى إلى ركن شديد

ولو لبثت فى السجن مالبث يوسف لأجبت الداعى)(١)

ويخص ﷺ يوسف عليه السلام بمزيد من التقدير فى قوله ﷺ (فاسأله ما بال النسوة :

(لو كنت أنا لأسرعت بالإجابة وما ابتغيت العذر)

وفى قوله ﷺ :

(لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه . والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان .. ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى أشترط أن يخرجونى .

---

(١) البخارى : تفسير سورة يوسف / ٦ / ٩٧

ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه . والله يغفر له .. حين اتاه الرسول .. ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب . ولكنه أراد أن يكون له العذر) (١)

ويالها من شهادة عظيمة .. من رسول عظيم .. ولكن ..

ولكنا نقول :

إنه حين يعلن رسولنا ذلك .. فإنما هو : التواضع . وهضم النفس . وإلا فهو ﷺ أقوى الرسل عزما .. ولكن : من حقنا أن نتساءل :

لماذا لم يفعل يوسف ذلك ورفض ابتداء قرار الإفراج ؟

يقول الرازى :

(واعلم أن ما فعله يوسف من الصبر والتوقف إلى أن تفحص الملك عن حاله هو اللائق بالحزم والعقل . وبيانه من وجوه :

الأول :

أنه لو خرج فى الحال .. فربما كان يبقى فى قلب الملك من تلك التهمة أثرها .. فلما التمس من الملك أن يتفحص عن حال تلك الواقعة .. دل ذلك على براءته من تلك التهمة .. فبعد خروجه لا يستطيع أحد أن يلطخه بتلك الرذيلة . وأن يتوسل بها إلى الطعن فيه .

والثانى :

أن الإنسان الذى بقى فى السجن اثنتى عشرة سنه .. إذا طلبه الملك . وأمر بإخراجه .. الظاهر : أنه يبادر بالخروج .

فحيث لم يخرج .. عرف منه كونه فى نهاية العقل والصبر والثبات ،وذلك يصير سببا لأن يعتقد فيه بالبراءة عن جميع أنواع التهم . ولأن يحكم بأن كل ما قيل فيه كان كذبا وبهتانا .

(١) تفسير الطبرانى / الأثر / ١٩٤٠٢ / ١٦ / ١٣٦ والحديث : مرسل

والثالث :

أن التماسه من الملك أن يتفحص عن حاله من تلك النسوة يدل أيضا على شدة طهارته .. إذ لو كان ملوثا بوجه ما لكان خائفا أن يذكر ما سبق .

الرابع :

أنه حين قال للرسول (اذكرنى عند ربك) فبقى بسبب هذه الكلمة فى السجن بضع سنين .. وها هنا طلبه الملك . فلم يلتفت إليه ولم يقم بطلبه وزنا . واشتغل بإظهار براءته عن التهمة)

من دروس الدعـوة

١- لا بد من العلم سبيلا إلى خيرى الدنيا والآخرة .. وكذلك خرج يوسف بالعلم من المحنه .. من السجن إلى الوزارة : بالعلم .

٢- ومع العلم الأخلاق : وكذلك كان يوسف :

فقد منعه الحياء من ذكر امرأة العزيز .

وهو نفسه الذى فرض عليه التلويح بشأن النسوة ولم يكن منه تصريح . وترك الأمر للملك ليتصرف هو بما يراه .

٣- وكان من خلقه :

الصبر - والثبات - والحلم - وإيثار الكرامة

ومن حكمته :

أ- (وجوب الدفاع عن النفس . وإبطال التهم التى تخل بالشرف)

ب- ثم إنه (لم يذكر سيدته مع النسوه مع أنها أصل الفتنة : وفاء لزوجها . ورحمة بها) .

إن فى ذلك لعبرة لكل داعية مستهدف ليواصل اصطباره

إن انتصار الحق قد يتأخر..

ولكنه (لا يخفى طويلا . ولا يخزل طويلا)

السجين : يملى شروطة

يقول الله عزوجل :

(قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ماعلمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) / ٥١

تمهيد

لقد كان يوسف عليه السلام واقعا تحت ضغوط ثقيلة :

(أحدها :

أن كل واحدة من النسوة .. ربما طمعت فيه .. فلما لم تجد المطلوب . أخذت تطعن فيه . وتنسبه إلى القبيح .

وثانيها :

لعل كل واحدة منهن بالغت فى ترغيب يوسف فى موافقة سيدته على مرادها .

ويوسف علم أن مثل هذه الخيانة فى حق السيد المنعم لا تجوز)

ومهما يكن من أمر .. فقد خرج يوسف عليه السلام من المحنه منتصرا .

وكانت أولى بشائر انتصاره : أن الملك يخطب وده فيأمره بالإفراج عنه . ولكن يوسف يملى عليه شرطه .. وهو ما قاله لرسول الملك :

(اسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن)

والبال هو :

(الأمر الذى يهتم به . ويبحث عنه :

فهو يقول :

سله عن حاله . ليبحث عنه ويعرف حقيقته .. فلا أحب أن آتيه وأنا متهم بقضية عوقبت عليها بالسجن . وطال مكثى فيه .وأنا غير مذنب . فأقبل منه العفو)

إجراءات التحقيق

ويجمعهن الملك ائتمارا بأمر يوسف السجين ! ثم يسألهن :

(ما خطبكن الذى حملكن على مراودته عن نفسه ؟

هل كان عن ميل منكن إليه ؟ ومغازلة لكن قبلها ؟!

هل رأيتن منه استجابة بعدها ؟

أم ماذا كان سبب إلقائه فى السجن مع المجرمين ؟

قلن حاشا لله ما علمنا عليه من سوء) : أدنى سوء !: لا كبير . ولا صغير)

(قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق)

إنها تريد أن تقول :

(الآن : قد ظهر الحق فى جانب واحد :

لا خفاء فيه . ولا شبهة عليه :

فإن كان عواذلى شهدن بنفى السوء عنه . وهى شهادة نفى . فشهادتى له على نفسى شهادة إثبات :

(أنا راودته عن نفسه) وهو لم يراودنى . بل استعصم . وأعرض عنى . وإنه لمن الصادقين فيما اتهمنى به من قبل . وكمله : أدبه الأعلى . وكرمه الأسنى لمن أكرم مثواه . وأحسن إليه - على السكوت عنه إلى الآن .

ونحن جزيناه بالسيئة على الإحسان . وقد أقر الخصم . وارتفع النزاع)

ولقد انتزع يوسف هذه الشهادة من امرأة العزيز .. التى جاءت مكافأة له .. لأنه لم ينص على اسمها .. (فأرادت أن تكافئه على هذا الفعل الحسن) بهذه الشهادة القاطعة . العائدة بالحق إلى نصابه .

(ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب) أى : ذلك الإقرار بالحق له .. والشهادة بالصدق الذى علمته منه . ليعلم الآن - إذ يبلغه عنى - أنى لم أخنه بالغيب عنه . منذ سجن إلى الآن .. بالنيل من أمانته . أو الطعن فى شرفه وعفته ...

.. وهأنذا أقر بهذا أمام الملك . وملئه (وأن الله لا يهدى كيد الخائنين) من النساء والرجال .

بل تكون عاقبة نكالهن الفضيحة والنكال : ولقد كدنا له .. فصرف ربه عنه كيدنا . وسجناه .. فبرأه .. وفضح مكرنا حتى شهدنا له فى هذا المقام السامى على أنفسنا) وأحيانا ينصر الله تعالى الحق بالرجل الفاجر .. والمرأة الفاجرة .. ويكون من عقاب الله العاجل للظالم أن يعترف هو بجريمته .. ثم ببراءة المظلوم ..

وتجئ الشهادة بلفظ " حصحص " من قولنا : حصّ شعره إذا استأصل قطعه بحيث ظهر ماتحته ..

" وإنه لمن الصادقين "

فليس هو مجرد صادق .. وإنما هو واحد من مدرسة الصادقين : يحمل شارتها .. ويمكن معها لقيمة الصدق فى الأرض .

وهكذا :

تشهد له النسوة كلهن ..

ثم تشهد امرأة العزيز .. فتتم كلمة ربك صدقا وعدلا ..

(إنها الشهادة الكاملة بنظافته وبراءته . وصدقه : ولا تبالى المرأة ماوراءها مما يلم بها هى . ويلحق بإرادتها . فهل هو الحق وحده الذى يدفعها لهذا الإقرار فى حضرة الملك والملأ ؟

يشى السياق بحافز آخر هو :

حرصها على أن يحترمها الرجل المؤمن . الذى لم يعبأ بفتنتها الجسدية : أن يحترمها تقديرا لإيمانها وصدقها وأمانتها فى حقه)

(إنها امرأة أحبت .. وهى لا يملك . إزاء رجلها الذى أحبته - إلا أن تظل معلقة بكلمة منه . أو خاطرة ارتياح تحس أنها صدرت عنه)

ولقد حقق الله رغبتها ..

روى ابن كثير أن زوجها " إطفير " هلك : (وأن الملك زوج يوسف امرأة العزيز .

وأنها حين دخلت عليه قال :

أليس هذا خيرا مما كنت تريدين ؟ قال : فيزعمون أنها قالت :

أيها الصديق : لاتلمنى :

فإنى كنت امرأة كما ترى : حسناء جميلة : ناعمة فى ملك ودنيا .. وكان صاحبى لا يأتى النساء ؟!

وكنت : كما جعلك الله : فى حسنك وهيئتك على ما رأيت)

ويذكرون من قولها :

الحمد لله الذى جعل العبيد ملوكا .. بطاعته .. والملوك عبيدا بمعصيته.

الناس يتبادلون المواقع

يقول الله عزوجل :

(وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين . قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) ٥٤ - ٥٧

تمهيد

من الناس من يعترضك .. فإذا هو " عثرة " فى الطريق : تعثر به . ومنهم من يكون جوهرة " تعثر عليه " فإذا هو عون لك على مواصلة المسير ..

ولقد رأى الملك فى يوسف تلك الجوهرة .. التى يعثر عليها اليوم فماذا يصنع ؟

إذا كان الأديب يقول :

إن المرأة البدوية تمخض اللبن .. لتستخرج الزبد .. فماهو الظن بمن وجد بين يديه زبدا خالصا .. ماذا يقول .. وماذا يصنع ؟

لقد رأى الملك من خلق يوسف ومن خلقه .. ما أدهشه .. فقرر ما حكاه القرآن الكريم :

(ائتونى به استخلصه لنفسى فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين)

استخلصه لنفسى : لا يشركنى فيه أحد ..

وذلك بعدما " كلمه " : شهد له - واللسان فى الحقيقة إنسان - ثم لم يرد أن يكون ذلك التقدير سريا .. وإنما أراده مرسوما ملكيا علينا :

(إنك اليوم لدينا مكين أمين) تخلف الوزير المستنوق الخانع : تخلفه فى

وزارته : متمكنا .. ثابتا .. وطيد الاركان .. والأمر فى يدك من الآن .. وإذن .. فالقضية فى يد أمينه !

وإذا كان البحر لا يجتمع فى قطرة والروض لا يحصر فى زهرة فقد اجتمع فى يوسف ما تفرق فى الأبرار من عناصر الخير .. وعليه أن يختار .. بعد ما نجح فى الاختبار ..

وقد اختار فعلا ما حكته الآيه الكريمة :

(قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم)

وقد يتساءل ناس هنا : كيف يطلب المنصب .. وهو من هو زهدا فى المناصب وما يجره من معاطب ؟!

والجواب عند ابن كثير الذى قال :

(وسأل العمل .. لعلمه بقدرته عليه . ولما فى ذلك من الصالح للناس .

وإنما سأل أن يجُعل فيها الغلات .. لما يستقبلونه من السنين التى أخبرهم بشأنها ليتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد .فأجيب إلى ذلك . رغبة فيه .. وتكرمة له)

وربما جاز لنا أن نقول :

إن قليلا من تدبر الآيات يعفينا من هذا السؤال : فالملك هو الذى بدأ تصريحا لاتلويحا :

(إنك اليوم لدينا مكين أمين)

يريد : قد صرت ذا مكانة وأمانه ..

فإذا كان يوسف قد مدح نفسه .. فإن ذلك جائز .. متى جهل أمر الرجل .

ودعت الحاجة إلى ذلك .

لكن يوسف عليه السلام لم يمدح نفسه ..

ولكن لما رأى نية الملك معقودة على تقديره .. وتحميله مسئولية ما .. وجد من واجبه أن يطلب وضعه فى مكانه المناسب : أمينا على خزائن الأرض .

وقد عرض الفخر الرازى هذه القضية على النحو المستقصى كل احتمال :

(لقائل أن يقول :

لم طلب يوسف الإدارة والنبى عليه الصلاة والسلام قال لعبد الرحمن بن سحره : " لا تسأل الإماره "

وأيضا : فكيف طلب الإمارة من سلطان كافر ؟!!

وأيضا : لِمَ لم يصبر مدة .. ولم أظهر الرغبة فى طلب الإمارة فى الحال ؟!

وأيضا : طلب أمر الخزائن فى أول الأمر .. مع أن هذا يورث نوع تهمة ؟

وأيضا : كيف جوز من نفسه مدحَ نفسه بقوله :

" إنى حفيظ عليم " مع أنه " شاء الله بدليل قوله تعالى " ولا تقولن لشئ إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله "

فهذه أسئلة سبعه لابد من جوابها)

وكان جوابها هو :

الأصل فى جواب هذه المسائل : أن التصرف فى أمور الخلق كان واجبا عليه فجاز أن يتوصل إليه بأى طريق كان

وانما قلنا : إن ذلك التصرف كان واجبا عليه لوجوه :

الأول :

أنه كان رسولا حقا من الله تعالى إلى الخلق . والرسول يجب عليه رعاية

مصالح الأمة بقدر الإمكان .

والثانى : هو

أنه عليه السلام علم بالوحى أنه سيحصل القحط والضيق الشديد . الذى ربما أفضى إلى هلاك الخلق العظيم . فلعله تعالى أمره بأن يدبر فى ذلك . ويأتى بطريق لأجله يقل ضرر ذلك القحط فى حق الخلق .

والثالث :

أن السعى فى إيصال النفع إلى المستحقين . ودفع الضرر عنهم أمر مستحسن فى العقول

وإذا ثبت هذا فنقول :

إنه عليه السلام كان مكلفا برعاية مصالح الخلق من هذه الوجوه . وما كان يمكنه رعايتها إلا بهذا الطريق .. ومالا يتم الواجب إلا به فهو واجب

(وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين)

فالرحمة الإلهية " مصيبة " لاشك هدفها .. وهم المحسنون فى الدنيا وفى طليعتهم : يوسف عليه السلام والذى كان من تمكينه تلك القمة الثنائيه مع الملك .. وفى غياب وزيره العزيز .. والذى يتوارى تاركا الساحة ليوسف عليه السلام .. وهو مالم يكن يدور فى خلد أحد .

أتته الخلافة منقادة ⁖ إليه تجرجر أذيا لها

فلم تك تصلح إلا له ⁖ ولم يك يصلح إلا لها

(ولأجر الآخرة خير الذين آمنوا وكانوا يتقون)

من بلاء الإنسان
إلى بلاء الأوطان

يقول الله عزوجل :

(قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم) ٥٥

يقول القضاعي في المقصود بالأرض هنا :

(أي : أرض مصر التي هي لكثرة خيرها كأنها الأرض)

وهكذا كانت مصر - ولاتزال - سلة تحمل للناس غذاءهم - فتمت بها نعمة الأمن الغذائي والأمن النفسي معا ..

ولكن الدعاية المغرضة ما يزال لها دوي لدى بعض الناس :

حتى قال " عبد الله بن الحكم " للإمام الشافعي عندما قرر الرحيل إلى مصر .. قال له :

(إذ أردت أن تسكن في مصر .. فليكن لديك قوت سنة . ومجلس للسلطان تتعزز به)

وكان رد " الشافعي " حاسما قاصما إذ قال له :

يا أبا محمد :

من لم تعزه التقوى .. فلا عز له :

ولقد ولدت " بعزة " وربيت بالحجاز .. وما عندنا قوت يوم .. وما بتنا جياعا قط .

ثم قال :

وأفلست ثلاث مرات : فكنت أبيع قليلي وكثيري . حتى حليّ ابنتي

وزوجتى . ولم استدن قط !!

وتأمل : كيف ساءت فكرة " عبدالله بن الحكم " عن مصر . حتى حذر الإمام من الإقامة فيها إلا بالاحتياط الشديد فى أمر الرزق . وأمر السلطان معا..

وإذ لم يرد الإمكام الدخول مع ابن الحكم فى مهاترات .. فإنه آثر أن يتقنه درسا فى التوكل على الله عز وجل .. وفيما يشتق منه : اعتزازا بالله سبحانه وتعالى ..

يريد بذلك محو هذه الفكرة من ذهنه .. جاعلا من إيثاره الرحيل إليها . والبقاء فيها ردا عمليا على هذا الزعم .

وهكذا : بعد ابتلاء يوسف الإنسان .. تبتلى الأوطان .. وكما كان يوسف عليه السلام بكماله وعفته ردا على هذا البهتان .. فقد قيض الله لمصر العزيزه من يدفع هذا الهذيان :

بمثل قوله الشافعى ..

وبمثل ماقاله أحد مستشارى المأمون .. عندما انبرى يدافع عن مصر وجمالها . وطيب المقام فيها :

فى واحد من مجالس المأمون .. قال يوما :

لعن الله فرعون حيث يقول ما حكاه القرآن :

(أليس لى ملك مصر) .. فلو رأى العراق وخصبها ؟!!

وجاء الرد من أحد مستشاريه قائلا :

يا أمير المؤمنين : لاتقل هذا !! فإن الله عزوجل قال :

(ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون)

فماظنك بشئ دمره الله . هذا بقيته ؟!!

أى : أن مصر الغنية بمواردها . الخصبة بزروعها وأنهارها .. عندما لم يشكر فرعون ما فيها من نعمة .. دمر الله عليه ماكان يتقلب فيه من نعيم .. ومع هذا التدمير .. فقد بقى فيها من الجمال والجلال مافيها الآن .. فكيف كان جمالها وجلالها قبل التدمير .. بل أين منها أمم الأرض جميعا ؟!!

وأكبر من هذا كله قيم مصر .. وتقاليد مصر :

فقد اعترفت النسوة بالحق بعد ماتبين : وذلك قولهن :

(حاش لله ما علمنا عليه من سوء).

بل إن امرأة العزيز نفسها تنتصر على الضغوط من داخلها فتعترف بطهارته وإبائه صراحة :

(قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين)

إنه ليس فقط متصنعا بالصدق .. ولكنه واحد من رواد مدرسة الصادقين : متمكن من الصدق . راسخ القدم فيه . كما أشرنا .

والملك .. وهو رأس الدولة : يتابع أمور الدولة بنفسه فلا أبواب ولا حجاب :

ثم هو يبحث عن الكفايات النادرة - وبنفسه أيضا - ليكل إليها أمور الدولة :

(وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين)

لقد سمع عنه ما تعجب منه .. ولكنه مع شدة عجبه .. لم يعتمد على أقوال الحاشية .. ولكنه عقد معه لقاء شخصيا ليبين الحق بنفسه

(فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين)

وهذه هى " المقابلة الشخصية " التى انتهت " بإعجابه " بعد " تعجبه " منه .. مما شجع يوسف عليه السلام ليطلب الإمارة انطلاقا من إحساسه العميق بأهليته لها .. بعدما استشعر قدرته عليها .. بما كان يملك من : العلم ، وهذه ناحية فنية - وما كان يملك من " الحفظ " وهذه ناحية أخلاقية - فكان بذلك مثالا يحتذى . وقدوة ينسج الناس على منوالها :

(وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء)

وتلك سنة الله عزوجل فى كل من سار على نفس الدرب :

(نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين)

نصيب (فيبدله من العسر يسرا . ومن الضيق فرجا . ومن الخوف آمنا . ومن القيد حرية . ومن الهوان على الناس عزا ومقاما عليا . (ولانضيع أجر المحسنين) :

الذين يحسنون الإيمان بالله . والتوكل عليه . والاتجاه إليه . ويحسنون السلوك والعمل والتصرف مع الناس .

وهذا فى الدنيا :

(ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ..) أجل : نصيب إصابة لاتخطئ الهدف أبدا ..

نصيب المحسنين فقط .. أما المقصرون فعلى نفسها جنت براقش ..

ومازالت مصر أهلا لهذا التكريم ما دفعت ثمن هذا التكريم .. لقد سجن يوسف .. فلما اصطبر على محنة السجن جاءه الفرج .. كما صبر " يونس " عليه السلام على سجن " الحوت " .. ثم جاءه الفرج ..

لا بد من العلم : من الخبرة .. ولابد من الأخلاق تحرس هذا العلم

أمـا بعـد:

فقد سرقت ثلاث قطع أثرية فقامت الدولة ولم تقعد حين سرقت قطعة من التاريخ ..

فكيف بمن يسرقون " الحفظ " : من يسرقون الأخلاق ؟!

إن الرغبة فى الإنقاذ أمل يعمر قلوبنا جميعا ..

ولكن الرغبة فى الإصلاح وحدها لا تقوى على دفع البلاء :

لا بد من العمل الإيجابى .. لنعود بالأمة إلى حيث تقود العالم بما تملك من أمن نفسى وأمن غذائى معا :

الإسلام طريق السلام

إن مصر التى بقيت خصبة طيبة الماء والهواء .

هى أيضا خصبة بما تملك من رجال - يحرسون الحق أبدا .. وعلى أيديهم تجئ البركة ويعم الرضاء .

وأين منهـا أمم أخـرى فـتـحت على المسلمين فكانت بابا هبت منه ريح عاصف :

جاء فى الحديث [1]

(إذا فتحت عليكم فارس والروم .. أى قوم أنتم ؟

قيل :

نكون كما أمرنا الله تعالى (أى شاكرين حامدين)

قال :

أو غير ذلك :

(١) الحديث فى الجامع الكبير برقم ١٣٢٢ / ٢٢٣٣

تتنافسون . ثم تتحاسدون . ثم تتدابرون . ثم تتباغضون .

ثم تنطلقون فى مساكن المهاجرين فتجعلون بعضهم على رقاب بعض)[١]

(١) نفس المرجع والموضع

درس فى الدعـوة

لقد علم الرسول ﷺ من أبى ذر حدة طبعه الحامل له أحيانا على الثورة والصدام !

وحـرصـا منـه ﷺ أن تبقى مصر كالعهد بها آمنة مطمئنة نبه أباذر أن يخرج من مصر إذا رأى اثنين يتخاصمان فى أمر من أمور الدنيا !!

ولقد رأى الخلاف ينشأ بين أخوين .. فهاجر من مصر .. وفى قلبه جمرة متقدة لو تركها تنفجر لتركته رمادا !!

الا .. فليكن الحماس ظاهرة صحية .. ودليلا على الصحوة الاسلامية المباركة ..

ولكن حذار أن يعبر الحماس عن نفسه بالصدام .. حفاظا على مصر .. الغنية بدينها .. ورجالها .. ومائها وهوائها !؟

ولقد كان فتح فارس والروم ركوبا إلى متاعب انداحت دائرتها ..

والرسـول ﷺ يرسم خط الانحـراف .. البـادئ بالتنافس .. المنتـهى بالتحاسد ..

ثم يتحول الحسد إلى تدابر وتنافر ينقلب فى النهاية بغضا .. ينعكس على صورة الحكم حين يجعلون من الضعفاء أمراء بعضهم على بعض فتفسد مرافق الدولة .

أما بعـد

فيقول أحد الباحثين :

إن الخير لا يأتى إلا بالخير ، وشمس الإسلام حين أشرقت على مصر ملأت ربوعها نورا وضياء وأعادت لأهلها عزا فقدوه منذ القدم ولكى تدرك فضل

الإسلام على مصر لابد أن تعرف أولا حال مصر قبل الإسلام .

- إن التاريخ يذكر لنا أن مصر ظلت دهورا فى قبضة الطغاة على اختلاف اجناسهم وألوانهم ، فهى أولا ظلت فى أيدى الفراعين المتكبرين الذين استعبدوا أهلها وحكموها بالحديد والنار فترة طويلة ، ثم استعمرها الفرس لمدة ١٥٠ عاما ثم استعمرها اليونانيون لمدة ٣٠٠ عام ، ثم رزحت تحت الاستعمار الرومانى لمدة ٦٠٠ عام حتى جاء الإسلام .

عهد الرومان :

- وإذا كان الاستعمار الرومانى هو الأقرب عهدا ، فإن التاريخ يذكر ما فيه من ظلم وطغيان للشعب المصرى ، فالرومان فى البداية كانوا عبدة أصنام لذلك كانوا يضطهدون القبط فى مصر الذين كانوا على دين المسيح عليه الصلاة والسلام .

حتى بعد أن دخل الدين المسيحى روما فإنهم كانوا على مذهب آخر مخالف للمذهب الذين كان فى مصر ، فظل الاضطهاد أيضا للاختلاف المذهبى .

- ومن النماذج التى يذكرها التاريخ لهذا الاضطهاد أن الرومان كانوا يربطون المصرى فى فرس من أقدامه ثم يطوفون به شوارع الإسكندرية حتى تفصل رأسه عن جسده .

- كما أنهم فرضوا على أهلها ضرائب تنوء بها الجبال ، واستحدثوا أنواعاً غريبة من الضرائب تستدعى الضحك قبل البكاء ، ومن هذه الأنواع مثلا " ضريبة تسمى ضريبة الرأس " أى ضريبة على كل إنسان لأنه إلى الآن يحمل رأسه ولم تقطع ، وضريبة على الأرض ، وعلى البيت ، وعلى الأغنام ، وعلى الطريق ، بل هناك ضريبة على الملح ، وعلى الموت وعلى الدفن .... إلى آخر هذا العبث .

- مما دفع كثيراً من المصريين إلى الهرب فى الجبال ، وأنشأوا لأنفسهم أديرة وترهبن أكثرهم حتى جاء الإسلام فأعادهم إلى ديارهم وأهلهم .

وتكاد تجمع كتب التاريخ على أن الشعب المصرى كان مرحبا بالإسلام وجنوده ، بل وساعدوا المسلمين على الفتح حتى أن المقوقس عظيم مصر وقتها يذكر فى كتب التاريخ العربى إلى الآن بالخائن لأنه فتح أبواب مصر أمام الجيش الإسلامى .

لم استجاب المصريون للإسلام ؟

ليس الاضطهاد وحده هو الذى دفع المصريين إلى الدخول فى الإسلام والاستجابه له لكن التاريخ يشهد بأن مصر عاشت فترات طويلة تسعد بالحكم الإسلامى ..... فهذا يوسف الصديق الذى (حكم مصر بالإسلام) واستوطنها وإخوته ووالده فترة ليست بالقصيرة ، وأرسى فيها عقيدة التوحيد .

وهذا موسى عليه السلام بعد إذ نجاه الله من فرعون وأورثه الله أرض مصر فى هذه الزمان وقال تعالى (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها)

وهكذا تخرج " مصر " من سجن البلاء إلى رحاب الرخاء .. بالإسلام ..

حتى يجئ حكمنا صادقا

يقولون :

لا يستقيم الحكم على شعب إلا إذا عرفت :

هواءه .. وماءه .. وأرضه

ومصر بهذا المفهوم من أكرم بلاد الله .. حتى قال بعض الباحثين :

إن معنى " مصر " فى اللغة المصرية القديمة : الأرض الطيبة

كرامة الإنسان

بعد كرامة المكان

وتأتى كرامة الإنسان بعد كرامة المكان .. وذلك مأخوذ من شهادته ﷺ لأهلها فى قوله :

(الله الله فى قبط مصر : فإنكم ستظهرون عليهم . ويكونون لكم عدة وأعوانا فى سبيل الله) رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح . كما فى مجمع الزوائد ١٠ / ٦٢

وفى رواية أخرى (.. فاستوصوا بهم خيرا . فإنهم قوة لكم وبلاغ إلى عدوكم بإذن الله) رواه ابن حبان فى صحيحه / مجمع الزوائد ٦٤/١٠

وتتلخص أسباب هذا التكريم فى هذه الأحاديث وغيرها :

أ- صفاء الفطرة المصريه واستعدادها للانسجام مع الحق . بل واعتناقه والدفاع عنه .

ب- (إن لهم ذمة ورحما ..) صحيح مسلم باب وصيته ﷺ بأهل مصر فالرحم : كون هاجر منهم والصهر كون مارية منهم .

ج- إنهم خير أجناد الله فى الأرض .. وقيمة هذه الشهادة أنها كانت قبل

إسلام أهل مصر .. الذين صاروا بالإسلام سندا له .

ولكن التكريم لم يكن لمجرد هذا النسب وحده ..

ولكنه مردود فى جانبه الأهم إلى الطبيعة المصرية الأصيلة النبيلة . وما جبلت عليه من فروسية وماحملوا من مسئولية الجهاد إلى الأبد :

فمن حديث عمروبن العاص :

(إذا فتح الله عليكم مصر بعد . فاتخذوا منها جندا كثيفا .

فذاك الجند خير أجناد الأرض

قال أبوبكر :

ولم ذاك يارسول الله ؟

قال :

لأنهم فى رباط إلى يوم القيامة)

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ :

(إنتم ستفتحون مصر . وهى أرض يسمى فيها " القيراط " فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها . فإن لهم ذمة ورحما .

أو قال : ذمة وصهرا .

فإذا ترأيت رجلين يختصمان فيها فى موضع لبنة فاخرج منها قال :

فرأيت عبد الرحمن بن شرحبيل بن حسنه وأخاه ربيعة يختصمان فى موضع لبنه . فخرجت منها) رواه مسلم كتاب الفضائل

ولخبرة الصحابى عمرو بن العاص التجارية ومعرفته بالبلاد أخذ يلح

على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ليأذن له فى فتح مصر، وفى النهاية استجاب عمر فانطلق عمرو بن العاص إلى مصر ويدخل العريش ثم تحدث بينه وبين والى مصر مراسلات ومصالحات على الجزية وعرض الدين على الناس يقول عمرو: (لقد جمعنا ما فى أيدينا من السبايا واجتمعت النصارى فجعلنا نأتى بالرجل ممن فى أيدينا ثم نخيره بين الإسلام وبين النصرانية (لاحظ) فإذا اختار الإسلام كبرنا تكبيرة هى أشد من تكبيرنا حين نفتح قرية، ثم نحوزه إلينا . وإذا اختا ر النصرانية نخرت النصارى ثم حازوه إليهم، ووضعنا عليه الجزية وجزعنا من ذلك جزعاً شديداً، حتى كأنه رجل خرج منا إليهم ....) .

وهذا نص عجيب تلحظ فيه أموراً كثيرة:

منها: أن المسلمين أعادوا السبايا والأسرى إلى ساحة العرض، كأنهم لم يحاربوا ثم عرض عليهم الدين مثل غيرهم، لأن القصد الأول إدخال الناس فى دين الله وليس أسر الناس أو أخذ الغنائم منهم .

ومنها: هذا الحب والفرح بدخول أحد الناس فى الإسلام، والعكس صحيح فهناك حزن شديد ان اختار دين قومه، مما يعنى حرص الجيوش المسلمة على الغاية من الفتح، ولذلك نقلت كتب التاريخ أن عمرو بن العاص أرسل إلى أبى مريم - أى رئيس النصارى، وكذا بعث إلى أبى مريام - رئيس الأسقف ثم قال: " أنتما راهبا هذه البلدة فاسمعا ":

" إن الله بعث محمدا ﷺ بالحق وأمره به ثم مضى صلوات الله عليه ورحمته وقد قضى الذى عليه، وتركنا على الواضحة، وكان مما أمرنا به الإعذار إلى الناس فنحن ندعوكم إلى الإسلام فمن أجابنا إليه فمثلنا، ومن لم يجبنا عرضنا عليه الجزية وبذلنا له المنعة، وقد علمنا أن مفتتحوكم وأوصانا بكم حفظا لرحمنا فيكم وإن لكم إن أجبتمونا بذلك ذمة إلى ذمة .....

ومما عهد إلينا أميرنا استوصوا بالقبطيين خيرا لأن لهم رحما وذمة،

قالوا أمهلنا حتى نرجع إليك ، قال : إن مثلى لا يخدع ، ولكن أؤجلكم ثلاثا لتنظروا ولتناظروا قومكما وإلا ناجزناكم قالا : زدنا ، فزادهم يوما ، فقالا : زدنا، فزادهم يوما فرجعا إلى المقوقس فهم (أى : هم بالدخول فى الإسلام) فأبى أرطبون - قائد الجيوش - أن يجيبها وأمر بمناهدتهم .

وهذا النص تلمح فيه غاية الفتوح ، وسماحة الإسلام ، ووفاء المسلمين بالعهد .... إلخ

أما غاية الفتوح :

فهى الدعوة إلى دين الله ، وعرض الإسلام بالناس ، ونزع السلطان الذى يحول بين الناس وبين اختيار الدين الحق ، إن عمرو بن العاص يقول : " وكان مما أمرنا به الإعذار إلى الناس فنحن ندعوهم إلى الإسلام " والإعذار إلى الناس أى : تبليغهم الإسلام حتى يكون لهم يوم القيامة عذر، ولو أن الأمر قهر على الدخول كما يدعى المغرضون ، فلم بقى من بقى على دينه ؟ ولم بقيت دور العبادة لهم شاهدة على كذب ادعائهم إلى الآن ؟

وأما السماحة :

فتلحظها فى قول عمرو " فمن أجابنا إلى الإسلام فمثلنا " حتى بعد ما فعل من قتال وعداء .. فالإسلام يمحو كل ما مضى ، والعداء ليس شخصيا ، لذلك جئ بالأسرى الذين حاربوا ثلاثة أشهر وعرض عليهم الإسلام فمن أسلم فهو واحد من المسلمين ومن أبى عرضت عليه الجزية وخلى سبيله ، والجزية فى نظير الدفاع عنه ، ومنعه من أن يصيبه أذى ، يقول عمرو : " ومن لم يجبنا عرضنا عليه الجزية وبذلنا له المنعة ".

مصــــــر
فى مــرآة القــرآن

يقول عز وجل :

﴿ وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ﴾ ٥٨

ويقول تعالى :

﴿ فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين ﴾ ٨٩

وتظل مصر البلد المعطاء :

غوث اللهيف .. وبغية الطالبين .. والجائعين :

يقول صاحب المنار تفسير اللآية الكريمة :

﴿ أصابنا ضر المجاعة : من هزال وضعف .. وجئنا ببضاعة مزجاة :

رديئة : من شأنها أن يدفعها التجار . ويردوها احتقارلها . إذ لم يبق عندنا غيرها . ﴾

وهاهم أولاء إخوة يوسف :

(يجيئون من البدو : من أرض كنعان البعيدة .. يبحثون عن الطعام فى مصر . ومن ذلك ندرك اتساع دائرة المجاعة . كما ندرك كيف وقفت مصر - بتدبير يوسف - منها .. وكيف كانت محط أنظار جيرانها . ومخزن الطعام - أو سلة الطعام - فى المنطقة كلها) (١)

هذا مقام مصر :

أما قيمتها الحقيقة .. فإنك تدركها فى مرآة القرآن .. الذى كرر ذكرها :

---

(١) فى ظلال القرآن

تنويها بها .

ليست سبعة بل خمس عشرة - يقول باحث :-

علق قارئ فى بريد الأهرام على ماذكرت فى مقال سابق من أن مصر وردت بالقرآن الكريم فى كثير من سبعة مواضع .. فقال يراجعنى .. بل خمسة مواضع فقط وقد جاءنى رد مطول من عالم فاضل من علماء الأزهر الشريف هو الأستاذ محمود متولى يعدد للقارئ خمس عشرة آية ذكرت فيها مصر وأماكن محددة فى مصر .. منها : وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوا لقومكما بمصر بيوتا

(٨٧ - يونس)

وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه

(٢١ - يوسف)

وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين

(٩٩ - يوسف)

ونادى فرعون فى قومه قال ياقوم أليس لى ملك مصر

(٥١ - الزخرف)

اهبطوا مصر فأن لكم ما سألتم

(٦١ - البقرة)

وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين

(٢٠- المؤمنون)

والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الآمين

(١ - التين)

وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا

(٥٢- مريم)

ووعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى

(٨٠ - طه)

فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا

(٢٩- الشعراء)

فلما أتاها نودى من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة

(٣٠- القصص)

ياموسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى

(١٢- طه)

وما كنت بجانب الغربى اذ قضينا إلى موسى الآمر

(٤٤ - القصص)

وما كنت بجانب الطور إذ نادينا

(٤٦ القصص)

وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين

(٥٠ - المؤمنون)

وما كانت الربوة ذات القرار والمعين الا مصر المحروسة (المطرية بالذات)

وما الطور والوادى الأيمن وجانب الطور الأيمن وطور سيناء والبقعة المباركة من الشجرة والوادى المقدس طوى .. الا أماكن بعينها فى مصر فى شبه

جزيرة سيناء المصرية لحما ودما والمذكورة باسمها ونصها فى الكتاب الكريم ..

وما ذكرت تفاصيل وأمكنة بهذه الكثرة وبهذا التخصيص فى القرآن الكريم إلا عن مصر.

وقد قال نبينا فى الحديث الثابت : ان أهل مصر فى رباط إلى يوم القيامة.. وقال ان جندها خير أجناد الأرض .. وكانت زوجة مريم القبطية من مصر من المنيا وكانت أم ابنه ابراهيم وقد اطلق نبينا على مصر اسم الكنانة هى الحقيبة التى يحفظ بها المقاتل سهامه .. فأهلها سهام الحق .. وتلك بركة عظيمة ومنزلة عالية .. وإذا كان الفراعين القدامى طغوا بها والفراعين الجدد أفسدوا فيها وهدموا اقتصادهم .. فانها محفوظة ببركة الله رغم المحن محفوفة باللطف الالهى رغم البلايا .. وهى أغنى بلاد العالم فقد سرقها التتار والهكسرس والفرس والرومان والفرنسيس والانجليز وسرقها أهلها ومع ذلك مازالت بخير ومازالت كنوزها تحت الأرض وتحت البحر حلم المستثمرين.

أما بعد

فتأمل قوله ﷺ عن رجال مصر إنها فى رباط إلى يوم القيامة

وان جندها أخيار الأرض ..

لم يقل أحسن ولاأقوى.. فالخير معقود بنواصيها.. وإلى يوم القيامة .أ.هـ

نقل السيوطى فى كتابه " حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة " عن الكندى تعليقه على طائفة من آيات القرآن الكريم . قال : (لايعلم بلد فى أقطار الأرض أثنى الله عليه فى القرآن الكريم بمثل هذا الثناء .

ولا وصفه بمثل هذا الوصف .. ولا شهد له بالكرم غير مصر . ولا غرو تكون بما وصفها الخلاق العظيم مثابة للناس وأمنا . وتكون الحاضرة وماسواها بدوا)

وقد لفت نظرى أحد الزملاء [1] الكرام إلى معنى مهم هو :

أن مصر ماذكرت فى آيه إلا اقترن بها الخير .. وقد عدت إلى الايات الكريمة استلهمها ذلك المعنى . فكان ما قاله الزميل صدقا :

يقول تعالى :

(اهبطوا مصرا فإن لكم ماسألتم ..) البقره - ٦١

فمصر بغير تنوين .. تعنى الوطن المعروف ..

وحتى ذهب بعض من قال بالتنوين إلى أنها أيضا تعنى مصر الوطن .. وإذن .. فقد ذكرت مصر التى كانت " سلة " تحمل الخير لكل قادم .. ففيها من الخيرات : مايسر الناظرين . وما يشبع الآكلين أيضا .

ونقرأ قوله تعالى :

" وقال الذى اشتراه من مصر أكرمى مثواه .. " يوسف ٢١

وهذه قيمة " كرم الضيافة " التى هى خط بارز فى شخصية المصرى . حتى قبل أن يكرمها الله تعالى بالإسلام .

ثم منطلق المسلم .. المسالم التواضع كما نطق به يوسف عليه السلام

---

(١) الاستاذ/ أحمد الجيوشى . المفتش العام للغة العربية شبين الكوم

(رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والارض توفنى مسلما والحقنى بالصالحين) يوسف ١٠١

أجل .. ستظل مصر بلد الأمان .. والعفو .. والواصل بها إلى قمة الإحسان..

وتذكروا عندما ضرب موسى عليه السلام مصر يافمات بقضاء الله تعالى .. وكيف عاد إليها عليه السلام مرة أخرى وبعد زواجه من ابنه الرجل الصالح فى مدين .. فلم يؤخذ بجريرته .. بل لم يلق من أهلها إلا خيرا ..

فليقل من شاء .. ماشاء ..

فستبقى مصر إن شاء الله فى عين الله ..

وسيبقى أهلها يبذلون فطرة الخير فيهم ..

وأولى الناس بخيرها .. وعفوها .. هؤلاء الذين يسيئون إليها .. لو عادوا تائبين .

ثم نتأمل قوله تعالى :

(وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا) يونس ٨٧

ويعنى ذلك :

أن مصر بلد القرار والسكن .. وذلك معنى التبوأ .. ثم هى .. البيت .. الكبير يأوى إليه الغريب .. من البيتوته .. وهى الإغفاءة الوادعة ..

ثم نقرأ قوله تعالى :

(ونادى فرعون فى قومه أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى) الزخرف ٥١

فقرعون الطاغيه يفخر أولا بأنه يملك مصر .. ويكفيه هذا .. بعد ذلك

يجئ ذكر الخير :

من الأنهار .. وهى رمز الخصب والنماء .

ثم هى أنهار جارية :

وجريانها يرمز إلى :

قيمة الجمال ..

وأن جريان الماء مانع من فساده ..

ثم نذكر قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام :

(ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) يوسف ٩٩

وإذن فمصر بلد الأمان .. يجد فيها الخائفون الحائرون برد السلوى .

والتى صارت بالإسلام واحة ظليلة .. ندرك وجه النعمة فيها إذا ما تأملنا منطق الغرور على لسان فرعون القائل فيما حكاه القرآن :

(أليس لى ملك مصر ..)

يقول أحد الباحثين :

(لقد جاء الهكسوس إلى مصر وانتصروا على الفراعنة وحكموا مصر بالإسلام ، وهذا شاهد على أن مصر سعدت كثيرا بالإسلام وتعطشت له زمناً طويلا فلما جاءها قابلته مقابلة الأم لوليدها الغائب ، لأنه مستقر فى القلوب ، حتى فى زمن فرعون لم يخل المصريون من الإسلام ويثبت القرآن الكريم هذا فيقول (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ....) غافر ٢٨ ، بل إنه يظل يذكرهم بالدين والإسلام حتى يقول (ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ....) آية ٣٤ .

ماذا قدم الإسلام لمصر :

١- إن أول شئ قدمه الإسلام لمصر هو إعادة الروح الدينية الحقة إليها بعد غياب طويل ، وهو بذلك كأنه أعاد إليها الحياة .

٢- جعل خيراتها لها وليس لغيرها ، فلقد ظلت مصر قروناً طويلة تنتج وينعم غيرها بزروعها وثمارها ، بل انها عرفت منذ القدم بأنها سلة غلال أوربا

ومما تذكره كتب التاريخ أن الحاكم الرومانى " أوكتانيوس " غزا مصر وسك عملة سماها " فتح مصر " وأرسل بها إلى روما ليبشر الشعب الرومانى بالأمن الغذائى بعد المجاعات العديدة التى تعرضت لها روما .

أين هذا مما فعله الإسلام بمصر حيث جعل زروعها وثمارها لأهلها ، ولما حدثت مجاعة فى المدينة فى عهد عمر أرسل إلى عمرو بن العاص ليرسل إليه من الطعام لنجدة الناس فبعث إليه عمرو بقافلة أولها فى المدينة وآخرها فى مصر ، مما يعنى أن خير مصر كان لأهلها فقط اللهم إلا وقت المجاعات فى الأقطار الإسلامية الأخرى .

٣- زرع الإسلام الأمن والأمان فى قلوب المصريين جميعا وأعاد المطرودين والفارين إلى ديارهم مما جعل الخير يزداد والأرض تخرج ما فى رحمها من ثمار.

٤- أشاع الإسلام فى مصر اللغة العربية وهى اللغة الدولية العظمى فى ذلك الوقت حيث كان العالم يتكلم أغلبه بها لكثرة الفتوحات فيه من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب .

٥- ربى الإسلام أهل مصر على العزة والإباء بعد الخسف الذى عاشوه قبل ذلك مما دفع المصرى إلى شكاية عمرو بن العاص وولده لدى خليفة المسلمين عمر فى المدينة .

٦- جعل الإسلام من مصر قلعة وحصنا منيعا ولذلك انكسرت على صخرتها جيوش الصليبين والتتار ، ... ولله در الشاعر قال :

أنا إن قدر الإله مماتى　　　　لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى) أ.هـ

كم من محتقر احتيج إليه

تمهيد

يقول ابن الجوزي :

(مما أفادتني تجارب الزمان :

أنه لاينبغي لأحد أن يظاهر بالعداوة أحدا ما استطاع :

فإنه ربما يحتاج إليه . مهما كانت منزلته :

وإن الإنسان ربما لايظن الحاجة إلى مثله يوما ما .. كما لايحتاج إلى " عويد " منبوذ لا يلتفت إليه لكن .لكم من محتقر احتيج إليه :

فإذا لم تقع الحاجة إلى ذلك الشخص في جلب نفع . وقعت الحاجة في دفع ضر .

ولقد احتجت في عمري إلى ملاطفة أقوام .. ما خطرلي قط وقوع الحاجة إلى التلطف بهم .

واعلم أن المظاهرة بالعداوة . قد تجلب أذى من حيث لايعلم :

لأن المظاهر بالعداوة كشاهر سيف : ينتظر مضربا .. وقد يلوح منه مضربا .. وقد يلوح منه مضرب خفي ..

وإن اجتهد المتدرع في ستر نفسه فيغتنمه ذلك العدو .

فينبغي لمن عاش في الدنيا أن يجتهد في ألا يظاهر بالعداوة أحدا : لما بينت من وقوع احتياج الخلق بعضهم إلى بعض .

وإقرار بعضهم على ضرر بعض .

وهذا فصل مفيد يبين فائدته للإنسان مع تقلب الزمان)[1]

---

(١) صيد الخاطر ٢٥٥

لايأس مع الإيمان

ونقرأ قوله عزوجل :

﴿ يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولاتيأسوا من روح الله إنه لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون ﴾ ٨٧

الضعف فى مواجهة الأحداث ..

ثم فقدان الأمل ..

ثم الهروب المذعور ..

تلك هى خلاصة حياة الكافر :

لأنه يواجة المواقف معتمدا على قواه الذاتية .. والتى تعجز عن الصمود أمام هجمة الأحداث .. ليصير على مايقول الشاعر اليائس البائس :

لقد ثقلت على نفسى حياتى   واشفق عائدى وشكت أساتى

سئمت .. فما أريد اليوم إلا   دواء الموت .. من داء الحياة

إذا كانت حياة المرء سجنا   فشق اللحد بابا للنجاة !

وهكذا يكبر اليائس على نفس أربعا .. تحت وطأة اليأس الذى أماته .. قبل أن يموت :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا - وحسب المنايا أن يكن أمانيا

وقد تكون مشاهد الدنيا بهجة من حوله

ولكنه:

من بين الألوان   ∴   يختار الأسود

ومن بين الأشجار   ∴   يختار الحنظل

ومن بين الروائح ∴ يفضل الخل

ومن بين الطعوم ∴ يفضل المر

وإذا تأمل صحيفة أعماله فإذا هى : ثبات ضعيف .. وفى قفر جديب

والأمل فى النجاة .. بل فى الحياة كشمعة فى يد راهب :على رأس جبل فى يوم عاصف .. توشك تنطفئ ..

ومن أجل ذلك فهو لايملك مادة " الحسم " وإنما هو قلق .. متردد ..

ولو أنه واجه الموقف بحزم لقلت خسائره ..

أما التردد .. أما القنوط .. فهو الخسران المبين

ويظل البائسون واقفين عند الظواهر :

عند الطحالب : عند الجثث الطافية فوق أمواج بحر حافلة أعماقه باللؤلؤ والمرجان

غافلين عن الحقائق التى تعلن عن نفسها فى مجالى الكون :

فالله تعالى موجود .. والأسباب موجودة .. وماعلينا إلا أن نكرر المحاولة

مقتنعين بأن الضربات المتلاحقة - ولو بأصغر قادوم - تحطم الشجرة الضخمة !

وأن هناك من يثق بنفسه فيقول :

أعطنى مكانا .. خارج الكرة الأرضية .. وأنا أحركها لك ..

ولكن المادى .. منكفئ على نفسه .. وبينه وبين هذا اللطائف .. مابين الجسوم الكثيفة .. والأرواح اللطيفة !

أما المؤمنون .. فإن لهم مع الأقدار شأنا آخر :

فالأمر كله لله

وإيمان المؤمن .. ودلالة الوقائع من حوله تؤكد ذلك ..

فقد وجد يعقوب عليه السلام ريح يوسف .. من مسيرة ثمانية أيام .. ثم لم يجد ذلك عندما كان فى " الجب " وليس بينهما إلا ساعة من نهار ؟!

وأحيانا ينكشف للأبرار ما فى اللوح المحفوظ - بمشيئة الله - من أسرار ..

وأحيانا .. لايعرفون .. حتى ماتحت أقدامهم ..

وإذن .. فليكن التسليم بقضاء الله شعارنا .. ولامجال لليأس .. مادامت الأمور ليست إلينا .. وإنما إلى الله تصير الأمور.

ظلم الأقرباء

يقول عز وجل :

﴿ قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل .. ﴾ ٧٧

لأن يوسف عليه السلام كان نبيا .. فكان لابد أن يكون بلاؤه شديدا . ولأن يوسف هو : الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم .. فلابد أن يكون بلاؤه أشد :

ومن صور هذا البلاء ماتشير إليه الآية الكريمة وهو :

نسبة الأخوين إلى السرقة وهما :

يوسف . وبنيامين .

يقول الرازى :

إنهم قالوا :

(هذه الواقعة عجيبة وهى :

أن " راحيل " ولدت ولدين لصين ؟!:

ثم قالوا :

يابنى راحيل : ما أكثر البلاء علينا .. منكم .

فقال " بنيامين" ما أكثر البلاء علينا .. منكم :

ذهبتم بأخى .. وضيعتموه فى المفازة . ثم تقولون لى هذا الكلام ؟!!!

ثم قال الرازى

(واعلم أن ظاهر الآية يقتضى أنهم قالوا للملك :

إن هذا الأمر ليس بغريب منه :

فإن أخاه الذى هلك .. كان أيضا سارقا !!

وكان غرضهم من هذا الكلام :

أنا لسنا على طريقته .. ولا على سيرته .. وهو وأخوه مختصان بهذه الطريقه . لأنهما من أم أخرى .)

أما عن واقعة السرقة .. فقد قال العلماء :

كان جده - أبو أمه - كافرا يعبد الأوثان .. فأمرته أمه بأن يسرق تلك الأوثان . ويكسرها .. فلعله يترك عبادة الأوثان . ففعل ذلك)

وقيل :

كان يسرق الطعام من مائدة أبيه . ثم يدفعه إلى الفقراء

ومن دروس الآية الكريمة :

أولا : أن الضال يحاول أن ينطق فى تجريحه من أصل ثابت .. فرارا من تهمة الافتراء ..

والواقعة هنا صحيحة من حيث المبدأ ..

ولكن .. يلاحظ مايلى :

أنها سرقة : يشرفه أن تنسب إليه : فليس فيها من السرقة إلا اسمها .. فليست مما يخل بالشرف .

لقد كانت :

أولا : طاعة للأم

وثانيا : هى تصحيح للعقيدة

وثالثا : إطعام للجائع .. خصما من مائدة جده الذى كان مترفا : شبعان .. والناس من حوله جائعون .. تتحلب أشداقهم .

وثانيا : أن قولهم :

" إن يسرق "

فإن التعبير بأداة الشك " إن " دليل على أنهم :

(لم يجزموا بسرقته . لعلمهم بأمانته . وظنهم أن " الصواع " دس فى رحل أخيه وهو لايشعر . كما دست بضاعتهم فى رحالهم

العفو

وكان الظن بيوسف عليه السلام أن يعاقبهم على ذلك الافتراء .. ولكنه اكتفى بإضمار تهمتهم فى نفسه .

موقف يوسف عليه السلام

لقد كتم يوسف انفعاله .. ولم يبدها لهم :

ثم لجأ إلى الحيلة .. كاشفا عن قانون من قوانين النفس الإنسانية :

أما الحيلة فهى : صواع الملك ..

وأما القانون فهو :

أن النفس الأمارة لاتهجم بك على الذنب فجأة وبعنف ..

وإنما تتخذ سبيلها إليك الهوينى :

خطوة خطوة :

كما فى قوله تعالى ﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا ﴾

والرجل الحكيم لاينخدع بالدعاوى الكاذبه فالحق أقوى من أن يحجبه

ادعاء كاذب :

وإنما هو :

استخدام وسائل التحقيق .. فلا محاكمة إلا بعد التحقيق .. لبيان وجهة نظر الخصم . مهما كان دركها فى سلم البطلان .

أجل : لاحكم إلا بعد الدفاع عن النفس . كما وإنه لاعقاب إلا بعد الإنذار .

وأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم . وقال :

(أنتم شر مكانا)

ويعنى ذلك :

(بل أنتم شر من يوسف وأخيه :

لأن مانسب إليها من الشر إنما كان ظاهرا . لأمر خير اقتضاه .

وأما أنتم : ففعلتم بيوسف شر مقصود منكم :

ظاهرا وباطنا .

ونسبة الشر إلى مكانهم أعظم من نسبته إليه ..

وإن هذا القول - على فحشه - ليس مغنيا عنهم . ولا عن أبيهم شيئا)"القضاعى"

ومـن دروس الدعـوة

يقول الله عز وجل :

﴿ قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين ﴾ ٧٨

إنها محاولة لترقيق قلب المدعو :

فإن لأخيهم أبا .. يحن إليه .. ثم إنه شيخ .. بل وطاعن فى السن

وإذا كان ولابد من أخذ رهينة فارحم هذا الوالد .. وخذ أحدنا مكانه ..

وأملنا كبير أن تلين .. فإننا نرى فى قسمات وجهك ما يعكس طيبة قلبك :

(إنا نراك من المحسنين)

يرضى القتيل

وليس يرضى القاتل؟!

يقول الله عز وجل :

﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم . وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم . قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله مالاتعلمون ﴾٨٢ - ٨٦

كان " بنيامين" شقيق " يوسف"

ولقوة الشبه بينهما .. كان يتسلى به عن يوسف .. فلما ذهب .. زال مايوجب السلوان فعظم الوجد واشتد الألم ..

وقد بلغ حزنه حزن سبعين ثكلى ..

ومع ذلك ضم جناحيه على هذا الحزن القوى العميق وظل يحسن الظن بالله عز وجل فلم يشك الخالق إلى المخلوق .. واعتصم بالصبر الجميل .. مجددا أمله فى عود حميد لأبنائه جميعا :

ولكنه كبشر ظل يبكى ... وعند غلبة البكاء يكثر الماء فى العين .. فتراها وكأنما هى قد ابيضت من بياض هذا الماء الذى محق سواد العين

ذلك .. بأن الحزن الشديد يقوى الحزن القديم الكامن .. وذلك مايشير إليه قول الشاعر .. والذى لامه رفاقه أنه كلما رأى قبرا تجدد حزنه على عزيزه " مالك "

فأجاب بأن الأسى يبعث الأسى .. ثم أنشد :

وقد لامنى عند القبور على البكا　　رفيقى .. لتذراف الدموع السوافك

فقال : أتبكى كل قبر رأيته　　لقبر ثوى : بين اللوى والد كادك

فقلت له : إن الأسى يبعث الأسى　　فدعنى : فهذا كله قبر مالك !!

وهو المعنى الذى رمى إليه الشاعر القائل :

فلم تنسنى أو فى المصيبات بعده　∴　ولكن نكاء القرح بالقرح أوجع

(وقال يأسفى على يوسف وأبيضت عيناه من الحزن فهوكظيم)

وهى صورة مؤثرة للوالد المفجوع :

يحس أنه منفرد بهمه . وحيد بمصابه . لاتشاركه هذه القلوب التى حوله . ولاتجاوبه . فينفرد فى معزل :

يندب فجيعته فى ولده الحبيب : يوسف .. الذى لم ينسه ولم تهون من مصيبته السنون .

والذى تذكره به نكبته الجديدة . فى أخيه الأصغر .. فتغلبه على صبره الجميل .

ويكظم الرجل حزنه .. ويتجلد .. فيؤثر هذا الكظم فى أعصابه حتى تبيض عيناه حزنا وكمدا .. ويبلغ الحقد بقلوب أبنائه ألا يرحموا مابه .. وأن لا يلسع قلوبهم حنينه ليوسف . وحزنه عليه ذلك الحزن الكامد . الكظيم :

فلا يسرون عنه . ولايعزونه . ولا يعللونه بالرجاء . بل يريدون ليطمسوا فى قلبه الشعاع الأخير ..

وذلك قولهم :

(تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين)

وهى كلمة حانقه مستنكره :

تالله تظل تذكر يوسف .. ويهدك الحزن عليه . حتى تذوب حزنا أو تهلك أسى وبلا جدوى :

فيوسف ميئوس منه : قد ذهب .. ولن يعود) (١)

يريدون أن يقولوا له :

(أنت الآن فى بلاءشديد . ونخاف أن يحصل ما هو أزيد منه وأقوى :

وأرادوا بهذا القول : منعه عن كثرة البكاء والأسف) أ. هـ

(قال إنما أشكوبثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله مالاتعلمون)

وكأنما يقول لهم :

(خلونى وشكايتى :

فلست ممن يجزع ويضجر .. فيستحق التعنيف .

وإنما أشكو إلى الله .. ولا تعنيف فيه

لأن فيه إظهار الفقر والعجز بين يديه : وهو محمود .. وأعلم من الله مالاتعلمون) ..

أى : أعلم من لطف الله ورأفته ورحمته .. مايوجب حسن ظنى وقوة رجائى .

وأعلم من طريق الوحى : من حياة يوسف مالاتعلمون .

ومن دلائل تحمله (أن البث: أشد الحزن : سمى بذلك لأنه من صعوبته لايطاق حمله . فيباح به وينشر) أ. هـ

---

(١) فى ظلال القرآن

ومع ذلك فقد نصحهم بمواصلة البحث عن الإخوة الغائبين فلعل وعسى فقال ماحكته الآيات متلطفا بهم :

(يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولاتيأسوا من روح الله إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون)

الكافرون(بقدرته وسعة رحمته .. هؤلاء الذين لايتجاوز علمهم بشئون أنفسهم دائرة ظنونهم .. جاهلين بما لله عزوجل فى عباده من حكم بالغة . ولطف خفى فإذا تقطعت بهم الأسباب دون مايبغونه بخعوا أنفسهم أسفا . وانتحروا بأيديهم هما وحزنا .

أما المؤمن :

فإن المصائب لاتقنطه من رحمة ربه . وتفريجه لكربه : وإن عظم عليه المصاب . وتقطعت به الأسباب) المنار

(وابيضت عيناه من الحزن)

(الحزن الجديد .. يقوى الحزن القديم)

والقدح إذا وقع على القدح . كان أوجع .

عفـو القـادرين

يقول الله عزوجل :

﴿ قـالوا تالله لقـد آثرك الله علينا وإن كنا لخـاطئين . قـال لاتثـريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يرتد بصيرا وائتونى بأهلكم أجمعين ﴾ ٩١ - ٩٣

﴿ قالوا ياابانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم ﴾ ٩٦ - ٩٧

تمهيد

وهكذا تفعل النفس الخيرة :

إنها تهدد وتتوعد .. وفى النهاية يغلبها الطبع .. فتسامح . وتعفو عمن أساء إليها

وتصور من حكمة هذه المدرسة مايقوله واحد من تلاميذها يوضح سبب ذلك : " إننى لا أشك فى أن صديقى يحبنى .. لكن إساءته إلى جاءت من غبائه :

من عقله .. لامن قلبه !

ومن أجل ذلك .. أعفو عنه !

ولاحظ أن تسامح يوسف عليه السلام .. إنما كان بعد الاعتراف : اعتراف الإخوة بما كان منهم معه .. والاعتراف .. يهدم الاقتراف !

ومعنى ذلك :

أنهم تابوا .. فمسحوا بالتوبة تصرفاتهم الماضية

(والعذر عند كرام الناس مقبول)

ومن كرمه عليه السلام أن يقول ماحكته الآية الكريمة :

(لاتثريب عليكم ..)

بمعنى : لا لوم .. ولا عتاب

فهو ينفى العذاب المهين عن طريق الملام . وجارح الكلام .

يقول الرازى هنا :

(والتثريب : التوبيخ .

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام :

" إذا زنت أمة أحدكم : فليضربها الحد . ولايثربها "

أى : ولايعيرها بالزنا)

ويعنى ذلك أنه لاشفاعة فى الحد الذى يجب أن يوقع بمن يستحقه .. أما إنسانية المحدود .. فينبغى أن تصان فلاتهان .. حتى بالكمة النابية :

إنه العذاب الأليم .. وليس هو العذاب المهين ؟!

وتلك واحدة من إنسانية الإسلام .. الحافظ لكرامة الإنسان مهما كانت معصية هذا الإنسان ..

قال البيضاوى :

(ومن كرم يوسف عليه السلام :

أنهم لما عرفوه . أرسلوا إليه وقالوا :

إنك تدعوننا بالبكرة والعشى إلى الطعام

ونحن نستحى منك لما فرط منا فيك .

فقال لهم :

إن أهل مصر : كانوا ينظرون إلى بالعين الأولى .

ويقولون : سبحان من بلغ عبدا بيع بعشرين درهما مابلغ .

ولقد شرفت بكم . وعظمت فى أعينهم . حيث إنكم إخوتى

وانى من صفوة ابراهيم عليه السلام !

ثم أحال القضية برمتها إلى الله عزوجل :

﴿ يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾

(فهو سبحانه - جدير بإدرار النعم . بعد الإعاذة من النقم .)

وتأمل قوله تعالى :

(إذ هبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يرتد بصيرا ..)

تأمل ما يشير إليه من ضرورة إزالة آثار العدوان ليتم الصلح بين الأطراف المعنية :

فلو جاء أبوه فاقد البصر .. لبقيت فى نفسه بقية من إخوته .. ومن ثم لايأخذ العفو معناه الحقيقى ..

ولابد فى كل صلح من إزالة أسباب الشقاق أولا .. حتى تغيب من الذاكرة مثيرات هذا الشقاق .. فلا تثور النفس تارة أخرى ..

تأمل هذا .. ثم تأمل قول الوالد هنا :

(سوف أستغفر لكم ربى)

إن التعبير بسوف (لابالسن لأن " سوف ") يدل على وعد بالعفو بعد مدة تتخلص النفس فيها من مرارة ماحدث .. وذلك .. يتم بعد فترة .. تعود

النفس من بعد انقضائها إلى صفائها القديم ..

فإنه ومن الناحية العملية - لن يكون صفاء بين الظالم والمظلوم إلا بعد مدة زمنية تتهيأ فيها نفس المظلوم لتقبل الوضع الجديد .. بالإحسان إلى من أساء إليه

الصورة القابلة

وحتى تستبين جلال الموقف .. عليك أن تتصور الصورة المقابلة .. حين ينزغ الشيطان موسوسا بضرورة رد العدوان وتجنب العفو الذى قد يكون خصما من كرامتك ..

وذلك فيما قاله " أبو إسحق الصابى " لمن أساء إليه :

أيها النابح الذى يتصدى ∴ بقبيح .. يقوله .. لجوابى

لاتؤمل أن أقول لك اخسأ ∴ لست أسخوبها لكل الكلاب

تصور هذا .. ومايترتب عليه من تتابع مسلسل التنابذ .. لتدرك قيمة العفو التى يحقن الله بها الدماء . ويصون الأعراض .

وصدق رسول الله : (ليس الواصل بالمكافئ . ولكن الواصل : من إذا قطعت رحمه وصلها " وهو مافعله يوسف عليه السلام :

إنه لم يسقهم من نفس الكأس . وإنما أحسن إليهم : أطاع الله فيمن عصوه فيه .

عندما يجمع الزمان فى لحظة

يقول الله عز وجل :

﴿ رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما والحقنى بالصالحين ﴾ ١٠١

وهكذا ينتقل من ظلمة الجب .. إلى القصر المنيف : جزاء إحسانه

لقد انتهى الجفاء .. بالوفاء وانقشع الظلام ليشرق النور فى نهاية النفق..

وتمت كلمة ربك الحسنى على يوسف بصبره الذى يضم إليه الشكر الآن :

معترفا بأن ماحدث من إخوته كان من تحريش الشيطان . الذى هو عدونا .. وينبغى أن نتخذه عدوا .. بدل أن تبدد طاقة الأخوة لتصير قوة لهذا العدو المتربص بنا

إذا كانت الدنيا سلاحا فى يد الشيطان فعلينا أن نفل هذا السلاح .. بالإعراض عن هذه الدنيا وهو الدرس الأكبر فى قصة يوسف عليه السلام ..

يقول صاحب الظلال :

(وهكذا : يتوارى الجاه والسلطان . وتتوارى فرحة اللقاء .. واجتماع الأهل .. ويبدو المشهد الأخير :

مشهد عبد .فرد . يبتهل إلى ربه :

أن يلحقه بالصالحين بين يديه)

ونتساءل :

ما مغزى تمنى الموت [(١)]

---

(١) تفسير سورة يوسف . بتصرف يسير .

يقول الرازى :

(إن الخطباء . وإن أطنبوا فى مذمة الدنيا . لكن حاصل كلامهم يرجع إلى إلى أمور ثلاثة :

أحدها :

أن هذه السعادات سريعة الزوال . والألم الحاصل عند زوالها أشد من اللذة الحاصلة عند وجدانها .

وثانيها :

أنها غير خالصة . بل هى ممزوجة بالمنغصات والمكدرات .

وثالثها :

أن أراذل الخلق يشاركون الأفاضل فيها . بل ربما كانت حصة الأراذل منها أربى من نصيب الأفاضل ..

وإذن .. فلا جرم أن يتمنى المؤمن الموت ليتخلص من هذه الآفات)

وعلى هذا الأساس كان منطق الشعراء .. الذين لايرفضون الاستمتاع بالدنيا .. وإنما يرفضون الاستغراق فيها .. لتكون الآخرة خيرا وأبقى :

ومنهم الشاعر القائل :

ياويح من غره دهر فسربه   لم يخلص الصفو .. حتى شيب بالكدر

انظر لمن باد : تنظر آية عجبا ∴ وعبرة لأولى الأبصار والبصر

بادوا .. فعادوا حديثا : إن ذا عجب ∴ ما أوضح الرشد .. لولا غفلة النظر

تنافس الناس فى الدنيا .. وقد علموا ∴ أن المقام بها : كاللمح بالبصر

فخل عن زمن تخشى عواقبه ∴ إن الزمان إذا فكرت - ذو عبر

أما بعد

فهكذا يكون الابتلاء فى حياة الأنبياء .. سبيلا إلى الرخاء ..

إن النسيم العليل .. لايعصر شيئا . لابد من العواصف . والقلب البشرى .. إذا لم تعصره المصائب العظمى لايبض بما فيه ..

وتأمل كيف وصل الابتلاء بقلب يعقوب عليه السلام حتى اخترق به حجب المستقبل .. متجاوزا نظرة الماديين .. الضيقة القاصرة ..

تأمل ماحكاه القرآن الكريم عنه :

(إنى لأ جد ريح يوسف لولا أن تفندون)

يقول الشيخ الدجوى :

(إن الأصفياء يكشف لهم عن اللوح المحفوظ ، وتارة لايعرفون ماتحت أقدامهم وانظر كيف وجد يعقوب ريح يوسف من مسيرة أيام ولم يجد ذلك عندما كان فى الجب وليس بينه إلاساعة من نهار ، ولكن المسألة موقوفة على الإذن الإلهى والحكمة الربانية) .

ثم تأمل ما حكاه القرآن عنه :

(اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيراً):

وهو يفيد أن أسرار الله لاغاية لها ، وليس الأمر موقوفا فيها على تلك النواميس المادية التى قدسها الجاهلون ووقف عندها الجامدون ، وكيف لايعلم ذلك أو يفهمه أولئك المتشدقون الواقفون عند الظواهر وبينهم وبين تلك اللطائف ما بين الجسوم الكثيفة والأرواح اللطيفة ! فهو يفتح لنا باباً من العلم ، ويعرفنا أن العلم ليس له غاية .

ومن هنا افترق الناس :

فمنهم من ينظر بعين رأسه .. ومنهم من ينظر بعين بصيرته ..)

والفرق هائل :

بين لمحة البصر .. ورؤية البصيرة :

يقول النورسى :

الذين يركزون فقط على المادة :

عقولهم فى أعينهم .. والعين لاتبصر المعنويات)

وعليهم أن يتجاوزوا الأحجام والأرقام .. فلا يحصروا نظرتهم فيما ظهر .. ولكن فى الحكمة من ورائها .. لتأخذ الأشياء أبعادا أخرى أكثر دلالة على قدرة الله عزوجل ..

بمعنى أن يتمهلوا .. ليصلوا ..

(فمن أحسن - رويته .. حسنت رؤيته)

ومن تعجل .. تخبط .. وأخر بنفسه .. وكان كهذا الذى ينحت جسده .. حتى يوافق لباسه ؟!!

ولقد كان " النورسى " صورة عملية لمايدعو إليه .. فكان أكثر من الماديين استمتاعا بالحياة والتلذذ بها .. لما جمل فكره .. وغاص به خلف الأشياء تلمسا للحكمة المستقرة وراءها ..

مثال

إذا كانت لحظة الموت .. لحظة عويل وبكاء .. وإذا كان مشهد النعش والجنازة مثار أشجان وآلام .. فإن النورسى يرى فى هذا المشهد مالا يرى الماديون :

إنه يراه الثمرة الوحيدة فوق شجرة العمر .. وفيها تبدأ الحياة الحقيقة للروح .. التى تنطلق عندئذ من سجن المادة إلى مساحات الأبدية والخلود :

فإذا أنت :

أمام الزهر .. يتفتق والنهر .. يتدفق

والنسيم .. يترقرق .. والأضواء .. تتألق ! وتأمل نظرته تلك الثاقبه إلى الأرض .. فبينما يسجن أحدنا نفسه فى بقعة محدودة منها .. هى كل دنياه .. فإن النورسى يثقب بنظرته تلك القشرة البادية فيقول :

(إن الكرة الأرضية مأمورة وموظفه من الواحد سبحانه .

وهى كالجندى المطيع لله الواحد الأحد :

فحيثما تستلم الأمر الواحد الصادر إليها من آمرها الأحد . تهب منتشيه بأمرمولاها .مغمورة بشوق عارم .. ثم تدور كالمريد العاشق عند قيامه للسماع .. فتكون وسيلة للفصول الأربعة)

وفى هذا المعنى يقول :

(إن ما يبدو بنظر الغفلة من الثمرة الوحيدة .. التى هى فوق شجرة العمر .. على شكل نعش وجنازة :

إنها ليست كذلك :

وإنما هى :-

انطلاق الروح التى هى أهل للحياة الأبدية .. والمرشحة للسعادة الأبدية .. انطلاق من وكرها القديم .. إلى حيث آفاق النجوم .. للسياحة والارتياد)

إن النورسى هنا :

لم يكن يكتب شعرا ..

ولم يكن يكتب نثرا ..

ولكنه يضع ذوب قلبه على الورق !!

قصة يوسف

ودروس فى الدعوة والتربية

يقول الله عزوجل :

﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب .. ﴾ ١١١

يقول الشيخ " يوسف الدجوى " رحمة الله :

(ولنقص عليك اليوم شيئا مما تضمنته قصة يوسف عليه السلام . من علم جم . وحكمة عالية . وسنن كونيه . وأسرار روحانية .

ولتعلم أن الناس مختلفون جد الاختلاف . فى فهم القرآن على حسب استعدادهم " والإمداد على قدر الاستعداد " وإن من النفوس من لايعرف إلا الشر . ولايفهم إلا الشر : فهى تقلب كل شئ إلى الشر :

كالإناء الخبيث الذى اتخذ من معدن خبيث :

فإنه يقلب كل مايوضع فيه من الماء الصافى إلى طبعه الخبيث .

قصة يوسف

بين الوعد والوعيد

وستبقى قصة يوسف عليه السلام وعدا للأخيار .. بالفوز المبين

وبنفس القوة تصير وعيدا للظالمين فى كل زمان ..

يقول صاحب المنار :

(ووجه الاعتبار بهذه القصة :

أن الذى قدر على إنجاء يوسف بعد إلقائه فى الجب .

وإعلائه .. بعد وضعه فى السجن .. وتمليكه مصر .. بعد أن بيع بيع

العبد: بالثمن الخسيس ..

والتمكن له فى الأرض من بعد ذلك الإسار . والحبس الطويل .

وإعزازه على من بغاه سوءا من إخوته .. وجمع شمله بأبويه . على ماأحب بعد المدة الطويلة ..

والمجئ بهم من الشقة النائية البعيدة :

أقول :

إن الذى قدر على ذلك كله سبحانه .. يا أيها الناس لقادر على إعزاز محمد ﷺ .

وإعلاء كلمته . وإظهار دينه :

فيخرجه من بين أظهركم .. ثم يظهره عليكم . ويمكن له فى البلاد . ويؤيده بالجند والرجال وإن مرت به شدائد .. وأتت دونه الأيام والليالى والحوادث)

لقد كان يوسف داعية جميل الظاهر .. جميل الباطن معا .. حتى يستعلى بهذا الجمال على المغريات التى تناوشه من قريب .

كان يوسف وزيرا فى حكومة فرعون مصر ومع ذلك لم يتخل عن وظيفته الأساسيه كداعية :

يقدم إلى الناس خبرته

ثم بعد ذلك يعلن دعوته

ومن خلاله تحقق الدعوة أهدافها .. وعلى المدى الطويل .

ويبقى للقصة دورها الفعال ضمن وسائل الخطاب الدينى :

أ- فهى أسلوب رائق - شائق :

يدفع بالجرعة سريعا أثناء الحوار

ب- إن الباحث العلمى محتاج إلى " النص " يقلبه بين يديه ..

ولكن " القاص " يملك خيالا طليقا غير مقيد وليس مطالبا بالنص كالباحث العلمى .

جـ- وإذا جرى البهتان على لسان واحد جاء الرد من البطل المحق .. وقبل أن تثبت الفرية .. والتى يروج بها الذين يجاحشون بالباطل .. ويناقشون بالهوى .

وإذا كان الأموات يرحلون ثم لايعودون فإن أعمارهم تمتد بأعمالهم الصالحات . وكذلك كان يوسف عليه السلام

ومن فوائد قصة يوسف عليه السلام :

أن الله عزوجل يذكرها بأكملها .. ليرد على المفترين الزاعمين بأن محمدا يعلمه بشر ..

فهذه قصة كاملة شاملة .. يذكرها بتفاصيلها مع أنه لم يكن موجودا عند حدوثها .

وذلك قوله عزوجل :

﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وماكنت لديهم إذا أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ ١٠٢

ومن دروس
قصة يوسف عليه السلام

(روى سعيد بن جبير أنه تعالى لما أنزل القرآن على رسول الله ﷺ وكان يتلوه على قومه . فقالوا يارسول الله لو قصصت علينا . فنزلت هذه السورة فتلاها عليهم فقالوا :

لو حدثتنا منزل الله نزل أحسن الحديث كتابا

فقالوا لو ذكرتنا فنزل :

(ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله)

مدخل

وبعد القراءة المستوعبة .. لما كتبه السابقون من علمائنا .. كانت لى وقفات إجمالية .. وأخرى تفصيلية ..

على ضوء الواقع الذى نعيشه اليوم .. ومن القرآن الكريم الذى جعل من قصصه عبرة .. ولم يبق إلا الاعتبار

لقد صرف الله تعالى قصص الأنبياء تصريفا يدور حول النفوس فلعلها أن تفيق فى لحظة إخصاب .. يكون لها فيها موعد مع الهدى ..

إلا فى قصة يوسف عليه السلام ..

فقد ذكرها الله تعالى مرة واحدة .. وقد قال علماؤنا فى تعليل ذلك :

لأن قصة يوسف تتعلق بالشرف : بالعرض .. فكان اللائق ألا تكرر .. إيثارا لجانب الستر .. ومغالاة بالعرض الذى ينبغى أن يصان فلا يكون مسلاة المجالس.

وذلك ضمن خطة الإسلام فى الحفاظ على الشرف والذى هو أغلى مايملك الإنسان

وذلك بعض مايشير إليه قوله عزوجل :

﴿ وما يجحدون بآياتنا إلا الفاسقون ﴾

قال علماؤنا :

طوى ذكر " الفاسقات " هنا :

ستـرا لهن .. وحسن ظن بهن .. ونذكر هنا قوله عـزوجل حفاظا على البيئة المسلمة من التلوث الخلقى :

(فلا تخضعن بالقول ..)

وهكذا كانت أمهات المؤمنين . رضوان الله عليهن

ومما يقوله الرازى :

١- (أنه لادافع لقضاء الله تعالى . ولامانع من قدر الله تعالى .

٢- وأنه تعالى إذا قضى للإنسان بخير ومكرمة : فلو أن أهل العالم اجتمعوا عليه . لم يقدروا على دفعه .

٣- وأن الحسد سبب للخذلان والنقصان .

٤- وأن الصبر مفتاح الفرج . كما فى حق يعقوب عليه السلام :

فإنه لما صبر .. فاز بمقصوده .

وكذلك فى حق موسى عليه السلام)

ويواصل الرازى حديثه مركزا على ما كان من أمر يوسف فيقول :

(وقيل :

كان بين رؤيا يوسف ومصير اخوته إليه أربعون سنه - وقيل : ثمانون سنه.

وأعلم أن الحكماء يقولون إن الرؤيا الرديئة يظهر تعبيرها عن قريب . والرؤيا الجيدة إنما يظهر تعبيرها بعد حين .

قالوا : والسبب فى ذلك : أن رحمة الله تقتضى أن لايحصل الإعلام بوصول الشر إلا عند قرب وصوله . حتى يكون الحزن والغم أقل .

وأما الإعلام بالخير فإنه يحصل متقدما عن ظهوره بزمان طويل . حتى تكون البهجة الحاصلة بسبب توقع حصول ذلك الخير أكثر وأتم) الرازى



الفصل الثانى

يوسف وامرأة العزيز
فى كتب التراث

امرأة العزيز في كتب التراث

تمهيد :

كنت أقرأ كتاب " وحى القلم " للرافعى " الجزء الثالث " وقد عثرت فيه على ماهو أغلى من " الكنز " وهو : هذه الصفحات .. والتى تتصل بما أنا مشغول به " فلم أشأ أن أتفرد بالمتعة ..

ذلك بأن متعة " الأفكار " أثقل من الميزان من متعة " الأشياء " .. بل إنها لتتضاعف .. كلما اشترك فيها معك آخرون ..

وهأنذا أثبت هذه الصفحات - على طولها - ليمتد معنى المتعة ويتسع .. كلما طال الحديث .. والحديث ذو شجون

قال الرافعى رحمه الله

سمو الحب

صاح المنادى فى موسم الحج : « لايفتى الناس إلا عطاء بن أبى رباح »[(١)] وكذلك كان يفعل خلفاء بنى أمية ؛ يأمرون صائحهم فى الموسم : أن يدل الناس على مفتى مكة وإمامها وعلمها ، ليلقوه بمسائلهم فى الدين ، ثم ليمسك غيره عن الفتوى ، إذ هو الحجة القاطعة لاينبغى أن يكون معها غيرها مما يختلف عليها أو يعارضها ، وليس للحجج إلا أن تظاهرها وتترادف على معناها .

وجلس عطاء يتحين الصلاة فى المسجد الحرام . فوقف عليه رجل وقال : يا أبا محمد ، أنت أفتيت كما قال الشاعر :

سل المفتى المكى : هل فى تزاوى   وضمة مشتاق الفؤاد جناح ؟

فقال : معاذ الله أن يذهب التقى   تلاصق أكباد بهن جراح !

فرفع الشيخ رأسه وقال : والله ما قلت شيئا من هذا ، ولكن الشاعر هو نحلنى هذا الرأى الذى نفثه الشيطان على لسانه ، وإنى لأخاف أن تشيع القالة فى الناس ، فإذا كان غد وجلست فى حلقتى فاغد على ، فإنى قائل شيئا .

وذهب الخبر يؤج النار ، وتعالم الناس أن عطاء سيتكلم فى الحب ، وعجبوا كيف يدرى الحب أو يحسن أن يقول فيه من غبر عشرين سنة فراشه المسجد ، وقد سمع من عائشة أم المؤمنين ، وأبى هريرة صاحب رسول الله ﷺ ، وابن عباس بحر العلم !

وقال جماعة منهم : هذا رجل صامت أكثر وقته ، وما تكلم إلا خيل إلى الناس أنه يؤيد بمثل الوحى ، فكأنما هو نجى ملائكة يسمع ويقول ، فلعل

---

(١) ولد هذا الإمام سنة ٧٢هـ وتوفى سنة ١١٥ قالوا : ومات يوم مات وهو عند الناس أرضى أهل الدنيا .

السماء موحية إلى الأرض بلسانه وحيا فى هذه الضلالة التى عمت الناس وفتنتهم بالنساء والغناء .

ولما كان غد جاء الناس أرسالا إلى المسجد ، حتى اجتمع منهم الجمع الكثير . قال عبد الرحمن بن عبد الله أبى عمار : وكنت رجلا شابا من فتيان المدينة ، وفى نفسى ومن الدنيا ومن هوى الشباب ، فغدوت مع الناس ، وجئت وقد تكلم أبو محمد وأفاض ، ولم أكن رأيته من قبل ، فنظرت إليه فإذا هو فى مجلسه كأنه غراب أسود ، إذ كان ابن أمة سوداء تسمى « بركة » ورأيته مع سواده أعور أفطس أشل أعرج مفلفل الشعر ، لا يتأمل المرء منه طائلا ، ولكنك تسمعه يتكلم فتظن منه ومن سواده - والله - أن هذه قطعة ليل تسطع فيها النجوم ، وتصعد من حولها الملائكة وتنزل .

قال : وكان مجلسه فى قصة يوسف عليه السلام ، ووافقته وهو يتكلم فى تأويل قوله تعالى : ﴿ وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لايفلح الظالمون . ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه . كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ .

قال عبد الرحمن : فسمعت كلاما قدسيا تضع له الملائكة أجنحتها من رضى واعجاب بفقيه الحجاز . حفظت منه قوله :

عجبا للحب ! هذه ملكة تعشق فتاها الذى ابتاعه زوجها بثمن بخس ؛ ولكن أين ملكها وسطوة ملكها فى تصوير الآية الكريمة؟ لم تزد الآية على أن قالت : ﴿ وراودته التى ﴾ و « التى » هذه كلمة تدل على كل امرأة كائنة من كانت ؛ فلم يبق على الحب ملك ولا منزلة ؛ وزالت الملكة من الأنثى !

وأعجب من هذا كلمة « راودته » وهى بصيغتها المفردة حكاية طويلة تشير إلى أن هذه المرأة جعلت تعترض يوسف بألوان من أنوثتها لون بعد لون ؛ ذاهبة إلى فن ، راجعة من فن ؛ لأن الكلمة مأخوذة من رودان الإبل فى مشيتها ؛

تذهب وتجئ فى رفق . وهذا يصور كبرياء الأنثى إذ تختال وتترفق فى عرض ضعفها الطبيعى كأنما الكبرياء شئ آخر غير طبيعتها ؛ فمهما تتهالك على من تحب وجب أن يكون لهذا « الشئ الآخر » مظهر امتناع أو مظهر تحير أو مظهر اضطراب ، وإن كانت الطبيعة من وراء ذلك مندفعة ماضية مصممة .

ثم قال : « عن نفسه » ليدل على أنها لا تطمع فيه ، ولكن فى طبيعته البشرية ، فهى تعرض ما تعرض لهذه الطبيعة وحدها ، وكأن الآية مصرحة فى أدب سام كل السمو ، منزه غاية التنزيه بما معناه : « إن المرأة بذلت كل ماتستطيع فى إغرائه وتصبنيه ، مقبلة عليه ومتدللة ومتبذلة ومنصبة من كل جهة ، بما فى جسمها وجمالها على طبيعته البشرية ، وعارضة كل ذلك عرض امرأة خلعت - أول ما خلعت - أمام عينية ثوب الملك » .

ثم قال : ﴿ وغلقت الأبواب ﴾ ولم يقل « أغلقت » وهذا يشعر أنها لما يئست، ورأت منه محاولة الانصراف ، أسرعت فى ثورة نفسها مهتاجة تتخيل القفل الواحد أقفالا عدة ، وتجرى من باب إلى باب ، وتضطرب يدها فى الأغلاق ، كأنما تحاول سد الأبواب لا إغلاقها فقط .

﴿ وقالت هيت لك ﴾ ومعناها فى هذا الموقف أن اليأس قد دفع بهذه المرأة إلى آخر حدوده ، فانتهت إلى حالة من الجنون بفكرتها الشهوانية ، ولم تعد لا ملكة ولا امرأة ، بل أنوثة حيوانية صرفة ، متكشفة مصرحة ، كما تكون أنثى الحيوان فى أشد اهتياجها وغليانها .

هذه ثلاثة أطوار يترقى بعضها من بعض ، وفيها طبيعة الأنوثة نازلة من أعلاها إلى أسفلها . فإذا انتهت المرأة إلى نهايتها ولم يبق وراء ذلك شئ تستطيعه أو تعرضه بدأت من ثم عظمة الرجولة السامية المتمكنة فى معانيها ، فقال يوسف " ﴿ معاذ الله ﴾ ثم قال : ﴿ إنه ربى أحسن مثواى ﴾ ثم قال : ﴿ إنه لايفلح الظالمون ﴾ . وهذه أسمى طريقة إلى تنبيه ضمير المرأة فى المرأة ، إذ كان

أساس ضميرها فى كل عصر هو اليقين بالله ، ومعرفة الجميل ، وكراهة الظلم . ولكن هذا التنبيه المترادف ثلاث مرات لم يكسر من نزوتها ، ولم يفثأ تلك الحدة ، فإن حبها كان قد انحصر فى فكرة واحدة اجتمعت بكل أسبابها فى زمن ، فى مكان ، فى رجل ، فهى فكرة محتسبه كأن الأبواب مغلقة عليها أيضا ؛ ولذا بقيت المرأة ثائرة ثورة نفسها . وهنا يعود الأدب الإلهى السامى إلى تعبيره المعجز فيقول : ﴿ولقد همت به﴾ كأنما يومئ بهذه العبارة إلى أنها ترامت عليه ، وتعلقت به والتجأت إلى وسلتها الأخيرة ، وهى لمس الطبيعة بالطبيعة لإلقاء الجمرة فى الهشيم .. !

جاءت العاشقة فى قضيتها ببرهان الشيطان يقذف به فى آخر محاولته .

وهنا يقع ليوسف عليه السلام برهان ربه كما وقع لها هى برهان شيطانها . فلولا برهان ربه لكان رجلا من البشر فى ضعفه الطبيعى .

قال أبو محمد : وههنا ههنا المعجزة الكبرى ، لأن الآية تريد ألا تنفى عن يوسف عليه السلام فحولة الرجولة ، حتى لايظن به ثم هى تريد من ذلك أن يتعلم الرجال ، خاصة الشبان منهم ، كيف يتسامون بهذه الرجولة فوق الشهوات، حتى فى الحالة التى هى قدرة الطبيعة ؛ حالة ملكة مطاعة فاتنة عاشقة مختلية متعرضة متكشفة متهالكة . هنا لاينبغى أن ييأس الرجل ، فإن الوسيلة التى تجعله لايرى شيئا من هذا ، هى أن يرى برهان ربه .

وهذا البرهان يؤوله كل إنسان بما شاء ، فهو كالمفتاح الذى يوضع فى الأقفال كلها فيفضها كلها ؛ فإذا مثل الرجل لنفسه فى تلك الساعة أنه هو وهذه المرأة منتصبان أمام الله يراهما ، وأن أمانى القلب التى تهجس فيه ويظنها خافية إنما هى صوت يسمعه الله ؛ وإذا تذكر أنه سيموت ويقبر ، وفكر فيما يصنع الثرى فى جسمه هذا الإثم الذى يقترفه الآن سيكون مرجعه عليه فى أخته أو بنته - إذا فكر فى هذا ونحوه ؟ احفظوا هذه الكلمة الواحدة التى فيها أكثر الكلام ، وأكثر الكلام ، وأكثر الموعظة ، وأكثر التربية ، والتى هى كالدرع فى المعركة بين الرجل والمرأة والشيطان كلمة « رأى برهان ربه » .

قال عبد الرحمن بن عبد الله وهو يتحدث إلى صاحبه سهيل بن عبد الرحمن : ولزمت الإمام بعد ذلك ، وأجمعت أن أتشبه به ، وأسلك فى طريقه من الزهد والمعرفة ؛ ثم رجعت إلى المدينة وقد حفظت الرجل فى نفسى كما أحتفظت الرجل فى نفس كما أحفظ الكلام ، وجعلت شعارى فى كل نزعة من نزعات النفس هذه الكلمة العظيمة : ﴿ رأى برهان ربه ﴾ ، فلم ألمت بإثم قط ، ولادانيت معصية ، ولا رهقنى مطلب من مطالب النفس إلى يوم الناس هذا ، وأرجو أن يعصمنى الله فيما بقى ، فإن هذه الكلمة ليست كلمة ، وإنما هى كأمر

من السماء تحملة ، تمر به آمنا على كل معاصى الأرض ، فما يعترضك شئ منها ، كأن معك خاتم الملك تجوز به .

قال سهيل : فلهذا لقلبك أهل المدينة « بالقس » لعبادتك وزهدك وعزوفك عن النساء ، وقليل لك - والله - يا عبد الله ، فلو قالوا : ماهذا بشرا إن هذا إلا ملكم ، لصدقوا .

قالت سلامة جارية سهيل بن عبد الرحمن المغنية ، الحاذقة الظريفة . الجميلة الفاتنة الشاعرة القارئة ، المؤرخة المتحدثة ، التى لم يجتمع فى امرأة مثلها : حسن وجهها ، وحسن غنائها ، وحسن شعرها - قالت : واشترانى أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك بعشرين ألف دينار « عشرة آلاف جنيه » وكان يقول : مايقر عينى ما أوتيت من الخلافة حتى أشترى سلامة ؛ ثم قال حين ملكنى : ما شاء بعد من أمر الدنيا فليفتنى !

قالت : فلما عرضت عليه أمرنى أن أغنيه ، وكنت كالمخبولة من حب عبد الرحمن القس ، حبا أراه فالقا كبدى ، آتيا على حشاشتى : فذهب عنى والله كل ماأحفظه من أصوات الغناء ، كما يمسح اللوح مما كتب فيه وأنسيت الخليفة وأنا بين يديه ، ولم أر إلا عبد الرحمن ومجلسه منى يوم سألنى أن أغنيه بشعره فى ، وقولى له يومئذ : حبا وكرامة وعزاة لوجهك الجميل . وتناولت العود وجسسته بقلبى قبل يدى ، وضربت عليه كأنى أضرب لعبد الرحمن ، بيد أرى فيها عقلا يحتال حيلة امرأة عاشقة . ثم اندفعت أغنى بشعر حبيبى :

إن التى طرقتك بين ركائب تمشى بمزهرها وأنت حرام
لتصيد قلبك ، أو جزاء مودة إن الرفيق له عليك ذمام
باتت تعللنا وتحسب أننا فى ذاك أيقاظ ، ونحن نيام

وغنيته والله غناء والهة ذاهبة العقل كاسفة البال ، ورددته كما رددته

لعبد الرحمن ، وأنا إذ ذاك بين يديه كالوردة أول ماتتفتح . وأنا أنظر إليه وأتبين لصوتى فى مسمعيه صوتا آخر .. وقطعته ذلكم التقطيع ، ومددته ذلك التمديد ، وصحت فيه صيحة قلبى وجوارحى كلها كما غنيت عبد الرحمن لكيما أؤدى إلى قلبه المعنى الذى فى اللفظ والمعنى الذى فى النفس جميعا ، ولكيما أسكره - وهو الزاهد العابد - سكر الخمر بشئ غير الخمر !

وما أفقت من هذه إلا حين قطعت الصوت ، فإذا الخليفة كأنما يسمع من قلبى لا من فمى وقد زلزلة الطرب ، وما خفى على أنه رجل قد ألم بشأن امرأة ، وخشيت أن أكون قد افتضحت عنده ؛ ولكن غلبته شهوته ، وكان جسدا بما فيه يريد جسدا لما فيه ، فمن ثم لم ينكر ولم يتغير .

واشترانى وصرت إليه ، فلما خلونا سألنى أن أغنى فلم أشعر إلا أغنية يشعر عبد الرحمن :

ألا قل لهذا القلب : هل أنت مبصر　　　وهل أنت عن سلامة اليوم مقصر

إذا أخذت فى الصوت كاد جليسها　　　يطير إليها قلبه حين تنظر

وأديته على ماكان يستحسنه عبد الرحمن ويطرب له ، إذ يسمع فيه همسا من بكائى .

ولهفة مما أجد به ، وحسرة على أنه ينسكب فى قلبى وهو يصد عنى ويتحامانى ، وما غنيت : « وهل أنت عن سلامة اليوم مقصر » إلا فى صوت تنوح به سلامة على نفسها وتندب وتتفجع !

فقال لى يزيد وقد فضحت نفسى عنده فضيحة مكشوفة : ياحبيبتى من قائل هذا الشعر ؟

قلت : أحدثك بالقصة يا أمير المؤمنين ؟

قال : حدثينى .

قلت : هو عبد الرحمن بن أبى عمار الذى يلقبونه بالقس لعبادته ونسكه، وهو فى المدينة يشبه عطاء بن أبى رباح ، وكان صديقا لمولاى سهيل . فمر بدارنا يوما وأنا أغنى فوقف يسمع ، ودخل علينا « الأحوص »[1] ، فقال : ويحكم ؟ لكأن الملائكة والله تتلو مزاميرها بحلق سلامة ، فهذا عبد الرحمن القس قد شغل بما يسمع منها . وهو واقف خارج الدار . فتسارع مولاى فخرج إليه ودعاه إلى أن يدخل فيسمع منى . فأبى ! فقال له : أما علمت أن عبد الله بن جعفر ، وهو من هو فى محله وبيته وعلمه قد مشى إلى جميلة أستاذة سلامة حين علم أنها آلت ألية ألا تغنى أحدا إلا فى منزلها ؛ فجاءها فسمع منها ، وقد هيأت له مجلسها ، وجعلت على رءوس جواريها شعورا مسدلة كالعناقيد ، وألبستهن أنواع الثياب المصبغة ، ووضعت فوق الشعور التيجان ، وزينتهن بأنواع الحلى ، وقامت هى على رأسه ، وقام الجوارى صفين بين يديه ، حتى أقسم عليها فجلست غير بعيد ، وأمرت الجوارى فجلسن ، ومع كل جارية عودها ؛ ثم ضربن جميعا وغنت عليهن . وغنى الجوارى على غنائها ، فقال عبد الله : ما ظننت أن مثل هذا يكون !

وأنا أقعدك فى مكان تسمع من سلامة ولا تراها ، إن كنت عند نفسك بالمنزلة التى لم يبلغها عبد الله بن جعفر !

قالت سلامة : وكانت هذه والله - ياأمير المؤمنين - رقية من رقى إبليس ؛ فقال عبد الرحمن : أما هذا فنعم . ودخل الدار وجلس حيث يسمع ، ثم أمرنى مولاى فخرجت إليه خروج القمر مشبوبا من سحابة كانت تغطيه ؛ فأما هو فما رآنى حتى علقت بقلبه ، وسبح طويلا طويلا ؛ وأما أنا فما رأيته حتى رأيت الجنة والملائكة ، ومت عن الدنيا وانتقلت إليه وحده ...

قالت سلامة : وافتضحت مرة أخرى ، فتنحنح يزيد .. فضحكت وقلت : ياأمير المؤمنين ، أحدثك أم حسبك ؟ قال : حدثينى ويحك ! فوالله لو كنت فى

---

(١) هو الأحوص الشاعر المعروف .

الجنة كما أنت لأعدت قصة آدم مع واحد من أهلها حتى يطردوا جميعا من حسنها إلى حسنك ! فما فعل القس ويحك !

قلت : يا أمير المؤمنين ، إنه يدعى القس قبل أن يهوانى .

فقال يزيد : وهل عجب وقد فتنتم أن يطرده « البطريق »؟

قلت : بل العجب وقد فتنته أن يصير هو البطريق .. !

فضحك يزيد وقال : إيه ، ما أحسب الرجل إلا قد دهى منك بداهية ! فحدثينى فقد رفعت الغيرة ؛ إنى والله أرى هذا الرجل فى أمره وأمرك إلا كالفحل من الإبل ، فأقحم فى مفازة ، وأصاب مرتعا فتوحش واستأسد ، وتبين عليه أثر وحشيته ، وأقبل قبل الجن من قوة ونشاط وبأس شديد ؛ فلما طال انفراده وتأبده عرضت له فى البر ناقة كانت قد ندت من عطنها ، وكانت فارهة جسيمة قد انتهت سمنا ، وغطاها الشحم واللحم ، فرآها البازل الصئول ، فهاج وصال وهدر ، يخبط بيده ورجله ، ويسمع لجوفه دوى من الغليان ، وإذا هى قد ألقت نفسها بين يديه !

أما والله لو جعل الشيطان فيه يمينه رجلا فحلاً قويا جميلاً ، وفى شماله امرأة جميلة عاشقة تهواه ؛ ثم تمطى متدافعا ومد ذراعيه فابتعدا ؛ ثم تراجع متداخلا وضم ذراعيه فالتقيا ؛ لكان هذا شأن ما بينك وبين القس !

قلت : لا والله يا أمير المؤمنين ؛ ما كان صاحبى فى الرجال خلا ولا خميرا ، وما كان الفحل إلا الناقة ! وما أحسب الشيطان يعرف هذا الرجل ، وهل كان للشيطان عمل مع رجل يقول : إنى أعرف دائما فكرتى وهى دائما فكرتى لاتتغير . ذاك رجل أساسه كما يقول : (برهان ربه) ولقد تصنعت له مرة ياأمير المؤمنين ، وتشكلت وتحليت وتبرجت ، وجدتت نفسى منه بكثير ، وقلت إنه رجل قد غير شبابه فى وجود فارغ من المرأة ، ثم وجد المرأة فى وحدى : وغنيته يا أمير المؤمنين ، غناء جوارحى كلها ، وكنت له كأنى حرير ناعم يترجرج وينشر

أمامه ويطوى .. وجلست كالنائمة فى فراشها وقد خلا المجلس ، وكنت من كل ذلك بين يديه كالفاكهة الناضجة الحلوة تقول لمن يراها :

« كلنى ... ! »

قال يزيد : ويحك ويحك ! وبعد هذا ؟

قلت : بعد هذا يا أمير المؤمنين ، وهو يهوانى الهوى البرح ، ويعشقنى العشق المضنى ، لم ير فى جمالى وفتنتى واستسلامى إلا أن الشيطان قد جاء يرشوه بالذهب .. الذى يتعامل به !

فضحك يزيد وقال : لا أن الشيطان منك ذهبه ولؤلؤه وجواهره كلها فكيف لعمرى لم يفلح ؛ وهو لو رشانى من هذا كله بدرهم لوجد أمير المؤمنين شاهد زور ...!

قلت : ولكنى لم أيأس يا أمير المؤمنين ، وقد أردت أن أظهر امرأة فلم أفلح ، وعملت أن أظهر شيطانه فانخذلت ، وجهدت أن يرى طبيعتى فلم يرنى إلا بغير طبيعته . وكلما حاولت أن أنزل به عن سكينته ووقاره رأيت فى عينيه مالا يتغير كنور النجم ، وكانت بعض نظراته والله كأنها عصا المؤدب ، وكأنه يرى فى جمالى حقيقة من العبادة ، ويرى فى جسمى خرافة الصنم ، فهو مقبل على جميلة ، ولكنه منصرف عنى امرأة .

لم أيأس على كل ذلك ياأمير المؤمنين ، فإن أول الحب يطلب آخره أبدا إلى أن يموت . وكان يكثر من زيارتى ، بل كانت إلى الغدوة والروحة ، من حبه إياى وتعلقه بى ؛ فواعدته يوما أن يجئ متى وارى الليل أهله لأغنيه : « ألا قل لهذا القلب .. » وكنت لنته ولم يسمعه بعد . ولبثت نهارى كله استروح فى الهواء رائحة هذا الرجل مما أتلهف عليه، وأتمثل ظلام الليل كالطريق الممتد إلى شئ مخبوء أعلل النفس به . وبلغت ما أقدر عليه فى زينة نفسى وإصلاح شأنى ، وتشكلت فى صنوف من الزهر ، وقلت لأجملهن وهى الوردة التى وضتعها بين

نهدى : يا أختى ، اجذبى عينه إليك ، حتى إذا وقف نظره عليك فالنزلى به قليلا أو اصعدى به قليلا ...

قال يزيد وهو كالمحموم : ثم ، ثم ، ثم ؟

قلت : ياأمير المؤمنين ، ثم جاء مع الليل ، وإن المجلس لخال مافيه غيرى وغيره ، بما أكابد منه وما يعانى منى مغنيته أحر غناء وأشجاه . وكان العاشق فيه يطرب لصوتى ، ثم يطرب الزاهد فيه من أنه استطاع أن يطرب ، كما يطيش الطفل ساعة ينطق من حبس المؤدب .

وما كان يسوءنى إلا أنه يمارس فى الزهد ممارسة ، كأنما أنه صعوبة إنسانية فهو يريد أن يغلبها ، وهو يجرب قوى نفسه وطبيعته عليها ؛ أو كأنه يرانى خيال امرأة فى مرآة ، لا امرأة ماثلة له : بهواها ، وشبابها ، وحسنها ، وفتنتها ، أو أنا عنده كالحورية من حور الجنة فى خيال من هى ثوابه ، تكون معه ، وإن بينها وبينه من العبد ما بين الدنيا والآخرة ؛ فأجمعت أن أحطم المرآة ليرانى أنا نفسى لا خيالى ، واستنجدت كل فتنتى أن تجعله يفر إلى كلما حاول أن يفر منى .

فلما ظننتنى ملأت عينيه وأذنيه ونفسه وانصببت إليه من كل جوارحه ، وهجت التيار الذى فى دمه - ودفعته دفعا - قلت له : « أنت ياخليلى شئ لايعف ، أنت شئ متلفف بإنسان ، ومن التى تعشق ثوب رجل ليس فيه لابسه »؟

ورأيته والله يطوف عند ذلك بفره ، كما أطوف أنا بفكرى حول المعنى الذى أردته . فملت إليه وقلت [1] : « أنا والله أحبك »!

فقال : « وأنا والله الذى لا إله إلا هو ... »

قلت : « وأشتهى أن أعانقك وأقبلك »!

---

(١) هذا نص كلامهما كما رواه صاحب الأغانى - إلى قوله : (يوم القيامة) ؛ وهو كل القصة فى كتابه .

قال : « وأنا والله » !

قلت : « فما يمنعك ؟ فوالله إن الموضع لخال » !

قال : « يمنعنى قول الله عزوجل : ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾

فأكره أن تحول مودتى لك عداوة يوم القيامة

إنى أرى ﴿ برهان ربى ﴾ يا حبيبتى ، وهو يمنعنى أن أكون من سيئاتك وأن تكونى من سيئاتى ، ولو أجبت الأنثى لوجدتك فى كل أنثى ، ولكنى أحب مافيك أنت بخاصتكم ، وهو الذى لا أعرفه ولا أنت تعرفينه ، وهو معناك ياسلامة لاشخصك .

ثم قام وهو يبكى ، فما عاد بعد ذلك يأمير المؤمنين ، ما عاد بعد ذلك ، وترك لى ندامتى وكلام دموعه ، وليتنى لم أفعل ، ليتنى لم أفعل ، فقد رأى أن المرأة - فى بعض حالاتها - تكشف وجهها للرجل ، وكأنها لم تلق حجابها بل ألقت ثيابها .

سورة يوسف للقاضى عبد الجبار

أول مانذكر فى هذه السورة أنها مشتملة من آداب الانبياء صلوات الله عليهم ومن آداب الاخلاق والتمسك بالصبر والحلم وتوقع الفرج بعد حين والتشدد فى الصبر على المعاصى واحتمال المكاره على مالو تأمله القارئ وتمسك بكله أو بعضه لعظم موقع ذلك في دينه ودنياه (فليتأمل القارئ أولاً رؤيا يوسف للكواكب والشمس والقمر وان أباه صلى الله عليهما وسلم كيف تقدم بكتمان ذلك عن أخوته لئلا يستوحشوا وظن السلامة مع خوفه منهم عليه حتى أقوموا على ما أقدموا . وليتأمل ثالثا أنه بعد محبته وعن النظر لهم . وليتأمل رابعا صورة يوسف فيما وقع إليه من امرأة العزيز وكيف تشدد فى الاحتراز عنها واحتمل لذلك الحبس الطويل حتى كانت عاقبة صبره ما حصل من اعتراف

الكل بصيانته ووصوله إلى الملك والبغية . وليتأمل خامساً ما دفع إليه اخوته فى تلك السنين الصعبة من التردد إلى يوسف يطلبون من جهته القوت واحتمالهم لما عاملهم به . وليتأمل سادساً كيف صبر عليهم وكيف احتمل فى تخليص أخيه إلى حضرته واحتباسه عنده على مهل وقد كان يمكنه التعجل .

وليتأمل سابعاً كيف حسنت معاملته مع إخوته حين ظفر بهم وقد كانوا عاملوه من قبل بما عاملوه به . وليتأمل ثامنا كيف توصل إلى ازالة الغمة عن قلب أبيه وصبر إلى أن ظفر بالوقت الذى أمكنه فيه احضاره عنده على أحسن الوجوه . وليتأمل تاسعاً كيف كان صبر يعقوب ﷺ في بابه وفى باب غيبة أخيه وهو كالراجى لعودهما اليه واجتماعه معهما . وليتأمل عاشراً كيف قبل يوسف عذر إخوته وقد اعتذروا اليه مع تلك الجنايات العظام فكان جوابه (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم) . وليتأمل حادى عشر كيف قبل يعقوب أيضا عذرهم وزاد بان قال (سوف أستغفر ربى إنه هو الغفور الرحيم) إلى وجوه أخر تركنا ذكرها ثم أنه تعالى قال فى آخر السورة لرسوله ﷺ ولجماعة المكلفين (ذلك من أنباء الغيب فوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) فنبه بذلك على وجوب التمسك بهذه الاخلاق والآداب وكذلك قال تعالى فى أول السورة (نحن نقص عليك أحسن القصص) لان النفع يعظم بذلك لمن تأمله وهذا معنى قوله (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالهم) لان من تدبر القرآن وتمسك باحكامه وآدابه وأخلاقه انفتح قلبه للخيرات دينيا فاذا قرأه من غير تدبر يصير قلبه كأن عليه قفلا لا يتغير عما هو عليه فهذه المقدمة التى قدمناها فى هذا الكتاب .

[مسألة] وربما قيل فى قوله تعالى لرسوله (وإن كنت من قبله لمن الغافلين) كيف يقول ذلك ولم يكن موصوفا من قبل بذلك . وجوا بنا أن المراد من الغافلين عن هذه القصة وما شاكلها والا فمعلوم من حاله ﷺ التيقظ لكل ما يتعلق بالدين.

[مسألة] وربما قيل كيف قص يوسف رؤياه على يعقوب كأنه مصدق بها وكيف أمره أبوه بكتمان ذلك بقوله (لاتقصص رؤياك على إخوتك) كأنه قد تخطئ وتصيب وكيف قال (فيكيدوا لك كيدا) فأخبر عن أمر مستقبل لايعرف وجوابنا أن مثل ذلك قد يعمل فيه بالظن فلا ينبغى أن لا يفعل الا اليقين ويحتمل انه عرف من اخوته من قبل مايوجب أن يأمره بالكتمان وما يعلم عنده انهم لو وقفوا على هذه الرؤيا لكادوا له ولو كان مثل ذلك لايصح الا مع العلم لقلنا إنه تعالى قد أوحى إليه أما جملة وأما مفصلا .

[مسألة] وربما قيل فى قوله تعالى (وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك) أهو من قول يعقوب أو من قوله تعالى ، فان كان من قول يعقوب فكيف عرف ذلك . وجوابنا انه من قول يعقوب وقد كان الله أعلمه ذلك يبين ما قلناه قوله أخيرا (إن ربك حكيم عليم) . فان قيل فاذا عرف ذلك فكيف يجوز أن يغتم على ما ذكره الله تعالى فى الكتاب ويخفى عليه حال يوسف . وجوابنا إنه قد عرف ذلك من جهة الله تعالى على شرط أن يبقى فلذلك كان خائفا .

[مسألة] وربما قيل فى قوله تعالى (إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفى ضلال مبين) كيف يجوز ذلك منهم وهم أنبياء أو مرشحون للنبوة . وجوابنا أن محل الولد من أبيه أن ينزله منزلة سائر أولاده فلا يقبح قولهم أن أبانا لفى ضلال مبين اذ مرادهم ذهابه عن انزالهم هذه المنزلة أيضا وبعد فلو قبح لكان ذلك يرتع ويلعب) لان هذا القول لا يليق الا بحال الصبى وفقد كمال العقل وقولهم (اقتلوا يوسف أو اطرحوه) انما صح أيضا لان الحال حال الصبا وفقد كمال العقل فكذلك سائر مافعلوه بيوسف لما أرسله يعقوب معهم (فان قيل) كيف كانت الحال حال الصبا وقد قال تعالى بعده (وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا ولم لا يشعرونه) . وجوابنا انه يحتمل أن يكون بمنزلة قوله تعالى (وأوحى ربك إلى النحل) ويكون بطريقة الالهام أو اظهار أمارة ويحتمل فى هذا الايحاء أن يكون الى يعقوب لتقدم ذكر يعقوب .

[مسألة] وربما قيل ما معنى قوله تعالى (فأكله الذئب) وما معنى (وجاؤا على قميصه بدم كذب) فكيف يصح منهم الكذب ووصف الدم بالكذب . وجوابنا انه يحتمل فى قولهم أكله الذئب انهم قالوه تعريضاً لاخبرا على التحقيق ويحتمل أن يكونوا قد كذبوا لكنه وقع منهم فى حال الصبا فاما قوله (بدم كذب) فمن أحسن ما يوجد أن يكون المراد بدم واقع من كاذب على معنى قوله (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة) أى أهلها وسكانها وقوله تعالى (ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما) يدل على ما قلناه من انه كان ذلك فى حال الصبا .

[مسألة] وربما قيل فى قوله تعالى (ولقد همت به وهم بها) أليس ذلك كان بعد البلوغ والنبوة فكيف يصح من الانبياء العزم على الزنا . وجوابنا آن المراد بقوله (همت) العزيمة منها وبقوله (وهم الرغبة والشهوة وان كان شديدا فى الانصراف عن ذلك وقد يقال هم فلان بكيت وكيت بمعنى اشتهى ويحتمل ما قيل انه هم بها لولا أن رأى برهان ربه فنفاه عنه بشرط قد وجد ولذلك قال تعالى (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء) وقال بعد ذلك بآيات حاكيا عنها انها قالت (آلآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين).

[مسألة] وربما قيل فى قولة تعالى (وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وان كان قميصه قد من دبر فكاذبت وهو من الصادقين) كيف يصح الحكم بمثل ذلك مع تجويز خلافه . وجوابنا انه لا يمنع في شريعة ذلك الزمان الحكم بمثل ذلك وقد يجوز مثل ذلك فى شريعتنا أيضا فى أشياء كثيرة كالحكم بالقافة عند بعضهم وكالحاق الولد بالفراش عند جميعهم وكرد للقطة بالعلامات عن بعضهم .

[مسألة] وربما قيل فى قوله تعالى (وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن) كيف يصح ذلك من جماعة العقلاء حتى يتفق منهن قطع اليد عند مشاهدته . وجوابنا ان حديث يوسف

إذا كان تمكن فى قلبهن لما يمعن من خبر امرأة العزيز وشدة كلفها به لم يمتنع وبين أيديهن فاكهة ومعهن ذلك السكين أن يخرجن فى حال ارادتهن لقطع ذلك وأكله إلى أن يقع منهن خطأ وليس فى القرآن ان ذلك القطع كيف كان وفى أى موضع كان فى اليد ولا فى القرآن كم كان عدد النسوة ولا فيه ان ذلك وقع من جميعهن أو من أكثرهن ومثل ذلك لا يستنكر .

[مسألة] وربما قيل فى قوله تعالى فى جواب منام الفتيين كيف يصح أن يقطع بذلك فيقول (أما أحدكما فيسقى ربه خمرا وأما الآخر فيصلب) فيقول (قضى الأمر الذى فيه تستفتيان) وذلك كلام قاطع بهذا الأمر . وجوابنا انه يجوز أن يكون قاله من وحى ، فقد كانت الحال حال نبوة ولو لم يثبت ذلك لجاز أن يحمل على وجه الظن على أن الخبر فى ذلك كان يثبت ذلك لجاز أن يحمل على وجه الظن على وجه الظن على على أن الخبر فى ذلك كان يثبت لديه ، فالقرآن يدل على ان نفس يعقوب ونفس ابراهيم صلى الله عليهما وسلم كانوا قد أوتوا المعرفة بتأويل الرؤيا وقد قيل فى الخبر أنهما قالا بعد اظهارهما ما رأياه أنهما كذبا ، فقال يوسف (قضى الأمر) وذلك لا يكون إلا عن وحى .

[مسألة) وربما قيل كيف يصح وهو فى السجن أن يظهر أن آباءه ابراهيم واسحق ويعقوب ولا يظهر ذلك فى القوم وكيف يصح ممن نجا منهما أن لا يذكر يوسف الا بعد زمان والا بعد رؤيا الملك أو ليس كل ذلك نقيض العادات . وجوابنا أن يوسف عليه السلام كان فى صورة العبد الرقيق لذلك الملك وكان يخاف أن يظهر من كلامه ما يدل على خلاف ذلك خاصة فيمن كان خادما لذلك الملك وراجيا لان يعود الى الخدمة فلذلك أخفى نسبه فأما النسيان فى يصح فى مثل ذلك إذا قل الحرص فى مثله فلذلك قال تعالى (فأنساه الشيطان ذكر ربه) وقال (واذكر بعد أمة) ثم ما كان من جوابه لرؤيا الملك وموافقة الصدق فى ذلك ، يدل على نبوته .

[مسألة] وربما قيل أن يوسف لما أجاب فى رؤيا الملك (قال الملك ائتونى به) ولم يذكر له جواب الرؤيا ، كيف يصح ذلك وجوابنا أنه فى هذه السورة قد ذكر تعالى أشياء حذف جزء منها اختصارا ولدلالة الكلام عليه وذلك يحسن .

[مسألة] وربما قيل كيف يجوز وقد أمر الملك أن يخلص من السجن ان يختار أن يبقى فيه ويقول (ارجع إلى ربك فسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن) وقد كان يمكنه أن يخرج ثم التفتيش عن ذلك يكون أقوى وموقعه أحسن فأوهم أنه لا يخرج من السجن إلا وقد ظهرت براءة ساحته كالشمس فلذلك قال ما قال فلما قلن ما قلن من قولهن (حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز آلآن حصحص الحق) أيقن بظهور أمره فيما كان اتهم به فعند ذلك خرج إلى حضرة الملك .

[مسألة] وربما قيل كيف جاز من يوسف أن يمدح نفسه فيقول (اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم) ومدح النفس مكروه ومنهى عنه بقول الله تعالى (فلا تزكوا أنفسكم) وكيف يجوز للنبى أن يتولى من قبل الكفار . وجوابنا أن مدح النفس عند الحاجة إليه يحسن فلا يكون المراد المدح بل يكون المراد ذلك الوجه قال ﷺ " أنا سيد ولد آدم ولا فخر " فنبه بقوله ولافخر على أن مراده ليس مدح النفس فيوسف * أظهر ذلك لما كان فى توليته الخزائن من المصلحة خصوصا فى تلك السنين الشديدة فاما تولى ذلك من جهة الكفار فأنه يحسن إذا لم يمنع الشرع منه فإن كان ذلك الملك كافرا فذاك حسن وان كان مؤمنا فلا سؤال.

[مسألة] وربما قيل كيف يجوز فى اخوته وهم جماعة أن لا يعرفوا يوسف كما قال تعالى (فعرفهم وهم له منكرون) وذلك بخلاف العادة فى الجماعة . وجوابنا أن القوم فقدوا يوسف وهو فى سن الصبى فتغير وجهه وقد كان لباسه أيضا من قبل بخلاف لباسه وقد صار له الملك وكذلك سائر أحواله وكان القوم يتهيبونه عند المخاطبة لشدة الحاجة إليه وكل ذلك مما يجوز أن لا

يعرفه القوم فيجوز أن حالته فى معرفته لهم بخلاف حالهم لتمكنه من الامور وفراغ قلبه لتأملهم .

[مسألة] وربما قيل كيف يجوز مع المجاعة الشديدة أن لا يكيل لهم مع الحاجة حتى يأتوا بأخيه ومثل ذلك لايحل . وجوابنا أنه عرف أنه الحاجة ليست فى ذلك الوقت وكان له بغية فى حضور أخيه وأنه سينتهى ذلك إلى حضور أبويه أيضاً فلذلك فعل .

[مسألة] وربما قيل كيف يجوز أن يخفى خبره عليهم المدة الطويلة مع قرب المسافة بين مصر وبين البدو الذى كانوا فيه حتى يجرى الأمر على ماذكره الله عزوجل فى كتابه . وجوابنا أن إخوة يوسف لما أقوموا على مافعلوه فى أمر يوسف وجملة جماعة من السيارة وقد اشتروه بثمن بخس ظنوا فيه خلاف ما ظهر فقل تفتيشهم عنه ولما حمل واشتراه ذلك العزيز لامرأته واتخذاه كالولد كان كالمكتوم عن الناس مع حسن صورته ومثله ربما يخشى ظهوره ثم أقام محبوسا ما أقام وتردد فى المجلس فعمى أمره وقد طالت المدة فلذلك ولأمثاله خفى خبره فى أبيه وإخوته فأما خبرهم فلم يخف عليه لأن الذى عامل به اخوته يدل على أنه كان بذلك عارفا وكان يتلطف فى تحصيل أخيه ثم أبيه بالوجوه التى أباحها الله تعالى ومثل هذا السبب قد يخفى عنده الخبر فلذلك خفى على يعقوب وعلى اخوته خبره وقد كان قال لهم ما يدل على أنه اتهمهم فى أن الذئب أكله . وجوابنا أن يعقوب ماكان يعرف الاخبار الا من جهة أولاده لأن سائر الناس كان يقبض عنهم وأولاده كانوا لا يفتشون عن ذلك لأن سبب الجناية كان منهم وظنوا أنه مفقود فى الحقيقة ولأن شدة حزنه وما لقى من المحن فى تلك السنين كان يشغل عن مثله (فان قيل) كيف يجوز من يعقوب وهو نبى أن يحزن كل ذلك الحزن على يوسف أو ليس ذلك يصرف عن أمره الآخرة . قيل له قد أبيح للوالد محبة الولد والسرور بأحواله خصوصا إذا كان الولد على مثل صفات يوسف أو ما فرط فى أن سلمه من اخوته فتضاعف حزنه لذلك أيضا

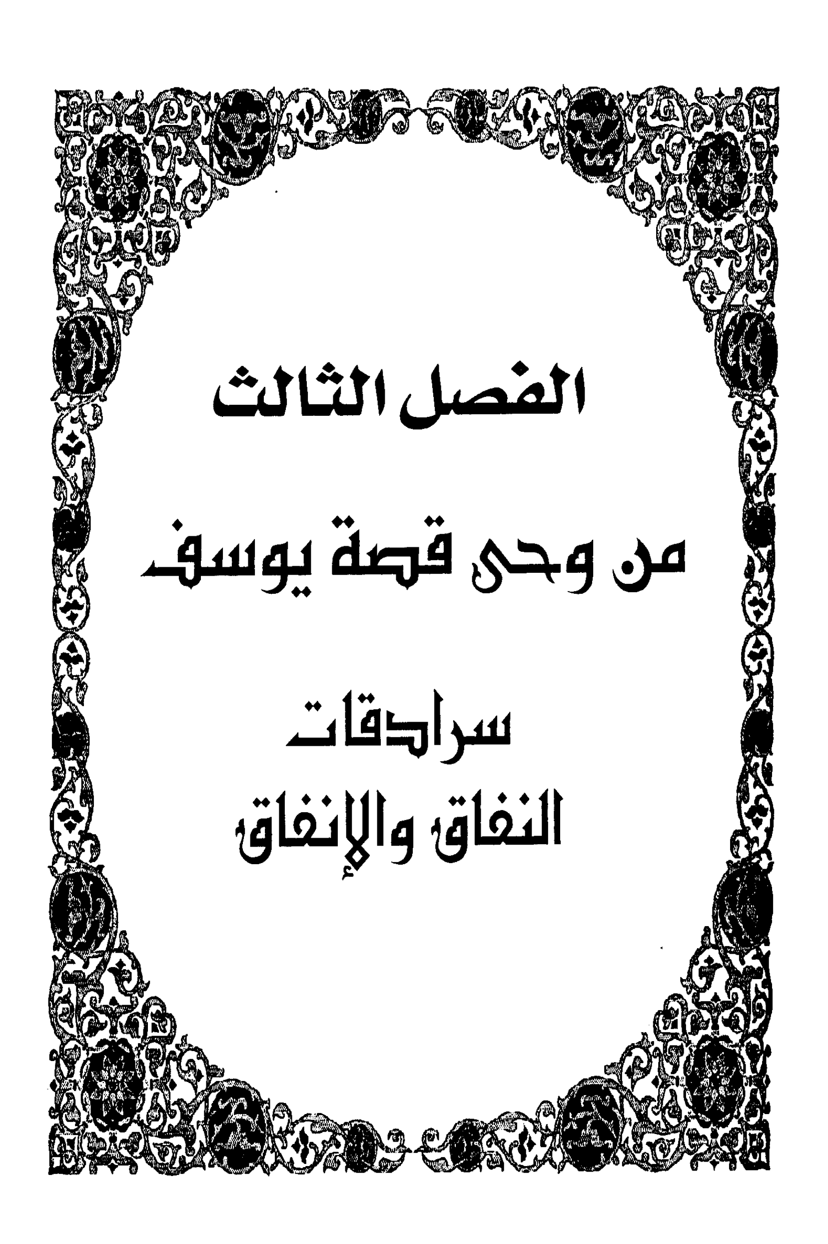
. فان قيل له كيف جاز أن يقول يوسف وقد جعل السقاية فى رحل أخيه إنهم لسارقون وهذا فى الظاهر كذب . وجوابنا أن جعل السقاية فى رحل أخيه يجوز أن يكون من قبله بأمره فأما ما قاله المؤذن من أنهم سارقون فهو من قبل المؤذن لا من قبل يوسف . فأن قيل فكيف قال (فما جزاؤه إن كنتم كاذبين قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه) . وجوابنا أن كل ذلك ليس من قول يوسف فأما تملك السارق فقد كان بين ذلك الملك ويجوز أن يكون فى بعض شرائع الانبياء فلذلك قالوا فهو جزاؤه . فان قيل وكيف قال تعالى (كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله) وأخذه على هذا الوجه معصية لا يجوز أن يشاءه الله فكيف يصح ذلك . وجوابنا أن المراد مشيئة حصوله هناك حتى يصح أخذه لأن كل ذلك مما يجوز أن يشاءه الله ولذلك قال بعده (نرفع درجات من نشاء) . فان قيل كيف يصح أن يقول يعقوب ﷺ (إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون) فيضيف إليهم التنفيذ والذم له وكيف جاز أن يقولوا له (إنك لفى ضلا لك القديم) فينسبون الضلال اليه . وجوابنا أنه لايمتنع أن يجد ريح يوسف وأمارات حياته وأن يكون الله تعالى قوى ذلك لما أراده من اجتماعهم وأما الضلال فى اللغة فهو الذهاب عن الشيء الذى فيه نفع فأرادوا بقولهم إنك لفى ضلالك القديم إنك تجرى على عادتك فى العدول عما ينفعك ومثل ذلك قد يجوز أن يقال للانبياء فيما يتعلق بأمور الدنيا فإن قيل كيف يعود بصيرا بالقاء القميص إليه قيل له أنه نبى وفى أيام الانبياء قد زال ومثل ذلك كالمعتاد إذا كان المرء شديد الخوف ثم يعود له الفرج والسرور فتعود قوة بصره ومنهم من قال بل كان بصره قد زال على ما يدل الظاهر عليه فيكون الجواب ما تقدم . فإن قيل كيف قال وقد عاد بصره (ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالا تعلمون) أوليس ذلك يدل على أنه كان عالما بحياة يوسف . وجوابنا إنه لايمتنع أن يكون عالما بذلك من جهة الوحى ولايمتنع أن يكون ظانا لذلك لعلامات وأمارات وإذا علم فقد يجوز أن يكون عالما بشرط لا يحل معه القطع ويجوز خلافه وأحواله

كانت تدل على أنه لم يكن قاطعا على موتع ولا يمتنع أن يكون قد أوحى إليه بما يدل على عوده إليه آخرا . فان قيل كيف يجوز أن يقولوا (يا آبانا استغفر لنا ذنوبنا) وهذا كلام معتذر تائب فيكون جوابه (سوف أستغفر لكم ربى) فلم يقبل عذرهم فى الحال وذلك ليجوز على الأنبياء . وجوابنا أنه قبل عزرهم فى الوقت وإنما وعدهم باستغفار مستقبل يقتضى استدعاء حصول المغفرة من قبل الله تعالى فاراد الدعاء لله تعالى وذلك مما ل يجب فى الوقت وإنما الذى يلزم فى الحال قبول العذر فقط كما قال يوسف عليه السلام (لا تثريب عليكم اليوم) ويحتمل أنه عليه السلام لم يعرف أن مقصدهم بقولهم (استغفر لنا) الاعتذار الخالص وان كانوا قد تابوا من قبل فقال سوف استغفر لكم ربى إذا عرفت منكم الاخلاص . فإن قيل كيف قالوا وقد دخلوا عليه أنك لأنت يوسف وقد ترددوا عليه حالا بعد حال حتى قال (أنا يوسف وهذا أخى) وكيف يخفى عليهم حديث أخيهم خاصة وكيف قال لهم (إذ أنتم جاهلون) وكانوا أنبياء . وجوابنا ما تقدم من أن حال يوسف كان قد تغير فى صورته وفى محله وكانوا لا يتأملون تأمل متعرف فلذلك خفى عليهم فأما أخوه فكانوا يعرفونه ولم يقل يوسف (وهذا أخى) لانهم لم يعرفوه لكنه أراد اظهار نعمة الله عليه باجتماع أخيه معه ولذلك قال (قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين) فاما قوله (إذ أنتم جاهلون) فالمراد به أيام الصبا وقد يقال لمن لايعرف الامور إنه جاهل لا على طريق الذم . فإن قيل فما معنى قوله وقد آوى إليه أبويه (ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) وكانوا قد دخلوا . وجوابنا انهما التقيا به خارج مصر فقال ما قال وذلك صحيح وهذا كما يستقبل المرء من يعظمه خارج البلد وأراد بذلك تعريفهم إنهم تخلصوا مما كانوا عليه من المحق والمجاعة فى ذلك البدو . فإن قيل فيما معنى (ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا) وكيف يسجدون له وذلك من العبادات التى لا تليق إلا بالله تعالى . وجوابنا إن رفعه لهما على العرش كان على وجه الاعظام وإيصال السرور ليهما

برفعهما على السرير المرتفع فأما السجود فقد يحسن شكرا لله إذا وصل المرء إلى نعم عظيمة فيجوز أن يكون سجودهما له على هذا الوجه وأضيف السجود إليه لما كان سبب ذلك كما يضاف السجود إلى القبلة على قريب من هذه الطريقة. ويحتمل فى السجود أن يكون وقع منهما على وجه الاعظام له فإن ذلك يحسن على بعض الوجوه. وقد قيل إن الله تعالى ذكر السجود وأراد الخضوع بضرب من الميل إلى الأرض أقرب إلى الظاهر بين ذلك قوله تعالى (وقال يأبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو) ودل بقوله (من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى) على إنه قد زال عن قلبه ما عملوه به فاضافه إلى الشيطان تحقيقا لذلك ودل بقوله وقد جعله الله نبياً (أنت وليى فى الدنيا والآخرة) بعد التحية وقوله (توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين) على وجوب الانقطاع إلى الله تعالى والخضوع له فى المسألة مع العلم بالغفر إن فمن الله تعالى على نبينا # بقوله (ذلك منأنباء الغيب نوحيه إليك) لان فى قصة يوسف من العجائب والعبر مايوجب الشكر ودل بقوله (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) على ان من يؤمن من الناس قليل من كثير وان كان الانبياء يحرصون على إيمانهم ودل بقوله (وما تسألهم عليه من أجر) على أن دعاء الغير إلى الإيمان لايكاد يؤثر الا مع رفع الطمع ودل تعالى بقوله (وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) على أن الواجب على العاقل التفكير فى الآيات إذا شاهدها وان ذلك من أعظم ما يأتيه المرء وكذلك قال بعده (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) ثم بين ما يلحقهم إذا أعرضوا عن الآيات من العقاب فقال (أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة) فنبه بذلك على وجوب الحذر من قرب الساعة وقرب الاجل ثم أمر نبيه ﷺ بأن يقول (هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى) ودل بذلك على أن هذا الدعاء كما يلزم الرسول يلزم من اتبعه من أهل المعرفة واليقين ودل بقوله

(وسبحان الله وما أنا من المشركين) على وجوب تنزيه الله تعالى ممن يدعو إلى الدين عما ليليق به وقوى من نفسه ﷺ من بعد بقوله (حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا) وبين مافى قصص الانبياء من النفع فى الدين فقال (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب) وهذا أحد ما يدل على أن الواجب أن يقرأ القرآن بتدبر حتى ينتفع المرء بذلك .

٢



الفصل الثالث

من وحي قصة يوسف

سرادقات النفاق والإنفاق

مدخل

كان لى زميل .. من ورائه إخوة يخشى بأسهم .. فكان بيننا محفوظ الحق . بل لا يجرؤ أحد على أن يحوم حول حماه

وكان له زملاء ربما كانوا أكثر منه تجملا . وأذكى منه عقلا ..

لكن كانت لهم عشائر .. تحط من قدرهم وتلاحقهم بالذم ..

فكان هؤلاء الزملاء فى الموقف الأضعف دائما . وربما ارتكب الأول خطأ فحوسب غيره عليه !!

إن إسرائيل ليس لها قوة ذاتية .. ولكن خصومات العرب .. هى التى مكنتها من أن يكون لها وجود فى هذا المحيط المتلاطم

وكذلك بعض الناس :

قد لاتكون لهم قوة ذاتية ولكنهم يستثمرون خلافات الأقوياء لحسابهم وعندئذ : يستنسر " البغاث " بأرض الصقور فلا يعطونهم حقهم من الاحترام :

تمهيد

(أشد الناس بلاء : الأنبياء . ثم الأمثل فالأمثل :

يبتلى الرجل على قدر دينه .. فإن كان فى دينه صلابة . ابتلى على قدر ذلك ..

ولايزال على ذلك .. حتى يمشى على الأرض وما له من ذنب) رواه أحمد

ودائما .. أقول لمن ابتلى بلاء شديدا : إن الله تعالى يختار للبلاء الشديد أشداء الرجال الذين يمنحهم الله تعالى حظا عظيما من الصبر يصمدون به أمام الأختبارات العصيبة .. ثم أعفى الضعاف من ذلك .. حتى لايسقطوا فى الطريق ..

فالبلاء بهذا المنطق نعمة .. لانقمة !

إنه ليس انتقاما .. وانما هو تابع لتدين المبتلى : قوة وضعفا .. فيبتلى الرجل على قدر دينه :

ولما كان الأنبياء أقوى البشر إيمانا .. لاجرم كان بلاؤهم على قدر دينهم : قويا شديدا .

أما غيرهم من البشر .. لما كان دينهم رقيقا فقد كان بلاؤهم رقيقا كذلك .. محتملا .

وإذا كان هناك منهم من لا يصلحه إلا الغنى .. ولو أفقره الله تعالى .. لفسد حاله ..

وإذا كان هناك منهم من لايصلحه إلا الفقر .. ولو أغناه سبحانه لفسد حاله .

إذا كان الأمر كذلك .. فإننا نقول .. وبنفس القوة - هناك من الناس من إذا اشتد بلاؤه .. فسد حاله .. وكان من رحمة الله عزوجل أن يتلطف بهذا الصنف من الناس .. فلا يرهقه من المصائب عسرا .. ليبقى له إيمانه .. فلا يطير شعاعا . عند هجمة البلاء .

من عوامل الصبر

ومن العوامل التى تعين المبتلى على تجاوز المحنة " معايشة الآخرة " بمعنى أن يظل الإيمان باليوم الآخر فى وجدانه .. لأن ذلك يعنى أن الإقامة الدائمة هناك .. ونحن ضيوف فى هذه الدنيا .. كسحابة صيف عن قريب تقشع .

ومن ثمرات ذلك :

أ- الاستعلاء فوق مباهج الدنيا

ب- الاستهانه ببلائها .. من حيث كان ثمنا زهيدا لسعادة دائمةفى دار هى الحيوان .

وإذا غاب هذا الشعور الحادبا لآخرة .. فلا معنى للحياة !

وقد فطن إلى هذا المعنى باحثون من الغرب .. فحاولوا ترسيخ الإيمان بالآخرة تأثرا بالقرآن وأحداث الإسلام ..

ومن هؤلاء : " دانتى " الإيطالى . والذى ألف " الكوميديا الإلهية " متأثرا بالمعرى فى رسائل الغفران . وابن عربى بالإسراء والمعراج ..

لقد أراد " إبليس " بما حكاه عنه القرآن " أنظرنى إلى يوم يبعثون " أراد أن يخلد فلا يموت ..

ولكن أمنيته كانت ضد طبائع الأشياء : فلا بد أن يموت . وهذا معنى (.. إلى يوم الوقت المعلوم) .

وقد كان هناك من العقلاء من رفضوا هذه النزعة المادية . المتشبثة بالدنيا حتى كان من وصاتهم :

بعد موتى .. لا تضعوا الزهور على قبرى :

فإنه يكلفكم كثيرا ..

ولا تصبوا ماء الورد على بقايا عظمى :

فإنه يخلف الطين !

والميت لا يرتوى !!

ومع هذا النذير المبين .. لكن الإنسان هو الإنسان .. فى كل زمان ومكان :

يتنازعه عاملان :

١- حب الحياة

٢- وكراهة الموت ..

ومن أجل ذلك فهم راغبون فى كل مايذكرهم بالحياة .. نافرون من كل ما يذكرهم بالموت !

إن الهياكل .. والزلازل .. والبراكين .. كل أولئك يذكرهم بالموت !!

أما الحدائق .. والأنهار .. وسرادقات العزاء الفخمة ووفود المعزين : كل أولئك يذكرهم بالحياة .. ومن أجل ذلك : تنافسوا فيها .. بحجة أنه ليس هناك أحد أفضل من أحد ؟!

والسبب الثانى :

ماكان لهم من بصيرة نفاذة : تستشرف العواقب .. ومايترتب على البلاء من رخاء ..

ومنهم تلك المرأة الصالحة المستبصرة :

لقد كان أهلها يرونها وقت الإنعام .. مقطبة الجبين .. أما عند البلاء : فكانت ترى وهى ضاحكة مستبشرة .. فلما سئلت فى ذلك كان جوابها حلا إسلاميا لهذا المعادلة الصعبة .. قالت :

فى الرخاء .. انتظر الحساب .. فأنا من هذا الحساب خائفة وجلة ..

أما عند البلاء .. فأنا انتظر الفرج .. فكنت أنتظر هذا الفرج ضاحكة مستبشرة !!

والسبب الثالث :

فهمهم طبيعة الدنيا .. الذين تعاملوا معها انطلاقا من قاعدة تقول :

لاتستغرب وقوع الأكدار .. مادمت من أبناء هذه الدار

وفى هذا المعنى يقول " الجنيد " :

لست أستبشع ما يرد على من العالم .. لأنى قد أصلت أصلا هو :

أن الدنيا دار هم . وغم . وبلاء . وفتنة . ومن طبيعتها أن تلقانى بما أكره :

طبعت على كدر وأنت تريدها

صفوا من الأقذار والأكدار

ومكلف الأيام ضد طباعها

متطلب فى الماء جذوة نار

وفى نفس الاتجاه كان " مالك بن دينار " يسير :

جاءه صديق يعزيه فى وفاة أخيه .. فقال :

والله .. لن أرتاح .. حتى أعلم ما هو عليه ؟!

ولله أعلم ما هو عليه .. حتى أصير إليه !!

والرجل الصالح هنا لا يريد أن تكون الحياة سجنا .. وهو مكبل خلف القضبان ..

وإنما هى الإشارة إلى أن الحياة مطبوعة على الأكدار وعلينا الا نتصورها لقمة عرس .. ولكنها هم موصول وتتقاضا أن نتصور هاكذلك .. فلا نركن إليها .. وإنما تظل الهمة معقودة بدار هى الحيوان .

والسبب الرابع :

يقينهم بالجزاء العظيم فى الآخره ..

روى أبو هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : " مايصيب المسلم من نصب ولا وصب . ولاهم . ولا حزن ولا أذى . ولاغم .. حتى الشوكة يشاكها إلا كفر

الله بها عنه خطاياه)[١]

فانظر كيف كان ألم الجسم اليسير .. سبيلا إلى طهارة الروح .. وياله من ثمن ضئيل . ومن ورائه الثواب الجزيل .

ومعنى ذلك :

أنهم مسلمون بالبلاء ابتداء .. لأنه قدرهم .. لكن الرجاء بعد التسليم بالبلاء :

أ- ألا يكون فى الدين ..

ب- وأن يكون على ماقال الامام " جعفر بن محمد الصادق " :

اللهم اجعله أدبا . ولا تجعله غضبا .

ج - وأن يكون مما يمكن الصبر عليه ..

ومن أجل ذل كان الرجل يدعو لأخيه فيقول :

لاأبلاك الله بلاء يعجز عنه صبرك .

وأنعم عليك نعمة .. يعجز عنها شكرك !

أما بعد

فقد كانت البقرتان تدوران بالساقية ..

لكن التى عثرت .. ثم وقعت فى البئر .. هى بقرة الفقير الصالح بالذات .. ونجت بقرة الذى يتعامل بالربا ..

وفرح الاثنان فرحا عظيما ؟!!

وشتان مابين الرجلين فى الفرح :

أما الربوى : فقد كان فرحه شعبة من فرح " قارون : فرح طغيان وغرور .

(١) دواه البخارى .

أما فرح الرجل الصالح . الذى تصور البلاء فضلا اختصه الله تعالى به فهو ممن قال الله تعالى فيهم :

(قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون)

وهكذا كان سلفنا الصالح يستقبلون البلاء .. فماذا كان عليه خلف أضاعوا ما ورثوا واتبعوا الشهدوات والجواب هو : مايلى :

تفتح عينيك .. فماذا ترى ؟

كل ماتراه عينك نهارا .. فالعمل خيرمنه ..

وكل ماتراه ليلا .. فالنوم خير منه !!

وهكذا .. تعقدت الحياة فى القرية بعد بساطتها :

كان الفلاح يذهب إلى الحقل .. ومعه زوجته وولده .. ثم " منديل " " محلاوى " يعقد أطرافه على بعض أرغفة .. جافة .. تحتضن قطعة من الجبن ..

ثم إذا به اليوم حين يفقد عزيزا لديه .. لايرضى أن تكون المصيبة واحدة ..

بل يجب أن تكون مصيبتين بما ينفق من ماله .. أو من قرضه . فليس هناك أحد أهم من أحد .. ولا سرادق أوسع من سرادق ؟!!

والمهم .. أن يحضر " الرمز " الإسلامى :

وماذا عن الرمز الإسلامى ؟

إنهم لم يدعوه من قبل ليعظ الناس .. فيسمعه الناس .. لكنه اليوم مدعو " ليراه " الناس معزيا .. مؤكدين أنهم يعملون لذواتهم .. لا لموتاهم ..

وإن تعجب فعجب أنه مدعو - وبنفس القوة - مع " النائحة " التى تثير الأشجان :

هذه النائحة التى لاتبكى على الميت .. وإنما جاءت لتأخذ الدراهم . وهى التى تأمر بالجزع .. والله عزوجل ينهى عنه ..

ثم إنها تنهى عن الصبر .. والله تعالى يأمر به !

إنها تؤذى الميت .. وتثير الحى ؟!

الأزمة الأزمة

وتأمل معى :

الوفود القادمة من بعيد .. تتلبث غير بعيد تنسق هندامها .. أمام حلبة السباق ؟!

ثم وافت " سيارة " الشيخ الذى نزل منها فردا .. وحيدا . لقد وصل الشيخ وهم يتبادلون الإشارات : أيهم يتقدم الوفد ؟

إنه ليس الأعلم ؟ وإنما هو الأضخم !!

كان الظن أن يكون وجود الشيخ حاسما للقضية .. باختياره أما مالهم لحظة الدخول .. بسبب السن على الأقل :

وكان الملك عبد العزيز رحمة الله يجلس .. وأولاده صفا واحدا عن يمينه : على ترتيب أعمارهم :

وكانوا إذا جاء أمير منهم تنحى له من هو أصغر منه - ولو بأسبوع واحد - حتى يأخذ مكانه بحسب عمره .

ولكن القوم اليوم لايعتبرون العلم .. ولاالعمر مسوغا للإمامة !!

وبينما " الشيخ " يمضى الى السرادق وحده .. رأى المشرفون أن يتلبثوا يسيرا .. حتى يدخل الشيخ فردا .. قبل أن يظن الحاضرون أنه رمزهم .. فيخصم المشهد من حسابهم !!

إنه لابأس أن يكون إماما فى أمور الأخرة ..

أما فى الدنيا : فليس من حقه ذلك ..

يفعلون ذلك .. بينما هو الناصح .. إذا غامت الحقائق .

وهو الفيصل .. إذا تعقدت الأمور !!

وهكذا .. جاءوا يواسون .. فسقطوا فى امتحان الصبر على مقاومة مشاعر الغرور

أجل ابتلوا .. فما صبروا .. كما صبر رسولهم الذى راودته الجبال الشم عن نفسه .. فأراها أيما شمم !

ألا وأن الإنسان لايصبر على الشدائد .. لكنه يسقط فى إمتحان النعم !

النعم .. التى تسول لهم الاسترسال مع الأمانى .. والتعلق بأهداب الدنيا :

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلى الله بعض الناس بالنعم

وما أكثر الأجسام الغضة .. والمظاهر البراقة ..

وما أجملها أيضا .. لو سلمت من النار !!

الواقع المر

ومهما كان قولك بليغا .. فلن يبلغ مكان الأقناع فى قلوب هؤلاء .. وإذا لم يكفهم الموت واعظا .. فماذا أنت فاعل مع هؤلاء ؟

إنك لاتملك إلا الاسى على قلوب عليها أقفالها .

ولكن : قل مع القائل :

أين الحقيقة ؟ لاحقيـ ـقة ! : كل مازعموا كلام

الناس غرقى فى الهوى لـم ينـج غـر أومـام

إن الحقيقة غادة : كالغيد : يضمرها اللثام
كل يهيم بها .. فإن لاحت لهم .. صدوا وهاموا
كم أشرق الحق الصرا ح .. فأعرضت عنه الأنام
والناس - لو تدرى - خفا فيش .. يروق لها الظلام
لا حق !! إلا أنه لاحق فى الدنيا يرام

حمّى التنافس

ألا إنه التنافس فى أمور الدنيا .. فهم يتمرغون فى تراب " الأمير " .. فذلك سبيلهم إلى المناصب ..

لكن الشيخ يذكرهم بالآخرة .. وهم يفرون من كل مايذكرهم بها .. وتلك علة قديمة أشار إليها القرآن (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخره وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون) الزمر ٤٥

ما معنى هذا ؟

معناه :

اتخاذ القرآن مهجورا . وفى لحظة الموت الرهيبة .. ويكفى هجرانا لقيم القرآن .. أنه وهو يتلى الآن .. تهمل أحكامه وحكمه :

وإلا .. فأين الالتزام بأدب القرآن .. فى الوقت الذى تؤلف فيه لجنة وظيفتها : فحص مركز القادم الاجتماعى : فالرجل المرموق : يجلس فى الصدارة .. بينما من لبس الجلباب .. فى الزوايا المظلمة .. حفاظا على بهاء " الحفل " وعلى وجاهة سدنته !

هذا البهاء الذى لم يكتف بتصنيف السيارات إلى " ملاكى " " وأجره" .. ليكون لكل صنف مكان .. ولكنه تعداها إلى تصنيف البشر كذلك ..

وقل معى :

والليالى من الزمان حبالى .. يلدن كل عجيب

اللاعبون بالنار:

لكن هؤلاء اللاعبين بالنار لايعلمون أنهم بتصرفهم هذا يخدمون أغراض أعداء القرآن:

هؤلاء الذين يريدون: عزل القرآن عن الحياة .. أو عزل الناس عنه !

وذلك . حين حصروا دوره فى مجرد " الطرب ":

عبر " سرادقات " ينفق فيها الألوف ..

ليدفع الأيتام وحدهم " فاتورة الحساب " فى سلعة ليسوا طرفا فيها .

والذى يحدث هو:

أن الذين لايملكون .. يتحكمون فيمن يملكون ! وهم الأيتام !

ومن قسوة هؤلاء الأولياء أنهم أضروا بهؤلاء الأيتام مرتين:

فلم يكتفوا بموت العائل ..

فأرادوا أن يموت أولاده من بعده .. جوعا ! بما أنفقوا من أموالهم

وخطيئتهم الكبرى:

أنهم جعلوا البلاء غضبا .. ولم يجعلوه أدبا !

ومن معانى ذلك: أن الموت لم يكمل قصة " العائل " الراحل ..

بل إن الموت بدأ بموته يكتب روايته .

والفضل فى ذلك إلى هؤلاء الأولياء الطامعين .. والذين لايكتفون بتجريد الأيتام من أموالهم .. بل .. لو استطاعوا لجردوا اعظامهم من لحومهم ؟!

إنها سرادقات الإنفاق .. والنفاق !

إنها " بعض " سرادقات العزاء :

يبذل المال فيها بسخاء ..

وقد يكون هذا المال المبذول .. حق الفقيد فى حياته :

ثمنا للدواء .. والطبيب .. ثم ضن به الورثة عليه .. فلما مات .. أنفقوه على قبره ؟!!

وفى الوقت الذى يذرف الأوفياء الدموع .. على فقيدهم راجين أن لو زاد الله من أعمارهم فى عمره .. إذا بهؤلاء " البهاليل " مسرورين برحيل العزيز .. والذى كان رحيله فرصة لإثبات الذات .. وإعلاء مجد العائلة !!

ولو كان ذلك مخصوما من حساب اليتامى !

واذ يقول عز وجل :

(وما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل)

أى أن مناعم الحياة الدنيا كلها لاتساوى قطرة فى بحر الآخرة : العميق : بلا قرار .. الواسع : بلا شطآن !

بينما يقول الحق ذلك .. فإن هؤلاء يحاولون أن يجعلوا الدنيا هى البحر .. وأن الآخرة نقطة باهته إزاء الدنيا ..

ينبئك بذلك ما رأيته شخصيا من سرور ابن الميت .. والذى مات أبوه بين يدى المعركة الانتخابية .. وإذن .. فإن فى نشر نعى العائلة مزهوة برجالها .. ربما كان خير دعاية تمهد للنجاح ..

أما المرحوم .. فله الله !!

وأما النفاق : فلا نقصد به النفاق الشرعى .. لا .. إنما هو النفاق

الاجتماعى .. الذى لايظهر إلا فى جو يسيطر عليه جلال الموت .. وكان الظن أن نعيش الآخرة .. وأن نتناسى مظاهر الدنيا !!

ويوم الوفاة على الأقل !!

ماذا حدث ؟؟

تلا القارئ قول الله عز وجل :

(ولنبلونكم بشئ من الخــوف والجــوع ونقص من الأمــوال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين) البقرة/ ١٥٥

وقـد أحـسن القـارئ صنعـا .. عندمـا قـرأ هذه الآية الكريمة ومـا تلاها .. يريد بذلك التخفيف من حدة الانفعال . وشدة الحزن .. حيث كان الفقيد عزيزا لدى أهل القرية جميعا . بل ولقد أحسن القارئ مرتين :

مرة إلى الجمهور الحاشد .. والذى كانت الآية عليه بردا وسلاما ..

ثم أحسن مرة أخرى عندما فجر فى قلوب صناع الكلمة نبعا .. ليخرج من بعد زرعًا !

وكنت واحدا من هؤلاء :

وألحت المعانى علىّ إلحاحا :

حتى دخلت معى المسجد .. تطلب منى أن أقول شيئا :

وجلست فى الصف الأول .. فماذا رأيت :

رأيت معنى " النقص فى الأنفس " :

لقـد كنت أجلس - وأنا طالب - فى الصف الأخيـر .. ولكننى أجلس اليـوم فى الصف الأول .. وقلت لنفسى :

أين ذهبت الصفوف العشرة التى كانت أمامى ؟

قالت نفسى :

لقد رحلوا جميعا .. وأنت من ورائهم على نفس الطريق ..

نزل الدنيا أناس قبلنا ∴ رحلوا عنها .. وخلوها لنا

فنزلناها كما قدنزلوا ∴ نخليها لقوم بعدنا

وساد المسجد صمت وقور .. قطعه ذلك النشيج على العزيز الراحل

ونهضت لأقول :

وماذا يفيد البكاء ؟! بعدما نزل البلاء ..

(سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص)

نضح البكاء دموع عينك . فاستعر ∴ عينا لغيرك دمعها مدرار

من ذا يعيرك عينه تبكى بها أرأيت عينا للدموع تعار ؟

ثم .. هذا الذى يبكى بحرقة .. ينسى أنه ماض على الطريق .. فلماذا البكاء كأنك مخلد .. على ميت قد تدفن معه فى نفس اليوم ؟

والواقع الصارم يؤكد أنه :

بينما يرى الإنسان فيها مخبرا ∴ حتى يرى خبرا من الأخبار

وهو ماتؤكده الآية الكريمة :

(إنك ميت وانهم ميتون) الزمر / ٣٠

فمحمد ﷺ : حى يرزق .. ومع ذلك يخاطبه ربه سبحانه : إنك ميت .. وأمتك معك ميته كذلك ..

وإذن فالذى يبكى راحل .. فإنه ميت بالقوة يبكى ميتا بالفعل !!

واذكر هنا تلك الزوجة التى انتبذت مع زوجها مكانا قصيا . يبكيان معا زميلتها الشابة التى رحلت .. وخلفت من بعدها ذرية ضعافا .. وزوجا مكلوما .. ثم كان هناك فى الأعماق امتنان أن الله تعالى .. كتب على غيرهما الموت .. والحمد لله على النجاة منه !!

وما هى إلا ساعات حتى لحقت بها زميلتها !!

إننا نتوقع أن أجلنا يأتينا من بين أيدينا .. لا من خلفنا :

ومعنى ذلك :

أننا ننظر أما منا .. فإذا غيرنا يموت .. ويترك مكانه شاغرا .. أما نحن فأحياء .. ثم نبالغ فى البكاء عليه .. لأنه رحل من دنيانا ولم نعد نراه .. مع أن آجالنا متربصة بنا .. ومن خلفنا :

تطلبنا .. ومن حيث لانحتسب !!

يقول أحد الكاتبين :

(لقد ولدنا لنموت . فكل الذى له بداية له نهاية - هذه هى الحقيقة المؤكدة فى حياتنا . ولكننا ننسى ذلك . ونفاجأ بهذا المعنى الرهيب عندما يموت القريب والحبيب والصديق . والذى فعله عمر بن الخطاب عندما قيل له إن محمدا ﷺ قد مات ، فهدد بقطع رقبة كل من يجرؤ على أن يقول كلاما كهذا ، حتى جاءه أبوبكر وذكره بالآية الكريمة : (ومامحمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) - فتساقط عمر بن الخطاب باكيا . وفى الأسبوع الماضى كنت أقرأ فى تاريخ الجبرتى مستغرقا فى الذى جرى فى مصر على أرضها وعلى أناسها . وفجأة وجدت شيئا أفزعنى . قرأت أن السيد أحمد شنن قد مات ، فرفعت رأسى منزعجا ، وأحمد شنن نقيب المحامين صديقى .. ولكن الجبرتى كان يتحدث عن احمد شنن آخر عاش ومات من ٢٠٠

سنة وفجأة قرأت أن أحمد شئ المعاصر قد مات هو أيضا - أعوذ بالله - اللهم رحمتك .ولم أكن أعرف اننى كنت اقرأ الغيب .. وان الذى أحسست به وكتبته كان نبوءة أليمة . يرحم الله أحمد شئ صديقى العزيز . فقد كان شخصا ممتعا وشخصية قوية وكان غليظ الصوت رقيق الطبع . وكان إذا تحدث خطب واذا خطب ترافع . فهو لاينسى انه محام فى أى وقت ..

وصدفة غريبة أيضا أننى كنت فى مكتبه نتحدث عن صديق لنا مات . هو يقول وأنا أيضا . واندهشنا كيف اننا اندهشنا لموته المفاجئ مع أن الموت ليس له (خريطة طريق) . فهو يجئ للنائم والماشى والطائر والقائم . وعلى الرغم من أن أكثر الناس يموتون على فراشهم ، فإن أحدا لا يخاف أن ينام فى فراشه . فهناك وهم آخر وهو ان كل واحد يتصور أن الموت يمر إلى جواره ولايمسه بسوء .. وأن الموت على رقاب العباد إلا نحن رغم أننا من العباد أيضا .. فإذا مات أحد ، مات وحده . ومهما يكن الناس حوله فهذا لايقدم ولا يؤخر .. فالموت عام لكل الناس . ولكنه شخصى أيضا . وكم ضحكنا على قاض ذهب يزور زوج اخته الطاعن فى سنه ذهب ولم يعد . فقد مات القاضى وسار زوج أخته فى جنازته . ولذلك صدق المثل الشعبى الذى يتساءل : كيف حال المريض ؟ والجواب : أن المريض عاش ! والسليم هو الذى مات ..

والشخص يموت والشخصية لاتموت ..

ومرة أخرى

ماذا رأيت .. وماذا سمعت ؟

(إن آلام البشر كتاب عنوانه : الوداع

فالمرض .. وداع الصحة . والفقر .. وداع الغنى .

والسجن .. وداع الحرية .

والموت .. وداع الحياة)

وعندما ترامى إلى صوت الناعى .. كان لابد من أداء واجب العزاء .. سبيلا إلى تحقيق مقصود الشرع من وراء هذا العزاء :

وصحيح أن الراحل لن يعود .. فلا تتحقق أما نينا :

لاتتحقق : بلهف . ولابليت . ولا لو انى !

وإنما تخف وطأتها بالمواساة:

ذلك بأن للأحزان فترة حضانة لابد منها .

ونحن مطالبون برعايتها حتى تبلغ أجلها .. ثم نصادقها بعد ذلك . بمعنى:

أن نتجاوزها . قبل أن تتحول إلى اكتئاب . فعذاب . فإما أن تذهب .. وإما أن تبقى منها بقايا ضئيلة . وملامح قليلة ..

ويتم ذلك كله بالمواساة .

وثانيا :

فى العودة إلى القرية روح وريحان ..

والحديث عنها : مديد الذيول .. كثير الفصول :

قد لاتلتئم فيها الجراح .. ولكنها تندمل .

وقد تخف فيها الآلام .. بيد أنها لاتزول :

تذهب إليها : فإذا فى نفسك عبق من أريجها .. ونفحة من عبيرها بين إخوان : تزيد بهم الألفة . وتزول الكلفة .

أريد لأنسى ذكرها فكانما ∴ تمثل لى " ليلى " بكل سبيل

وقد قيل (وكل إنسان يؤثر بلده على سائر البلدان :

لقد عـرفت من ذهب إلى " أمريكا " . وعـاش فى أكبـر مـدنهـا . واسـتـمـتـع بمنتجات حضارتها . ووسائل الترف فيها .

فما أنسـتـه ناطحات السحاب فيها قـريتـه .. ولا بيتـه المبنى من الخشب واللبن فى أزقتها .

وكان يحس أنه فى أمريكا غريب : نزيل فندق .

مـاشـعـر بـالاسـتـقـرار . إلا لما وصل القـرية . ودخل الدار . وهذا لعمـرى من حكيم ما قدر الله . وله الحكمة البالغة فى كل ماقدر .

ولولا ذلك .. لاجـتـمع الناس كلهم فى مـواضع المال والجـمـال . وخـربت البلاد الفقيرة . وأقفرت) أ.هـ

وإذا كنت أذهب إليها من قبل لنحدث من فوق الأرض فإننا نذهب اليوم .. لنذكر من تحت الأرض :

من تحت التراب !!

ولقد صممت هذه المرة ألا أكون متحدثا .. ولكن : متأملا .. مدركا بالتأمل ما كانت القرية عليه .. ثم ما صارت إليه :

ما كان أهلها عليه من تقاليد ارتضاها لهم شرعهم .. ثم ما صاروا إليه من بدع فرقوا بها دينهم . فصاروا شيعا !

الموت .. فى منطق الصالحين

قيل لواحد من الشيوخ :

أتحب أن تموت ؟

فقال : لا !

فقيل له : ولم ؟ قال :

ونفى الشباب وشره . وبقى الشيب وخيره :

فأحب أن تدوم لى هاتان الحالتان :

إذا قعدت .. ذكرت الله

وإذا قمت .. حمدت الله

فإذا وافت بشائر المنيه كانت وصاتهم أن يكتب على القبر: تعلقت بالدنيا وليس لها بقاء ..

وضيعت العمر .. وليس له بدل !

وتتبعت النساء .. وليس لهن وفاء

وجفوت الرب .. وليس منه عوض

وقبل هذه الفترة كان الصالحون يعدون أنفسهم ضيوفا فى هذه الدنيا : سحابة صيف .. عن قريب تقشع !

إنما الأيام تنقضى .. ولايغلبها إلا من رضى .. ولقد رضى بها هؤلاء الصالحون فى جيوبهم .. لا فى قلوبهم : وذلك بعد أن جردوا من يقينهم سيفا .. قطعوا به حبال طمعهم فى الدنيا فماكوها .. قبل أن تملكهم :

لأن الغنى هو : عن الشئ .. لا بالشئ !

فإن فعلت فإن الله تعالى يأخذك من نفسك .. قبل أن تتأمر عليك .. ومن الدنيا قبل أن تفتنك !

لقد كانت الآخرة أكبر همهم ومبلغ علمهم :

وحتى إذا رغبو فى الدنيا يوما .. فمن حيث هى ركوبهم إلى الآخرة على ما يقول عزوجل:

(وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا) (١)

وتلك هى نظرتهم إلى الدنيا التى كانت فى تصورهم :

ذلك السراب الخادع ..

عصفورة على شجرة .. ونحن نطاردها .. ولا نمسك بها .

وقد نمسكها بقسوة .. فتموت .. أو نموت نحن :

رأيت المنايا خبط عشواء : من تصب تمته .. ومن تخطى يعمر .. فيهرم

وهكذا :

كل قوى .. يضعف

وكل جديد .. يبلى

وكل ناضر .. يذبل

وكل حى يموت !

ويظل الحى من الدنيا فيما يشبه الصحراء المجدبة :

لايجد رجعا لغنائه إلا صداه .

ويظل الناس أسارى تقاليد : تعودوها .. فما عادوا يشعرون بها .. حتى

(١) سورة القصص

يوافيهم ريب المنون .. وهم فى لهوهم يلعبون :

يتجرعون العذاب .. ثم يحرمون من الثواب !

بل لقد كان الصالحون يستبشرن بالموت .. حتى قيل لأحدهم :

تستبشر بالموت ؟! فما كان جوابه إلا أن قال : أتجعلون قدومى على خالق أرجوه .. كمقامى مع مخلوق أخافه ؟!!

وهكذا كانوا من الضيق فى سعة : حتى قالوا :

من ضاق به أمر .. فليذكر الموت : فإن الأمر الضيق يتسع عليه !!

الوعظ الناطق

لقد استمعوا إلى الواعظ الناطق (القرآن)

يخبر عن الواعظ الصامت (الموت)

فتنبهوا قبل أن يأتيهم اليقين !

حتى قال " البسطامى " يوما :

الناس يفرون من الموت .. وأنا أتمناه ؟!

فلما سئل .. قال :

حتى إذا جاء يوم الحساب . فيقول لى ربى :

عبدى !

فأقول : لبيك !! ثم يفعل بى بعد ذلك ما يشاء !

الأصـل

فى حياتنـا

(ليس الضحك هو الأصل فى الحياة .. ولكنه : البكاء

يولد الطفل باكيا .. ويودعه الناس إذا مات باكين .

لذلك كانت أخلد القصص الأدبية وأعظمها هى : المآسى .

وكانت النغمات الحزينة أعمق فى النفس أثرا . وكانت المراثى الصادقة أشرف وأكرم من المدائح .

يقول الشاعر :

ضحكنا . وكان الضحك منا سفاهة   وحق لسكان البسيطة أن يبكوا)

ولقـد ظل الحسن البصـرى .. وعلى مـدى أربعين عـامـا .. مـاضحك مرة واحدة !!..

ولقد يراه الرائى .. فكأنما هو أسير ينتظر ضرب عنقه

ومن مدرسته ذلك الشاعر البكاء .. والذى قال :

ياديرسمعان قل لى : أين سمعان

وأين سكانك اليوم الألى سلفوا   ∴   قد أصبحوا وهمو فى الترب سكان

وقفت أسألـه جهـلا ليخبـرنى   ∴   هيهات من صامت بالنطق تبيان

أجـابنـى بلسـان الحـال : إنهمو   ∴   كانوا .. ويكفيك قولى : إنهم كانوا !!

حياة مباركة

ولقد كان من بركة حياتهم أن حاولوا الوقوف إلى جانب المنكوب .. حتى يتجاوز محنته .. التى تستحيل فى قلبه منحة :

مات ابن لأحد الصالحين ..فعزاه صديقه قائلا :

إن كانت مصيبتك فى ابنك أحدثت لك عظة فى نفسك .. فنعم المصيبة مصيبتك .

وإن لم تكن أحدثت لك عظة فى نفسك .. فمصيبتك فى نفسك أعظم من مصيبتك فى ابنك !

وإنها لتعزية أثقل فى الميزان من كل رثاء :

وإلا فالأمر على ماقيل : (فماذا ينفع الميت من الثناء .. ثم ماذا يضره من الهجاء ؟ او ماذا يؤثر فيه الإهمال والنسيان ؟!

إن دعوة صالحة من قلب حاضر :

من أخ مؤمن بظهر الغيب .. خير للميت من ديوان كامل من عبقرى الشعر فى رثائه ومن مئة خطبة فى تأبينه

وعشرة كتب فى دراسة أدبه) أ.هـ

الرثاء

بين النفاق .. والإشفاق

يقولون عن الرثاء :

إنه المديح .. ولكن : بزيادة " كان " :

فالرجل الحى : كريم .. فيقال له : أنت كريم .. وغدا .. إذا مات .. نزيد

الفعل " كان " فنقول : لقد كان الرجل كريما .

لكن الأسراف أو الإسفاف فى الرثاء عدوان على حق الميت فى الاستغفار له

إن الرثاء حق الرثاء .. ما كان تذكيرا بما فى حياة الراحل من دروس وعبر .. حتى يتخذ الناس إلى مثلها سبيلا ومن هذه المراثى :

ماقاله " ابن السماك " يرثى " داود الطائى :

(ياداود :

ما أعجب شأنك بين أهل زمانك !!

أهنت نفسك .. وإنما تريد إكرامها .

وأتعبتها .. وإنما تريد راحتها :

أجشبت المطعم .. وإنما تريد طيبه .

وأخشنت الملبس .. وإنما تريد لينه .

ثم أمت نفسك .. قبل أن تموت .. وقبرتها قبل أن تقبر:

(عشق الموت مكرها فى شبابه ... رب موت نحار فى أسبابه

قبل أن يدفنوه فى القبر ميتا ... دفنته الأيام فى جلبابه

فإذا رمت أن تراه بعين ... لاترى غير أنة فى ثيابه

أيها الموت : لاعد متك خلا ... طالما خلص الفتى من عذابه)(١)

رغبت نفسك عن الدنيا .. فلم ترها لك قدرا .. إلى الآخرة : كأن سيماك فى سرك .. ولم يكن سيماك فى علانيتك .

---

(١) الأبيات معترضة من محفوظاتى

تفقهت فى دينك . وتركت الناس يفتون .

وسمعت الحديث . وتركتهم يتحدثون .

وخرست [١] عن القول . وتركتهم ينطقون :

لا تحسد الأخيار . ولا تعب الأشرار ..

ولا تقبل من السلطان عطية . ولا من الإخوان هدية .

آنس ما تكون إذا كنت بالله خاليا .

وأوحش ماتكون .. آنس ماتكون بالناس ؟!

فمن سمع بمثلك ؟! وصبر صبرك ؟ وعزم عزمك ؟

لا أحسبك إلا وقد أتعبت العابدين بعدك :

سجنت نفسك فى بيتك .. فلا محدث لك . ولا جليس معك .

ولا فراش تحتك . ولاستر على بابك . ولاقلة ببرد فيها ماؤك . ولا صحفة يكون فيها غذاؤك وعشاؤك :

مطهرتك : قلبك

وقصعتك : نورك [٢]

داود : !

ماكنت تشتهى من الماء بارده . ولا من الطعام طيبه .

ولامن الملبس لينه .

بلى ! .. ولكن زهدت فيه لما بين يديك :!

فما أصغر ما بذلت .. وما أصغر ماتركت فى جنب ما أملت !

---

(١) من باب : طرب (٢) النور : إناء يشرب به الماء

فلما مت .. شهّرك ربك بموتك .. وألبسك رداء عملك .

وأكثر تبّعك :

فلو رأيت من حضرك .. عرفت أن ربك قد أكرمك .

فلتتكلم اليوم عشيرتك بكل ألسنتها .. فقد أوضح ربك فضلها .. بك)

إنه التذكير : التذكير بالداء .. وبالدواء معا .. انطلاقا من قوله تعالى يصف الداء : " كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى "

ثم الدواء : (إن إلى ربك الرجعى)

قال الفضيل لرجل : كم سنك ؟ قال :

ستون .

فقال له : منذ ستين سنه وأنت راحل إلى ربك . كادح إليه إنا لله وانا إليه راجعون :

من علم أنه راجع إليه .. علم أنه موقوف بين يديه

ومن علم أنه موقوف .. علم أنه مسئول .

ومن علم أنه مسئول .. أعد لكل سؤال جوابا

إنما كان العلم للعمل به .. وإلا ارتحل !

اعملوا ما شئتم .. فلن يقبل إلا ما عملتم به .

وذلكم هو الحق :

ولكن الحق اليوم : ليس مع من هم أقوم قيلا وأهدى سبيلا .

ولكنه مع الأكثر عددا .. والأهم منصبا .

ومن حكمة القواد

قال الإسكندر لأمه يوما .. لماوجدها متعلقة به تعلقا شديدا :

إذا مت : فأقيمى حفلا ساهرا . مرحا . ثم أعلنى:

لا يحضر هذا الحفل من أصابته مصيبة !

فلما مات الاسكندر لم يحضر الحفل أحد !!

وكان ذلك درسا مدبرا فى الاصطبار .. ولقد فهمت أمه الدرس .. فمن ذا الذى تصفو مشاربه ؟!

ألا إن الحزن - كما قيل - ديمقراطى النزعة :

يدب إلى الأكواخ المتضائلة ..كما يتسلق القصور الشماء.. هكذا .. دون مبالاة ولا حذر !!

من سلبيات العزاء

وفى الركن القصى بالسرادق الضخم .. كنت أرمق ما يموج به " الحفل الكبير " !!

هذا فلان : لماذا أتى .. وقد كان مع المصاب الذى تلقى معه النبأ الأليم فى المدينة ؟

ثم ذلك الذى حضر قبل صلاة العشاء .. ومن بلد سحيق .. لماذا ينتظر حتى تقضى صلاة العشاء : إنها " الوجاهة " التى لاتحسب عزاء فى الوقت الضائع .. حيث لن يراه أحد !

حفار والقبور

والليالى من الزمان حبالى : يلدن كل جديد !

ومن هذا الجديد :

تثبت آلات تصوير فى سرادقات العزاء ؟!!

ثم لتكون الصور إعلاما بمجد الأسرة - التى نسيت فقيدها تماما .. ثم كانت قضيتها الأولى هى :

إلى أى حد كنا فى عيون الناس ؟!

إنهم يجاملون الأحياء ..

أما الميت - فله الله ..

وحسبنا الله ونعم الوكيل

وقل معى آسفا :

هكذا حفار و القبور :

إنهم يغنون .. وهم يشمون رائحة الموت !!

بل قد ترى الجميع يبكون فى المآتم .. ولكنّ كلا يبكى على ميته !!

أما الميت الذى جمعهم فلا يبكى عليه أحد !

ونكرر : والليالى حبالى .. بكل جديد !!!

وقد كنا : نضحك ونحن صغار من تلك المرأة التى فوجئت - بجنازة - فدخلت تولول وسط النساء .. فلما أدت " واجبها " سألت عن الميت : من هو ؟!!

لكنا نضحك منها .. ولكن ضحكنا اليوم .. كالبكاء تماما : على ما صار إليه أمرنا وفى " عصر التنوير " !

ومع أن الباطل لجلج

ولكن الناس يفضلون أن يخوضوا فى بحر هذه العادات .. وهو بحر ليس له مرفأ مريح !!

إنها عادات (كأنها الخيل الشمس :

حمل عليها أصحابها . وخلعت لجمها . فتقحمت بهم فى النار .

ألا وإن التقوى مطايا ذلل :

حمل عليها أهلها . وأعطوا أزمتها .. فأوردتهم الجنة :

إنه حق وباطل : ولكل أهل)

وتتراجع أخلاق القرية التى ارتضاها الله تعالى لأهلها .. لتمسك بحلاقيمهم عادات مكلفة .. مؤسفة ! وكأنها الليلة المظلمة : لايهتدى فيها الضال . ولايستيقن المهتدى !

وبينما هؤلاء الناس تسير بهم عاداتهم كأنهم الظعينة : يسار بها إلى حيث يسار بها .. فإن ذلك لايمنعنا من أن نذكرها محذرين من عقباها :

فإن قبل الناس .. فنعماهى .

وإن كانت الأخرى .. فما كنت لأرضى قومى بسخط الله تعالى

وقد نختلف : لكننا لانحاول اقتحام السرائر .. فنحكم بما لانعلم .

أو بما نعلم كذبه .. وإنما .. ومن واقع النصح نقول مخلصين مانعتقد أنه الصواب .. حول أمور ندفع إليها دفعا .. لااختيار لنا فيها :- يجيش بها الصدر . ولايحتمل الكتمان :

وثالثة الأثافى

والد الفقيد .. يتلقى العزاء .. مساء الخميس ثم ينفض المولد ..

وفى صباح السبت .. لايذهب إلى عمله فى انتظار زملائه فى العمل .. والذين يفدون إليه .. على مشهد من الجيران ؟!

وأثناء ذلك .. تتعطل مصالح الناس فى الديوان .

ومع مصالح الناس .. تضيع أيضا أموالهم .. حين لايكفى هذا العزاء المباشر .. ولابد من المشاركة على صفحات الجرائد .. وتضرب كفا بكف .. وتتعجب .. حتى تقرر ألا تتعجب .. من هذه الأفكار التى كانت " خطأ مطبعيا " فى سجل الحياة !

أفكار أناس يستقدمون القارئ

ولو دفعوا الآلاف .. بينما " المفسر الواعظ " يعود كاسف البال .. قليل الرجاء !!

ذلك بأنهم يلحون على كل ما يربطهم بالحياة مهما كان باهظ التكاليف..

أما " القيم " فلا حساب لها فى تقديرهم !

وأين القيم فى حياة رجل يقرأ " نعى " قريبة فلا يجد اسمه .. فيهرع إلى المسئول غضبان أسفا أن لم يكن مع الأسماء اللامعة فى إطار واحد ؟!!

إنه مشغول بنفسه .. أما المرحوم فقد قطع الموت كل صلة به

إنه المظهر الذى يفرض على خفاف الأحلام المبالغة فى " تزيين " حجرة الاستقبال على حساب قيمة النظافة المهدرة داخل البيت .. مادام الناس لا يرونها !!

ثم هم فى العزاء :

يعزون .. يعنى :

يسلفون المصابين اليوم يدا .. لعلهم يكافئونهم بمثلها غدا

وقد تابعت مجاملة الأصدقاء لصديقهم على صفحات : الجرائد .. وقلت:

سبحان الله !

الميت .. لاينالـه من ذلك نصيب .. وإنما فقط مجاملات الأحياء .. للأحياء..

ويبقى نعى الأسرة المخصوم من حساب الأيتام .. الذين لايستطيعون حيلة . ولايهتدون سبيلا . ولم يعطوا للكبار توكيلا !

ألا إن المشاركة " بالنعى " لهى المشاعر الهادئه . الباردة .. تنزل على صفحات الوفيات لتجرى دموعا فى أنهارها ..

أما الحزن الحقيقى فهو ذلك المستكن فى القلوب .. حرارة تتبخر بها الدموع .. فلا تنهمر !!

والمطلوب هنا : عبرة .. نستدر بها عبرة !

ولكننا على ماقيل :

والناس فى غفلاتهم - ورحى المنيه تطحن

وكم من مترفين .. غافلين .. ترى أحدهم :

وفى أنامله الذهب .

وعلى لسانه الأمر والنهى .

فى خلقه بأس ..

ويناديه من السماء مناد :

ما خلقت لهذا

وربما تمادى فى جحوده فقال :

إنما العيش فى بهيمية اللذة لا ما يقوله الفلسفى

حكم كأس المنون أن يتساوى فى حساها : الغبى والألمعى

ويصير البليد تحت ثرى الأرض كما صار تحتها اللوذعية

أصبحنا رمة تزايل عنها فضلها الجوهرى والعرضى

فاسأل الأرض عنهما إن أزال الشك والشبهة السؤال الخفى

وتلاشى كيانها الحيوانى وأودى تميزها المنطقى !

ولكن هذه النزعة العبثية البهيمية لن تصمد أمام الحقيقة الإيمانية .. التى لاتجعل المسلمين كالمجرمين :

وإنها لسنة إلهية فى البشر :

ربط الإمامة بالإيمان .. لابالنسب :

يقول عزوجل :

(قال ومن ذريتى .. قال لاينال عهدى الظالمين) البقره / ١٢٤

وتضرب كفا بكف .. وتتعجب .. حتى تقرر ألا تتعجب ! .. من هذه الأفكار التى كانت " خطأ مطبعيا " فى سجل الحياة !

أفكار أناس يستقدمون القارئ ولو دفعوا الآلاف .. بينما " المفسر الواعظ " يعود كاسف البال .. قليل الرجاء !!

ونكرر لنقرر

إن مأساة " الشيخ " لم تقف عند هذا الحد :

فقد خرج من السرادق فى زحمة الناس :

لا إماما .. ولا مأموما ..

ثم فوجئ بالساحة الكبرى مزدحمة بالسيارات الفارهه .. أما سيارته هو .. فقد انتبذت مكانا قصيا .. حتى لاتقع عليها العيون .. لانها " أجرة " ولايليق فى منطق النفاق الاجتماعى أن يجئ المعزى إلا بالسيارة الفارهة ..

وياله من مشهد هو الذى عناه الشاعر :

ياهول ذلك من مرأى شهدت . وقد   وددت لو كنت أعمى : لا أشاهده

لقد هبت على القوم ريح عاتيه .. وظفت أمواجها عاليه ..فصدرت الأوامر بإخفاء سيارة الشيخ عن العيون .. ليسلم للقوم مايريدون .. وماذا يريدون ؟

يريدون الدنيا .. ومن خلال جلال الموت الذى يطل على الموقف من كل أفق رضوا بالأمانى .. إبتلوا بحظوظهم   وخاضوا بحار الحب : دعوى .. فما ابتلوا !!

وهكذا .. يصر الواهمون على ألا يودعوا فقيدهم إلى القبر .. وإنما يفقدون معه أخلاق القرية !! والتى دفنوها معه ..

وكان ذلك استسلاما لعادات وتقاليد :

(هذه العادات التى ابتدعها الناس :

فتنكبوا فيها جادة العقل . وخالفوا فيها عن أمر الشرع . وجعلوا من الموت الذى هو الموعظة الكبرى تقاليد حمقاء : مافيها إلا الإنفاق والنفاق . والكثير من الإرهاق) أ.هـ

ماذا فعل الشيخ :

لقد انحدر الموقف إلى أعماقه نارا تلسع .. وانعقد فى سماء حياته سحبا :

سحبا .. تنهمر دموعا .. لا على " المرحوم " : فقد صار فى ذمة أرهم الراحمين .

ولكنها الدموع على هؤلاء الحمقى :

الأحياء .. الأموات

والذين أشار الشاعر إليهم بقوله على لسان فقيدهم :

فيم اجتماعكمو هذا ؟ لتأبينى ؟!

أنتم أحق بتأبين الورى دونى !!

وهذا ما رآه الشيخ .. فماذا فعل ؟

لقد رمى بالدنيا فى وجوه عشاقها .. ثم مضى لاينظر إلى هؤلاء :

وإنما رجل الدنيا وواحدها   من لايعول فى الدنيا على أحد !

قل الله .. ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون .

مفارقات عجيبه

ومن المفارقات العجيبه :

ذات يوم .. لم أستطع الوفاء بواجب العزاء ..

وبعد ثلاثة أيام .. التقيت بشقيق المتوفى .. وسلمته قدرا من المال .. وقبل أن يفرغ شحنة الغضب فيمن جاءه معتذرا .. قلت له :

هذا المبلغ من المال هونفقات سفرى لو أننى أديت واجب العزاء فى المرحوم شقيقك ..

أرجوا أن تسلمه إلى فلان المسكين .. ليذهب إلى الراحل الكريم رحمة به ونورا فى قبره ..

ومعنى ذلك أننى حريص على " مجاملة " الميت .. غير آبه بالمرة بمجاملة الحى ..

إن الناس مشغولون بما يرضون به غرور " المصاب " فيتفانون فى عمل ما يرضيه ..

أما الميت .. فقد رحل .. ولم يعد أحد يعمل له ؟!

وسل أنها صفحة الوفيات تنبئك بالخبر :

بعشرات الألوف من الجنيهات .. والتى لو صرفت على المساكين لفتح الله بها بيوتا ..

ولكن " الغيارى " لم يفعلوا .. ولن يفعلوا .. وكان صدام حسين " أذكى منهم عندما بنى قبرا " لميشيل غصلق قبرا " كلفه ملايين الدولارات .. والتى لن تغنى عنه من الله شيئا !

ومن المفارقات :

كنت فى ندوة فبلغت بعدها بوفاة والد زميلى فى هذه الندوة .. فقدمت له واجب العزاء .. ونحن على " المنصة "

ولكن يبدو أن واحدا من أسرى العادة لفت نظرى إلى إن سفر " المصاب " إلى حيث دفن أبوه .. يعنى أنه لايكفى أنك قلت له هنا : رحم الله الوالد .. وأعظم أجرك .. ولكن لابد من سفرك على إثره .. إلى بلده البعيد :

فأهم من هذا الدعاء .. أن يراك الناس هناك .. وإن تدعو للمرحوم .. بالرحمة ؟!!

وصممت على أن عزائى يكفى .. وإذا كان " المصاب " ممن يلتزمون بالسنة

.. فهذه هى السنة !!

وقد يتصل بى من يقول

فلان يذكرك بأن والده توفى .. وهو ينتظر منك أن تؤدى " واجب " العزاء.

وقلت له :

كان المفروض أن تدافع عنى .. لتقول له مثلا :

إن الواجب هنا هو الا تذكر الشيخ . حرصا منا على وقته !

ويرحم الله أبا حنيفة

لقد كان من رأية أنك لو رأيت من يتناول الطعام فى رمضان ناسيا .. وكان مريضا .. أو كان ضعيفا .. فلا تذكره .. ودعه يأكل رزقا ساقه الله تعالى إليه ..

وما أكثر الضعاف: من هذا اللون .. والذى يفرض علينا" الواجب " أن نطلب منهم الدعاء ..

الدعاء : الذى نسقط به " واجب " العزاء !!

قال صاحبى :

ولماذا لاتعلن عن موتاك ؟

قلت له .. ليس هذا فقط .. ولكنى أخاصم من يعلن عنهم . فلما تساءل قلت له :

فرضنا أننى أعلنت بين جيرانى .. وزملائى .. ثم جاء منهم مائة مثلا ..

فهذا يعنى : أن مائة يوم خصموا من عمرى .. بعدد من عزانى !!

مائة يوم .. أرد بها جمائل من عزانى .. مع أن هذه المائة حين عزتنى لم تضف إلى شيئا ! وانما المرء بأصغريه :

قلبه ولسانه .. وليس بعزاء إخوانه .

وفى سجوة الليل .. قد ترى أصحاب الفقيد حيارى .. رغم كثرة المعزين .. لماذا ؟

إن عـزاء كل هؤلاء المخلصين .. إنما هو عـزاء مع إيقـاف التنفـيـذ حـتى يحضر " المسئول والمسئول مشغول .. بجولات اخرى ..

ولما لم يأت .. فكأن عزاء لم يكن .. وهذا هو المصاب الحقيقى " ؟؟!!

وهكذا نهتم بحضور من لا يحس بنا ..

ثم ننسى فى غمرة التعلق بالدنيا .. ننسى واجبنا الأساسى وهو :

الاستمساك بقيمة البر ..

ومن البر ان نواصل عطاء الفقراء الذين كل المرحوم يحبهم ويحبونه على قدر ما كان يؤثرهم به لما كان حيا .. وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة :

(وإذا حضر القسمة أو لو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا) النساء / ٨

واجبنا أن يظل خاطرهم مجبورا .. وسعيهم مشكورا .. إذا كنا حقا نريد لموتانا أن يظلوا فى بؤرة الشعور .. لا يغيبون !

الا إننا حراص على كثرة " الإيداع " فى بنك الحياة الدنيا .. أما مايدخر لنا فى الآخرة : أما مصلحة " المرحوم " فلا تخطر ببالنا .

قال الأستاذ الإمام : الرجوع إلى الله تعالى رجوعان :-

رجـوع فى هذا العـالم إلى سنتـه الحكيمـة ونظام خليقتـه الثابت ككون تحصيل الغنى يكون بكذا من عمل العامل وكذا من توفيق الله تعالى وتسخيره ، وكون الفقر يكون بكذا وكذا من نحو ذلك ، وككون البذل من فضل المال يأتى بكذا

وكذا من المفاسد والمضار العامة والخاصة ولا يستقل الإنسان بعمل من ذلك تمام الاستقلال بحيث يستغنى به عن الرجوع إلى الله تعالى بالحاجة إلى معونته وتوفيقه وتسخير الأسباب له . أقول : ولو فرض أن بعض أعماله يتم بكسبه وسعيه وجده لماكان راجعا إلا إلى الله تعالى فيه ؛ لأنه ما عمل ولا وصل إلا بالسير على سنته ، وإنما يكون مستغنيا عن الله تعالى إن قدر أن يغير سننه ونظام خلقه وينفذ بعلمه من محيط ملكه وسلطانه (إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان . فبأى آلاء ربكما تكذبان٥٥:٣٣:١٩).

قال : وأما الرجوع الآخر فهو الرجوع فى الدار الآخره حيث تظهر نتائج الأعمال وآثارها (يوم لاتملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله ٨٢ : ١٩)

قال الرجل الصالح للملك لما عرض عليه خدمته .

قال له :

عندك سيدان .. هما فى نفس الوقت خادماى :

الغضب .. والشهوة : يحكمانك

وهما خادماى !!

(والعاقل :

يقيس مالم يرمن الدنيا .. بما قدرأى .

ويضيف مالم يسمع منها .. إلى ماقد سمع .

ومالم يصب منها .. إلى ماقد أصاب .

ومابقى من عمره .. بما فنى .

ومالم ينل منها .. بما قد أوتى .

ولا يتكل على المال .. وإن كان فى تمام الحال :

لأن المال : يحل ويرتحل . والعقل يقيم : ولا يبرح) (١)

---

(١) روضة العقلاء للبستى / ٢٥

الفهرس

P

تابع الفهرس